ⓒ محمد سالم باعامر، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
باعامر، محمد سالم
رحلة في ظلال السيرة النبوية./ محمد سالم باعامر . ــ جدة، ١٤٣٢هـ
ص ٢١٦ ؛ ١٧X٢٤
ردمك :٧-٧٧٠٠-٠٠-٦٠٣ -٩٧٨
١ ــالسيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ، ١٤٣٢/٥٧٢٩

رقم الإيداع :٥٧٢٩/ ١٤٣٢
ردمك :٧-٧٧٠٠-٠٠-٦٠٣ -٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م

الإخراج الفني والطباعة:

سلام جدة للتسويق

المملكة العربية السعودية - ص.ب ٤٣٨٤٩ جدة ٢١٥٧١
تليفون : ٦٩١٧٥٦٥ فاكس تحويله: ٢٢٢
بريد الكتروني : salamjm2010@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

بناء على ما طلبه مني طلاب وطالبات الانتظام والانتساب القيام بعمل اختصار لكتابي رحلة في ظلال السيرة النبوية فقد شرعت في عمل هذا الاختصار بعد توفيق الله بأسلوب سهل ومبسط يستطيع الطالب والدارس لسيرة الرسول ﷺ فهمه بكل يسر وسهولة.

ورغبة في تحقيق الفائدة المرجوة للطلاب والطالبات اعتمدت في الاختصار على المعلومات الهامة بعيدًا عن اختلاف المؤرخين وكثرة الروايات وقد حاولت جاهدًا أن أبتعد في هذه الدراسة على ما اعتاد اتباعه بعض المؤرخين من تطويل وسرد لأكثر من رواية للحادثة الواحدة، واكتفيت بذكر الرواية المتفق عليها دون الإخلال بالسرد التاريخي والأسلوب العلمي.

ولا شك أن دراسة سيرة الحبيب محمد ﷺ أمر له مكانته وأهميته لكل مؤمن مسلم نطق بالشهادتين، فهو يحقق أهدافها التي تتجلى بالاقتداء به والسير على نهجه، وذلك من خلال معرفة شخصيته الفذة وأعماله وأقواله وتقريراته الحكيمة، وتكسب المسلم محبة الرسول ﷺ، واتباع سلوكياته، والتمسك بأخلاقه ، ونهجه الفريد .

وسوف نتعرف في دراسة سيرة الحبيب محمد ﷺ على مختلف جوانب حياته منذ ولادته حتى وفاته، مرورًا بطفولته وشبابه ودعوته السرية والجهرية وجهاده وصبره على إيذاء أعدائه له ولأصحابه رضوان الله عليهم، وانتصاره على أعدائه من قريش، و يهود يثرب من بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

إن سيرة الرسول ﷺ تعد نموذجًا فريدًا صادقًا من مثل البر والرحمة والتواضع والخلق الحسن والعفو عند المقدرة، إنها سيرة عالية سامية في معاملة الله الخالق وحده لا شريك له، ومعاملة المخلوق، وتجلى ذلك في قوله تعالى :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤) وكذلك كان زوجًا مثاليًا وأبًا عطوفًا، وقائدًا ومحاربًا ماهرًا، وحاكمًا وسياسيًّا محنكاً، ومربيًا وداعيًا وزاهدًا لا مثيل له، ويجد المسلم مراده وبغيته وهدفه وكل ما يحتاج إليه في سيرة الرسول ﷺ العطرة، كما يتعلم المسلم من سيرته ﷺ الآداب الرفيعة والأخلاق الحميدة

وطهارة القلب، والعقائد السليمة، ومحبة الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله، وكل ما يقصده في مسيرة الحياة، وهي صالحة لكل زمان ومكان، وهي غنية في كل جانب من الجوانب التي تحتاجها مسيرة الدعوة الإسلامية، فالرسول ﷺ لم يمت إلا بعد أن ترك سوابق كثيرة لمن يريد أن يقتدي به في الدعوة والدين والتعلم والجهاد وكافة شؤون الحياة.

وأخيرًا أسأل الله عز وجل أن أكون قد وفقت في تقديم هذه الدراسة عن سيرة سيد الخلق الرحمة المهداة محمد ﷺ ، وأن يكون عملي هذا لوجه الله خالصًا ولعباده نافعًا وأن يجعل كل ما كتبته في ميزانِ حسناتي إنه سميعٌ مجيبٌ.

أ.د محمد سالم بن بكر باعامر

أستاذ التاريخ الاسلامي الوسيط

التمهيد

أحوال الجزيرة العربية

قبل الإسلام

موقع وأحوال الجزيرة العربية قبل الإسلام

أولاً: موقع الجزيرة العربية وأهميته [(١)]

أطلق العرب على شبه جزيرتهم تجوزاً اسم جزيرة العرب مع أن الماء يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب فقط، أما في الشمال: فتوجد المساحة المعروفة ببادية الشام وأرض الجزيرة، وكان العرب في رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب يصلون إلى شواطئ البحار من ثلاث جهات: البحر الأحمر، والمحيط الهندي، والخليج العربي، فظنوا أن أرضهم محاطة بالبحار من جميع الجهات، وأطلقوا عليها كلمة جزيرة، ولكن هناك بعض من المعاصرين أطلقوا عليها شبة الجزيرة وهي في حقيقتها جسر يمتد بين آسيا وأفريقية.

تقع جزيرة العرب في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، ويحدها من الشمال بلاد الشام، وجزء من بلاد العراق، ومن الجنوب خليج عدن وبحر العرب، وهو امتداد للمحيط الهندي، ومن الغرب خليج العقبة، والبحر الأحمر (بحر القلزم)، ويحدها من الشرق خليج عمان، والخليج العربي، وجزء من بلاد العراق الجنوبية.

والجزيرة العربية لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي فهي تقع بين القارات المعروفة بالعالم القديم، وتلتقي به براً، وبحراً فهي من جهة موقعها الشمالي الغربي باب للدخول إلى أفريقية، ومن جهتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا ولبلاد العجم، وآسيا الوسطى كذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحراً، وترسو سفنها وبواخرها على موانئ الجزيرة.

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان،دار صادر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص ١٣٧؛ المباركفوري، صفي الدين عبدالرحمن، الرحيق المختوم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ص ٧ – ٨؛ شلبي، أحمد، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٩م، ص ١٨ -١٩؛ الهمذاني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب،(ت ٣٤٣)، صفة جزيرة العرب مطبعة السعادة، ١٩٥٣م، ص ٤٦ – ٤٧؛ الندوي، أبوالحسن علي الحسني، السيرة النبوية، الطبعة الثانية عشر، جدة، دار الشروق، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص ٣٦؛ رضا، محمد، محمد رسول الله ﷺ، المعظم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٠.

وهكذا يتضح أن موقع جزيرة العرب في قلب العالم القديم جعلها حلقة اتصال بين القارات الثلاث، وأنها حلقة وصل تجارية بين سكان العالم تصدر منها البضائع المنتجة، وتمر بها البضائع المستوردة من الهند، وجنوب شرق آسيا إلى العراق والشام ومصر، وبلاد اليونان والرومان.

وتنقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام أساسية، هي : تهامة، ونجد، والحجاز، والعروض، واليمن، وترتبط تلك الأسماء بجبل السراة، وهو من أعظم جبال شبه الجزيرة العربية فهو يمتد من أقصى جنوبها في اليمن إلى أقصى شمالها في أطراف الشام.

تشكل الصحاري في الجزيرة العربية مساحات واسعة، وأشهرها الربع الخالي في الجنوب، والدهناء في الشرق، والنفوذ في الشمال، وترتفع وسط هذه الصحاري هضبة نجد.

أما مناخ الجزيرة العربية : فهو مناخ صحراوي حار، تشد فيه الحرارة في فصل الصيف مع فروق كبيرة بين الليل والنهار في الحرارة، وأمطارها قليلة جداً، فهي معدومة في بعض المناطق كما في الربع الخالي، وقليلة في المناطق الأخرى، وتحظى بعض المرتفعات بقسط لا بأس به من الأمطار كمرتفعات نجد وعسير.

ثانياً: سكان شبه الجزيرة العربية وأقسامهم (١)

تعد الجزيرة العربية مهد العرب وموطنهم الأول، ولذلك ارتبط اسمها باسمهم، والعرب أمة سامية ترجع في نسبها الأول إلى سام بن نوح - عليه السلام - وسموا عرباً لأنهم لم يزالوا معروفين بين الأمم بالإعراب، وهو البيان في الكلام، والفصاحة في المنطق، ويقال: عرب إذا أفصح في منطقه، فهم عرب لفصاحتهم في النطق، وقيل سموا عرباً نسبة إلى يعرب بن قحطان جد العرب العاربة ؛ لأنه أول من نطق باللغة الفصحى، وأخذها عنه أهل اليمن.

(١) الطبري، أبوجعفر بن جرير، (ت٣١٠)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان ج ١، ص ٢٨٥ ؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٦ - ٨ ؛ ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدنيوري، (ت ٢٧٦هـ) المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، نشر دار المعارف، مصر، ١٩٨١م، ص ١٠٣ - ١٠٤؛ الطلابي، علي محمد، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، مكتبة الوفاء، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٧م، ص ١٧، ٤٧؛ القلقشندي، أبوالعباس أحمد، (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٣١٣.

واستوطن العرب شبه الجزيرة العربية منذ عهود موغلة في القدم، وقد اصطلح المؤرخون على أن يقسموا العرب إلى قسمين : عرب بائدة، وعرب باقية.

القسم الأول : العرب البائدة وهم الذين بادوا، وزالت آثارهم من مسرح التاريخ، ولم يبقَ من أخبارهم إلا القليل، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى مصر والشام، وهم الذين أهلك الله العاصين منهم بسبب عصيانهم واستكبارهم عن دعوته، وكان من قبائلهم المشهورة : قوم عاد، وثمود، وأصحاب الأيكة، وطسم، وجديس، والعمالقة، وجرهم

أما القسم الثاني فهم العرب الباقية، وينقسمون إلى فرعين :

الفرع الأول العرب العاربة ويرجع هؤلاء في نسبهم إلى يعرب بن مشحب بن قحطان، وينتمون إلى سام بن نوح - عليه السلام - وتسمى بالعرب القحطانية، وكذلك يعرفون بعرب الجنوب، وكان منهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحمير.

ويعد قحطان الجد الأعلى لعرب الجنوب أو القحطانيين، ومن أشهر القبائل القحطانية : حمير، وكهلان، ومن أشهر قبائل حمير : قضاعة التي ينتمي إليها التبابعة ملوك اليمن المشهورين، ومن أشهر قبائل كهلان طي والأزد، وإلى الأزد ينتمي الأوس والخزرج.

أما العرب المستعربة، وهم عرب الشمال من نسل عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام - وهم عرب من جهة الأمهات ؛ لأن أباهم إسماعيل غير عربي، ولكنه تزوج من قبيلة جرهم العربية، فسمي أبناؤه عرباً مستعربة، وهم جموع العرب من البدو والحضر الذين كانوا يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز وبادية الشام.

ثالثاً: الحالة الدينية(١)

كانت الديانة المنتشرة في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، وهو عصر ما قبل الإسلام هي الديانة الوثنية وهي عبادة الأصنام وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز بعض

(١) ابن الكلبي، أبوالمنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤)، الأصنام، تحقيق أحمد زكي، نشر دار الكتب المصرية، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، ص ١٦، ٨، ٣٣، ٤٨، ٥١، ٥٣ ؛ ابن هشام، محمد بن عبدالملك، (ت٣١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإيبياري، وعبدالحفيظ شلبي، مصر، مطبعة الباري الحلبي، ١٩٥٥م، ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣؛ العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، الرياض، العبيكان للنشر، الطبعة السابعة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ج١، ص ٨٤ ؛ هيكل، محمد حسين، حياة محمد، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٤م، ص ٩٢.

تلك الأصنام وبيَّن سفه العرب الذين كانوا يقدسونها حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٩ - ٢٢).

كان أول ما بدأ الشرك في العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام الذين كانوا إذا خرجوا من الحرم؛ لطلب الرزق أخذوا معهم حجارة من الحرم، فإذا نزلوا منزلاً وضعوها، وطافوا بها طوافهم بالبيت الحرام، ودعوا الله عندها، وإذا رحلوا أخذوها معهم، وإذا وجدوا حجراً أو حجارة أفضل من حجارتهم ألقوها وأخذوا الأخرى.

ويرى بعض الباحثين أن العرب كانوا يعبدون الله، وكانوا يعظمون الكواكب على أنها أعظم مخلوقات الله، ثم تطور تعظيمهم للكواكب فصارت عبادة خالصة لها.

ويرى البعض أن الوثنية نقلت إلى العرب من الشام، ويرى آخرون كذلك أن الأوثان لها صلة بالقبور والحجارة التي تعودوا أن ينصبوها على قبور الأبطال أو أنها تجسد صوراً لأبطال مشاهير احتلوا عند العرب مكان التقديس، فلما ماتوا اتخذوا لهم تماثيل، وأجلوها، ثم عبدوها.

وتذكر كتب الأخبار والتاريخ أن عمرو بن لحي الخزاعي لما ساد قومه بمكة المكرمة المكرمة، وأصبحت له السيادة على الكعبة المشرفة سار إلى مدينة البلقاء بالشام على أثر مرض أصابه، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها نستنصرها فننصر، ونستسقي بها فنسقى، فقال: ألا تعطوني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنماً يقال له: هُبل، فتقدم به إلى مكة المكرمة فوضعه عند الكعبة المشرفة وبقي في مكانه إلى يوم فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة حيث حُطم مع بقية الأصنام الأخرى، ودعا أهل مكة المكرمة إلى الشرك بالله فأجابوه، ولم يلبث أهل الحجاز أن يتبعوا أهل مكة المكرمة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم، وأصبحت الكعبة المشرفة في ذلك العصر الجاهلي مقر الوثنية إذ كانت تحيط بها الأصنام من كل جانب، وكان أعظمها عندهم هُبل، وهو تمثال من العقيق الأحمر على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى، وقد أدركته قريش وهو مكسور اليد اليمنى فصنعت له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشركين.

لم يكن هُبل وحده معبود العرب، فقد انتشرت الأصنام في أنحاء الجزيرة العربية على

شكل بيوت، وأشجار، وحجارة مصورة وغير مصورة حتى قيل : إنه كان حول الكعبة المشرفة ثلاث مئة وستون صنماً ويظهر أن السبب في وجودها أن قريشاً رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة المشرفة حتى إذا جاءت القبائل إلى مكة المكرمة وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم.

وبمقتضى بدعة عمرو بن لحي في جلب الأصنام إلى الحجاز من الشام انتشرت الأصنام في بلاد العرب وكان من أهم أصنام العرب :

اللات : صخرة مربعة أقيم عليها بناء بالطائف، وقامت على سدانتها ثقيف.

العزى : وهي عبارة عن شجرة بوادي نخلة إلى الشرق من مكة المكرمة، وكانت من أعظم الأصنام عند القرشيين.

مناة : وهي آلهة القضاء وخاصة قضاء الموت، وكانت تعظمها الأزد والأوس والخزرج وغسان وخزاعة، ونصب هذا الصنم في قديد على الطريق بين مكة المكرمة ويثرب.

سواع : وكان بأرض ينبع، واتخذته قبيلة هذيل بن مدركة معبوداً لها.

ود : كان في دومة الجندل لكلب وقضاعة شمال المدينة المنورة قريباً من الشام.

يغوث : يعبده أهل جرش، وهم بمخاليف اليمن جنوب مكة المكرمة.

يعوق : بأرض همذان من أرض اليمن، تعبده قبيلة خيوان، وهم بطن من همذان.

نسر : بأرض حمير من اليمن وتعبده قبيلة ذو الكلاع من حمير.

وإلى جانب تلك الأصنام يوجد عدد لا يحصى من الأصنام الصغيرة والتي سهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

وبجانب عبادة الأوثان عرفت الديانات السماوية طريقاً إلى العرب قبل الإسلام فقد انتشرت اليهودية في جزيرة العرب ولاسيما في اليمن ووادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب، ونشر اليهود في البلاد التي نزلوها بجزيرة العرب تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب، ويحتمل أن يكون هؤلاء اليهود من العرب الذين اعتنقوا اليهودية أو من اليهود الذين نزحوا من فلسطين.

كذلك انتشرت المسيحية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال وبلاد اليمن في الجنوب، وانتشرت المسيحية في الجنوب عن طريق الحبشة، وفي الشمال عن طريق الشام وشبه جزيرة سيناء.

وكان أهم مواطن المسيحية في بلاد العرب نجران فقد نقل إليها هذه الديانة رجل يقال له (فيمون) من أهل الشام كان على دين المسيح - عليه السلام.

كما كانت بعض قبائل قريش تدين بالمسيحية كبني أسد بن عبد العزى الذين شاركهم مواليهم المعتقون معتقداتهم.

وكان هناك قوم من اليمن يعبدون الشمس وهم الذين ذكر الله قصصهم في القرآن الكريم مع سليمان عليه السلام، وكان هناك من العرب طائفة يعبدون النار وهم المجوس، وقد انتقلت إليهم هذه الديانة من الفرس الذين كانوا يجاورونهم.

وعلى الرغم مما كان عليه عرب الجاهلية من وثنية فاسدة، وعبادة باطلة تنفر منها الطباع السليمة، والعقول الحرة، فإنه من الثابت أن الكثير من العرب عبدوا الحجارة والأصنام لا على أنها صاحبة الحق؛ بل على أنها وسيلة تقربهم إلى الله، فالله تعالى كان معروفاً لهم وكلمة الله كانت تتردد على ألسنتهم، وكان منهم عدد قليل لم تعجبهم عبادة الأصنام، وفطنوا إلى سوء حالتهم الدينية، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين، ووجد من بينهم أناس دعوا إلى دين توحيد جديد، ودعوا إلى نبذ عبادة الأوثان، والتخلص من عادات الجاهلية السيئة، وكانوا يعتقدون في البعث، ووجود الله، وأن هناك قوة قادرة تمد العالم بالحياة، وأن تلك المعبودات التي آمن بها العرب لا توصلهم إلى الله الحق أبداً، ولذلك أخذوا يبحثون بعقولهم عن الله سبحانه وتعالى وكان يطلق على هذه العبادة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون، فلما اهتدوا إليها اعتنقوا هذه الديانة، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٧) وكان من هؤلاء الباحثين عن التوحيد: ورقة بن نوفل بن عبدالعزى ابن عم السيدة خديجة - رضي الله عنها، وزيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، وأمية بن الصلت الشاعر المعروف، وعثمان بن حويرث، وكعب بن لؤي بن غالب، وقس بن ساعدة الإيادي ... وغيرهم.، وقد سمي هذا الفريق من العرب بالحنفاء نسبة إلى لفظ حنيف وهو دين إبراهيم عليه السلام.

رابعاً: الحالة السياسية[1]

كان النظام السائد في الجزيرة العربية هو النظام القبلي، وكان بها وحدات سياسية مستقلة تعرف بالقبائل، وهذه الحالة نلحظها في الجهات الصحراوية التي في أواسط جزيرة العرب مثل: نجد، وأطراف الحجاز، أما في الحجاز فنجد مدناً ذات حياة سياسية، كذلك كان بأطراف الجزيرة في الجنوب ممالك اليمن مثل مملكة معين، وحمير، وسبأ، وملوك حمير من التبابعة وغيرهم، ولما دب الضعف في كيان دولة حمير؛ احتل الأحباش اليمن، وحكموها مباشرة.

ظلت القبائل العربية وحدات متماسكة، فالقبيلة العربية مجموعة من الناس تربط بينهم وحدة الدم (النسب) وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة على أساس من التضامن بينهم في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نطاقها السياسي والاجتماعي.

وكانت الحروب التي تقع بين القبائل تسمى الأيام، ويرجع السبب في قيامها إلى عوامل مادية لطلب المرعى والكلأ، أو غير مادية؛ كالأخذ بالثأر، وكانت أشهر الحوادث الحربية هي التي دارت رحاها بين القبائل العدنانية نفسها وبين القبائل القحطانية، وقد عرفت بأيام العرب، وقد تحدث الحروب بين بطني القبيلة الواحدة، كما تم بين عبس وذبيان، أو بكر وتغلب، وكان إذا وقعت الحرب بين القبيلتين، ودارت الدائرة على أحدهما، فإما أن تستسلم القبيلة المنهزمة، أو تتحين الفرصة للانتقام في وقت آخر. وكان من أشهر أيام العرب:

حرب الفجار: وهي التي دارت بين قيس من جهة، وكنانة وقريش من جهة ثانية، وسميت بحرب الفجار؛ لأنها وقعت في الأشهر الحرم.

حرب البسوس: وهي حرب وقعت بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل، ودامت تلك الحرب أربعين سنة بسبب ناقة كانت تمتلكها امرأة عجوز من بني بكر تدعى البسوس.

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٤، ١١٩ - ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٥٨، ١٩٨؛ ابن الأثير، أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد، (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٣٠٨ - ٣٠٩، ٤١٧، ٤٢٠؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص ٨١ - ١١٢؛ أبو شهبة، محمد، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص ٢٥-٢٦.

يوم داحس والغبراء : وقد وقعت بين بني عبس من جهة، وذبيان وفزارة من جهة أخرى، ودامت تلك الحرب قرابة أربعين عاماً، لم يلد لهم ناقة ولا فرس لانشغالهم بالحرب.

يوم بعاث : ووقعت بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب.

تنبع الأهمية الكبرى لقريش في وجود بيت الله فيها، وهو البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

ويذهب الأكثرون إلى أن القرشيين هم هؤلاء الذين ينتسبون إلى النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن غياث بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، والنضر هو قريش، وهو أصل قريش، وأبرز أولاد كنانة، وهناك من يقول : إن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة هو قريش، ولكن الأرجح أن النضر هو قريش.

كان من سكان مكة المكرمة الأقدمين قبيلتا جرهم، وخزاعة، حيث انفردت قبيلة جرهم اليمنية بالسلطة فترة طويلة بمكة المكرمة، وذلك بعد طردها للعماليق في الحجاز، وجرهم هؤلاء هم الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام، وقد صارت سدانة البيت الحرام ومفاتيحه لجرهم، وظلت ولاية البيت في جرهم حتى اتسع سلطانهم، وعظمت شوكتهم، فعاثوا في الأرض، واستحلوا أموال الكعبة المشرفة، واضطهدوا في مكة المكرمة من كان من غير أهلها، ثم آلت سدانة البيت ومفاتيحه إلى قبيلة خزاعة، وهي الأخرى قبيلة يمنية قدمت من اليمن، وأجلت جرهم وانتزعت منهم الرئاسة الدينية، والسياسية.

استمرت ولاية خزاعة على مكة المكرمة ثلاث مئة سنة، وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد، وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراف مكة المكرمة بطون من قريش، وليس لهم من أمر مكة المكرمة، ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب الجد الرابع للرسول ﷺ، ويذكر من أمر قصي بن كلاب أن أمه انتقلت به وهو طفل بعد موت أبيه كلاب من مكة المكرمة إلى الشام لتعيش مع زوجها الجديد ربيعة بن حزام، فنشأ قصي بالشام لا يعرف له أبًا غير ربيعة حتى كبر، ثم عيره بعض أهل ربيعة بأنه ليس منهم فسأل أمه، فقالت له : إنك يا بني أكرم منهم نسباً، وأنت ابن كلاب بن مرة، وأهلك بمكة المكرمة فرحل إليهم، وهناك تزوج فتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على الكعبة المشرفة، وكان اسمه خليل بن حبشية من خزاعة، فلما مات خليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيراً إلى تغلب قصي بن كلاب على أمر مكة المكرمة والبيت.

وهناك من يرجع سبب الحرب إلى أن خليلاً أعطى ابنته حبى ولاية البيت، واتخذ أباغيشان واسمه «المحرش» أو « سليم بن عمرو» وكيلاً لها، فقام أبو غيشان بسدانة الكعبة المشرفة نيابة عن ابنة خليل «حبى»، وكان ابن غيشان معاصراً لقصي بن كلاب الذي اجتمع معه على شراب بالطائف، ويروي بعض المؤرخين أن ابن غيشان سكر في مجلسه هذا، فاشترى منه قصي بن كلاب سدانة البيت بزق خمر، وتسلم قصي بن كلاب مفاتيحه.

لم ترضَ خزاعة بهذا البيع، وقاموا بمنع قصي بن كلاب عن البيت، فاستنصر قصي قومه فنصروه، وكانت الهزيمة على خزاعة، فأجلوهم عن مكة المكرمة، فخلصت هذه المدينة لقصي بن كلاب وأصبح له الأمر بها، وتولى شؤون البيت الحرام، وذلك في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي.

وهناك من يذكر أن خليلاً أوصى قصي بن كلاب بالقيام على الكعبة المشرفة، وبأمر مكة المكرمة، ولكن رفضت خزاعة أن تتنازل عن ذلك لقصي بن كلاب ؛ فنشبت الحرب بينهما، وتغلب قصي بن كلاب عليهم وأخرجهم من مكة المكرمة.

وكان من أهم ما فعله قصي بن كلاب بعد ذلك أن جمع شتات القرشيين، ووحد كلمتهم، ومن مآثر قصي بن كلاب :

تأسيس دار الندوة بمكة المكرمة: وهو الذي رتب وظائف الكعبة المشرفة، وحدد مدلولاتها، فكان من مظاهر الرياسة والتشريف :

رئاسة دار الندوة : وهي نادي قريش، كانوا يتجمعون فيه للتشاور والنقاش في أمورهم، وفيها كانوا يزوجون بناتهم، وكان لا يسمح بدخولها إلا لمن بلغ الأربعين.

السقاية : جمع الماء من مصادره حيث وجدت إلى مكة المكرمة لسقاية الحجاج، وذلك لأن زمزم كانت قد ردمت قبل ذلك الوقت، فلم يكن الحصول على الماء سهلاً في مكة المكرمة، خاصة في موسم الحج.

الرفادة : وهي تقديم الطعام لغير القادرين من الحجاج حتى يعودوا راجعين إلى بلادهم .

اللواء : وهو راية يعقدونها على رمح عند إعلان الحرب، ويرفعونها علامة على الجيش الذي يتبعونه، وكانت لا تعقد راية ولا لواء لحرب قوم من غيرهم إلا بيده أو بيد أحد أولاده.

الحجابة «السدانة»: وهي خدمة الكعبة المشرفة، وتولي مفاتيحها، فلا يفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها.

تلك هي أهم مناصب الكعبة المشرفة ووظائفها، وقد تولاها قصي بن كلاب، فأحسن القيام بها، وكان هذا النوع من الحكم في مكة المكرمة قد جعل بعض المؤرخين يطلقون عليه (جمهورية قصي).

لما كبر قصي بن كلاب أسند كل وظائفه الدينية والدنيوية لابنه الأكبر عبدالدار؛ لأنه أكبر أبنائه مع أن ابنه عبد مناف كان أعظم ذِكْراً، وأعلى شأناً، وأصلح أبناء قصي للرئاسة.

استمرت تلك الوظائف بيد عبدالدار، وكان إخوته لا ينازعونه في ذلك، ولما توفي عبد الدار قام عداء بين أسرة عبدالدار، وأسرة أخيه عبد مناف بسبب مطالبة أبناء عبد مناف بحقهم في بعض المناصب، وتم الصلح بتقسيم تلك المناصب، واحتفظ بنو عبدالدار بالحجابة، وعقد اللواء، ورئاسة دار الندوة، بينما أخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة، وتولى هاشم بن عبد مناف حينذاك القيام بهذين المنصبين، وهو أول من نظم رحلتي الشتاء والصيف، ولما توفي هاشم بن عبدمناف في غزة تولى أخوه المطلب أمر السقاية والرفادة، وبعد موت المطلب تولاها ابن أخيه عبدالمطلب بن هاشم الذي قام بحفر بئر زمزم بعد أن انطمرت عدة قرون فاحتل المكانة المرموقة في مكة المكرمة وذاع صيته بين القبائل كلها، وفي عهد عبدالمطلب تمت حملة الأحابيش بقيادة أبرهة على مكة المكرمة لتهديم الكعبة المشرفة، وتحويل العرب نحو اليمن، وكنيستها (القليس) في صنعاء، وأخفقت محاولة الأحابيش، وارتدت فلولهم إلى اليمن، وأبطل الله كيد أبرهة، ومن معه، وفي ذلك نزلت آيات كريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ (الفيل: ١ – ٥) وسمي هذا العام بعام الفيل، وارتفعت مكانة مكة المكرمة بين العرب بعد تلك الحادثة سنة ٥٧١م، على أن أعظم حدث وقع في زمن عبدالمطلب هو مولد سيدنا محمد ﷺ سنة ٥٧١م.

خامساً: الحالة الاجتماعية(١)

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأنساب والأحساب، وعلاقة القبائل بعضها ببعض، وعلاقة الزوج بزوجته وأولاده وأقربائه، وحرص العرب في الجاهلية على الاعتزاز بأحسابهم وأنسابهم.

حافظ العربي في الجاهلية على الاعتزاز بالكلمة وسلطانها، فكانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البديع، وكان شعرهم يسجل مفاخرهم، وأنسابهم، وأحسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم.

عرف عرب الجاهلية نوعين للحياة هما : البدوي، والحضري، وذلك حسب البيئة الطبيعية، فالبدو ينتشرون في الصحراء رعاة بحثاً وراء الكلأ والماء، وكانوا يحبون الحرب، ويغير بعضهم على بعض، وكانت العلاقة القبلية قوية لديهم، وكانت حياة البدو عند عرب الشمال أكثر من حياة إخوانهم عرب الجنوب، فمعظم قبائل الشمال تعيش عيشة البداوة متنقلة وراء المرعى مع قطعانها منتشرة بين سهول تهامة، ومرتفعات الحجاز ونجد، ومشارف الشام.

أما الحضر فيسكنون المدن، وقد ركزوا جهودهم في حرث الأرض، وتجارة القوافل حتى جنوا من ذلك ثروات كثيرة، وأقاموا المدن وأسسوا الممالك، وقد ظهرت، وقامت في اليمن دولة معين، وسبأ، وحمير، وفي الشام قامت دولة الأنباط، ودولة تدمر، ودولة الغساسنة، ودولة المناذرة في العراق.

يقوم المجتمع الجاهلي على نظام الأسرة حيث تكون السيادة للرجل، ومع ذلك قد تمتعت المرأة بقسط كبير من الحرية مع حرص الرجل على حمايتها، وبذل المال والروح للحفاظ على عرضها، وشرفها، وكانت العلاقة بين الرجل والمرأة في الجاهلية علاقة محبة واحترام إلى حد كبير، فهو يتحدث عنها باهتمام في أشعاره، وخطبه، ويذكرها دائماً باسمها تكريماً لها،

---

(١) السجستاني، الإمام أبو داود، سنن أبي داود، الأمام أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ)، تحقيق وتعليق عزت الدعاس، سوريا، ١٣٩١هـ، كتاب النكاح، باب وجوه النكاح لمن كان يتناكح بها أهل الجاهلية ؛ أبو شهبة، محمد، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج١، ص ٨٦ – ٨٧، ٩٧؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٨٦ ؛ ؛ الطلابي، السيرة النبوية، ص ٢٧ ؛ شلبي، التاريخ الإسلامي، ص٧٩.

وصوناً لكرامتها، وكان يسميها ربة البيت (أي صاحبة البيت)، وكان يستشير ابنته إذا أراد أن يزوجها، فلا يفرض عليها الزواج بمن تكره؛ بل كان ينفذ رغبتها كما تحب وتريد، وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد زواج بعد موافقتها ورضاها، ورضا أوليائها، وبعد أن يتفقوا على مهر معين، كما كانت المرأة تتسم بالشجاعة فتتبع المحاربين، وتشجعهم، وقد تشارك في القتال، إذا دعت الحاجة، كما أنها كانت تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها وغزل الوبر، والصوف ونسج الثياب.

وكان من المعروف عند أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهي له حتى حددها الله في كتابه العزيز بأربع، وكانوا يجمعون بين الأختين، كما كان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لهما حد معين، فكان الرجل يطلق زوجته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام إلى أن أنزل الله تبارك تعالى قوله: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

كانت توجد بين العرب عادة وأد البنات خشية الفقر والعار، ولم تكن هذه العادة عامة؛ بل اقتصرت على بعض بطون العرب، ولهذا كان العربي يفضل الذكور حيث يرى أنه عماد قوته ويكره أن تلد زوجته البنات قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ (النحل: ٥٨).

أما علاقة الرجل بأبنائه فكانت علاقة محبة، وكان العربي يفخر بأبنائه الذكور؛ لأنهم القوة التي تشد أزره، وتجعل الآخر يخشاه، ولا يستهين به، وتميزت علاقة الرجل بإخوته وأبناء عمه وعشيرته بالألفة والمحبة والتعاون والتضامن حتى لو كانوا على الباطل فكانوا ضد الغير ولو كان الغير مظلوماً.

ومن جملة العادات السيئة التي وجدت لدى عرب الجزيرة العربية: لعب القمار المعروف بالميسر، وشرب الخمر، ونكاح الاستمتاع، ووأد البنات، وقتل الأولاد ذكوراً وإناثاً، واتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال، والعصبية القبلية، وشن الغارات والحروب على بعضهم بعضاً.

وفي المقابل تحلى العرب بكثير من الصفات الحميدة مثل: الكرم، والشجاعة، والوفاء بالعهد، وحماية الجار، واحترام الجوار... الخ.

سادساً: الحالة الاقتصادية[1]

كان الغالب على البادية في جزيرة العرب رعي الإبل والغنم، وكانت القبائل تتنقل بحثاً عن مكان الماء والكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

كان عماد الحياة الاقتصادية لدى الحاضرة الزراعة، والتجارة، وقد ازدهرت الزراعة في أطراف الجزيرة خاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة العربية.

وكانت شهرة اليمنيين في مداولة التجارة شهرة كبيرة خاصة في عهدي مملكتي : سبأ وحمير، وكان نشاطهما في البر والبحر، فسافروا بحرياً إلى الهند، والصين، وسومطرة، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي، وزاولوا أيضاً نشاطاً تجارياً برياً داخل الجزيرة العربية، ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشي، ثم الفارسي استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحري، أما النشاط التجاري البري داخل الجزيرة فقد انتقل إلى أهل مكة المكرمة ؛ لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع أن يمتد إلى قلب الجزيرة.

وامتاز أهل مكة المكرمة عن غيرهم من العرب بالنشاط التجاري، وكان في نفوس العرب احترام وتقدير لهم لأنهم ولاة الكعبة المشرفة، والقائمون عليها، فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وكان من العوامل التي ساعدت مكة المكرمة لتؤدي هذا الدور هجرة بعض اليمنيين أصحاب الخبرة الواسعة في المجال التجاري إليها، وكانت مكة المكرمة ممثلة في قريش تحسن استقبال الحجاج، وتعنى بخدماتهم، وإكرامهم وتتكفل بحمايتهم.

كما يعد الموقع المميز لمكة المكرمة في منتصف الجزيرة العربية في الشمال والجنوب أحد العوامل التي ساعدت قريشاً على أن تمارس دورها الاقتصادي كملتقى للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب وقد دعم ذلك مكانتها التجارية قبل الإسلام، والواقع أن قبيلة قريش استطاعت أن تحول مكة المكرمة من مجرد محطة تجارية إلى عنصر إيجابي مشارك فيما يدور حولها من نشاط.

---

(١) البلازري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر،(ت٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميدالله، القاهرة، دار المعارف د. ت، ج٢، ص٥٦ ؛ الزمخشري، تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف، دار المعرفة، ١٩٦٧م، ج٤، ص٨٠١ ؛ ؛ العمري، السيرة الصحيحة، ج١، ص ٧٨ ؛ أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١، ص ٩٨-١٠١.

وكانت لقريش رحلتان عظيمتان هما : رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى الشام، وكانت قريش تسهم بالدور الأكبر في هاتين الرحلتين، ونجد في القرآن الكريم ما يؤيد هذا الدور في قوله تعالى : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④﴾ (قريش: ١ ـ ٤).

كان تجار قريش من أمهر تجار الجزيرة العربية، وكان موسم الحج بالنسبة لهم موسماً تجارياً فتسبقه حركة تجارية في سوق عكاظ، ومجنة، وذي مجاز وهي كمعارض تجارية تزخر بأوجه النشاط الاقتصادي، والفني، والثقافي، واستفادت مكة المكرمة خاصة من فرصة الأشهر الحرم، فينتشر في ربوعها السلام، وتنتقل القوافل آمنة مطمئنة، وتمتعت قوافل قريش بنوع من الحصانة لم يكن لغيرها نظراً لما تتمتع به من مكانة واحترام باعتبارها سادنة الكعبة المشرفة، وحامية البيت الحرام، على حين كان غيرهم من العرب مهدداً بالإغارة عليهم.

بلغت تجارة قريش مكانة كبيرة في عهد هاشم بن عبد مناف ، وإخوته عبد شمس، ونوفل وعبدالمطلب، وتمكن هاشم من الحصول على حق التجارة داخل أراضي الروم والفرس بالاتفاق مع حكامهم، وعقد المعاهدات معهم، وسلك مسلك الحياد مع الدولتين فارس.

وجنى القرشيون من تجارتهم ثروات كبيرة، وأصبحوا في سعة من العيش، وهناك العديد من الشخصيات القرشية الثرية لعل من أشهرهم : أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وعبدالله بن جدعان، والسيدة خديجة بنت خويلد.

وكانت القوافل تحمل الطيب، والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل، والتمور والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والآبنوس، والجلود، والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة العربية، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

أما الصناعة فكان أهل مكة المكرمة أبعد الأمم عنها، إذ كانت مزاولتها قليلة جداً، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم، والموالي، وكان من أبرز الصناعات في مكة المكرمة : صناعة الأسلحة من رماح، وسيوف، ودروع، ونبال، وسكاكين، ثم صناعة الفخار،وبعض الأواني المنزلية، والنجارة لصناعة الأسِرَّة، والأرائك.

الفصل الأول

محمد ﷺ قبل البعثة

محمد ﷺ قبل البعثة

أولاً: نسب الرسول ﷺ وأسرته(١)

ينتمي الرسول ﷺ إلى أسرة نبيلة النسب، عالية الخصال، فهو أشرف الناس نسباً، وأكملهم خُلقاً وخَلقاً، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحيحة منها ما أورده مسلم أن الرسول ﷺ قال: « إن الله عزوجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

ونسب الرسول ﷺ والذي اتفق عليه كافة أهل السير والأنساب هو الذي يبدأ منه ﷺ وينتهي إلى عدنان فنسبه من جهة أبيه هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أما نسبه من جهة أمه فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وكلاب هو الجد الخامس للرسول ﷺ من جهة أبيه، واتفق العلماء على أن عدنان هو الجد العشرون للرسول ﷺ من ذرية سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وهذا النسب أشرف الأنساب فعن العباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً.

ومما سبق يتبين لنا من نسبه الشريف دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالي ميز العرب على سائر الناس، وفضل قريشاً على سائر القبائل الأخرى.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١ ص ١-٢ ؛ الغزالي، محمد، فقه السيرة، مراجعة وتعليق محمد ناصر الدين الألباني، دار الدعوة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م، ص ٤٥؛ ابن كثير، أبوالفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ، البداية والنهاية، ج٢، ص ٢٥٦ ؛ الخضري، محاضرات تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٦٢.

ثانياً: زواج عبدالله بن عبدالمطلب بآمنة بنت وهب(١)

هُيِّئت الأقدار والظروف الخاصة لظهور ونشأة الرسول ﷺ؛ فقد نجا والده عبدالله من الذبح فداء لنذر كان قد نذره عبدالمطلب حين لقي من قريش العنت في حفر بئر زمزم «لئن ولد له عشرة أبناء لينحرن أحدهم عند الكعبة المشرفة المشرفة تقرباً وشكراً لله تعالى، فلما بلغوا عشراً أخبرهم بنذره فأطاعوه، واقترع عبدالمطلب على أبنائه عند هُبل - وكان أعظم أصنام العرب في مكة المكرمة - فخرجت القرعة على عبدالله، وكان أصغر أبنائه وأحبهم إليه، وأخذ عبدالمطلب ابنه عند صنمي «أساف ونائلة» لينحره، فثارت قريش وحالت بينه وبين عزمه واقترحت افتداءه واستجاب عبدالمطلب لرأي عرافة ونحر مئة من الإبل بعد أن أجرى بين الإبل وابنه عبدالله ورضيت الآلهة - حسب اعتقادهم - بفداء الإبل، وسرعان ما تناقل الناس هذا الخبر فكان لعبدالله الشهرة، كما كان لأبيه الفرحة، حيث كان لعبدالله مكانة عالية ومنزلة جليلة، وكان من أحب أبنائه إلى قلبه، ومن ثم سعى بنفسه لتزويجه، فاختار له آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فحملت برسول الله ﷺ، ولم يمكث عبدالله مع زوجته إلا وقتاً قصيراً، ثم خرج في قافلة تجارية لقريش إلى الشام، فلما فرغ من تجارته وانصرف راجعاً شعر بالمرض قبل وصوله إلى مكة المكرمة؛ فنزل بيثرب عند أخوال أبيه من بني عدي بن النجار، فمكث هناك شهراً، وهو مريض، ثم توفي ودفن بالمدينة المنورة في دار النابغة الجعدي، وكان عمره آنذاك خمسًا وعشرين سنة، وتوفي قبل ميلاد الرسول ﷺ، وترك عبدالله بعد وفاته أم أيمن بركة الحبشية، وخمسة جمال، وقطيعًا من الغنم.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ١٥٦ - ١٥٨؛ الخضري، محاضرات تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص٦٢؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٤٦ .

ثالثاً: محمد ﷺ منذ مولده إلى وفاة جده عبدالمطلب[1]

كانت آمنة قد حملت بالنبي ﷺ قبل سفر أبيه عبدالله إلى الشام، ثم وضعته بعد موت أبيه، وكان مولده في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ٥٧٠م أو ٥٧١م أما مكان ولادته ﷺ فقد كان في دار أبي طالب بشعب بني هاشم في الزقاق المعروف بزقاق المولد بسوق الليل وقد تم إنشاء مكتبة مكة المكرمة في الموضع ذاته.

ولد النبي ﷺ على يد الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف وهي قابلة، رافعاً بصره إلى السماء، واضعاً يديه على الأرض، وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجد الحوامل، وروى ابن سعد في - طبقاته - أن والدة الرسول ﷺ قالت لما ولدته: « أنها قد خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»، وروى أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت.

لما ولدت آمنة الرسول ﷺ، أرسلت إلى جده عبدالمطلب وكان يطوف بالكعبة المشرفة تلك الليلة، فجاء إليها باستبشار وجذل، نظر جده عبدالمطلب إلى المولود الجديد وأخذه ودخل به الكعبة المشرفة، ودعا له، ثم خرج وأعطاه إلى أمه آمنة، أما تسميته محمداً فإن جده عبدالمطلب هو الذي سماه محمداً، فقيل له : كيف سميته بهذا الاسم، وليس لأحد من آبائك؟ فقال : أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده الخلق في الأرض.

وكان من أسمائه ﷺ : محمد - أحمد - الماحي - الحاشر - العاقب - نبي الرحمة - نبي التوبة - المقفي - نبي الملاحم، وسماه الله عز وجل في القرآن : رسولاً - نبياً - أمياً - شاهداً - مبشراً - نذيراً داعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً - رؤوفاً رحيماً، وجعله رحمة ونعمة ومن أسمائه أيضًا : الفاتح - وطه - وعبدالله - وخاتم الأنبياء - والمختار، وكنيته أبو القاسم، وكناه جبريل : أبا إبراهيم، ووصفته قريش : بالصادق الأمين.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ١٠٠ - ١٠٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٥٩ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٠٣ ؛ البيهقي، أبوبكر أحمد، دلائل النبوة ، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ج١، ص ١١٣

رابعاً: مرضعاته[1]

أول من أرضعته ﷺ من النساء المراضع - وذلك بعد أمه بأسبوع - ثويبة الأسلمية جارية أبي لهب، ثم خولة بنت المنذر، وأرضعته أم أيمن، وامرأة سعدية غير حليمة وثلاث نسوة من العواتك، وكانت أكثرهن إرضاعاً له حليمة بنت أبي ذويب السعدية وتكنى أم كبشة، وكان من عادة قريش وغيرهم من أشراف العرب أن يرسلوا أولادهم في مرحلة مبكرة جداً من حياتهم إلى البادية ليستمدوا من طبيعة الحياة هناك صلابة وعزماً وصحة بدن، وليكون ذلك أفصح لألسنتهم، ويذكر المؤرخون أن السيدة حليمة السعدية قد ترددت في البداية أن تأخذ محمداً لإرضاعه لما عرفت من يتمه، ولما قد يترتب على ذلك من قلة الأجر الذي ستتقاضاه مقابل إرضاعه وحضانته فلما لم يتح لها سواه قبلته حتى لا تعود بغير رضيع، بعد أن استشارت زوجها الحارث بن عبدالعزى في أخذه فقال لها : لا عليك فعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، وكان لرضاع محمد ﷺ عندهم أثر محمود في حياتهم، فاتسعت أرزاقهم بفضل الله ورحمته وكان وجوده خيراً وبركة عليهم، ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثديها، وغزارة لبنها، وقد كان قبل محمد ﷺ لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في شياههم العجفاوات التي لم تكن تدر شيئاً ؛ فأصبحت الواحدة منها تفيض باللبن الكثير الذي لم يُعهد من قبل، وكانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له.

أقام محمد ﷺ سنتين في مضارب بني سعد عند مرضعته حليمة السعدية وأسرتها، ثم ذهبت به حليمة إلى أمه آمنة بمكة المكرمة، لكنه عاد مع مرضعته إلى البادية رغبة منها في إبقائه لديها مدة أطول لما نالها وبيتها بسببه من بركة، واقتناعاً من أمه لما رأته فيه من صحة وتعلم في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح، وأصبح فيما بعد أفصح الخلق، فحينما قال له أبوبكر - رضي الله عنه - : « يا رسول الله، ما رأيت أفصح منك!»، فقال عليه الصلاة والسلام : « وما يمنعني وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد»، وبقي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام في بيت السيدة حليمة حتى أصبح عمره خمس سنين.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص١٦٢ -١٦٤ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١١٠-١١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص ٢٥٥ ؛ الجزائري، أبوبكر جابر، هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ ٢٠٠٣م، ص ٥٧.

خامساً: حادثة شق صدر محمد ﷺ(1)

تذكر الروايات التاريخية «أنه عندما كان عمر محمد ﷺ ثلاث أو أربع سنوات - على قول معظم المؤرخين: أتاه ملكان وهو يلعب مع الغلمان فأخذاه وصرعاه فشقا عن قلبه، فأخرجا القلب، واستخرجا منه علقة فقالا: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسلاه في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأماه (أي جمعاه)، وضما بعضه إلى بعض، ثم أعاداه في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (أي مرضعته) فقالوا: محمد ﷺ قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون (أي مصفر اللون)، قال أنس - رضي الله عنه - وقد كنت ارى اثر المخيط في صدره.

تقول السيدة حليمة: خرجت أنا وأبوه (أي أبوه من الرضاع) فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما بك يا بني؟ قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو».

خشيت السيدة حليمة على محمد ﷺ أن يكون قد أصابه شيءٌ فأرجعته إلى أمه، وقصت عليها ذلك النبأ العجيب، فطمأنتها آمنة قائلة: إن لابني هذا لشأناً؛ فلم أكن أثناء حمله أجد شيئاً مما تجده الحوامل، ولقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج مني فأضاء لي قصور الشام، ثم طلبت منها أن تعود به إلى البادية مرة أخرى، فعادت به حليمة وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره.

سادساً: وفاة أمه آمنة وحضانة أم أيمن له(2)

عاد الطفل محمد ﷺ من مضارب بني سعد إلى أمه آمنة بمكة المكرمة، فظل معها حتى صار عمره ستة أعوام، فأخذته لزيارة أخوال أبيه من بني عدي بن النجار في يثرب، وأخذت معها أم أيمن وهي الجارية التي خلفها زوجها عبدالله من بعده، وأقام الجميع في يثرب شهراً، ثم توجهوا عائدين إلى مكة المكرمة، فمرضت وهي راجعة به وتوفيت في الطريق ودفنت

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص 163-164، 166 - 167؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 229-230 ابن سعد، الطبقات الكبرى 1/ 112- 114.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص 166، 165، 164، 167؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص 112؛ هارون، عبدالسلام محمد، تهذيب سيرة ابن هشام، ص 27.

بالأبواء بين مكة المكرمة ويثرب، وكان عمرها حين وفاتها ثلاثين عاماً وعمره ﷺ ستة أعوام وثلاثة أشهر.

رجع محمد ﷺ مع جاريته أم أيمن إلى مكة المكرمة حزين القلب لوفاة أمه وهو أحوج ما يكون إلى عطفها وحنانها في هذه السن الصغيرة، وتولت أم أيمن حضانته بعد وفاة أمه، ولذلك كان ﷺ يقول لها: «أنت أمي بعد أمي»، وحملته أم أيمن إلى جده عبدالمطلب بن هاشم الذي كان يحبه ويكرمه وهكذا وجد محمد ﷺ نفسه في سن مبكرة محروماً من حياة الأب والأم.

سابعاً: كفالة جده عبدالمطلب(١)

وجد محمد ﷺ نفسه في سن مبكرة محروماً من حنان الأبوة والأمومة معاً، ولكن جده عبدالمطلب حاول جاهداً أن يعوضه بعض ما فقده، فكان بالغ الرأفة به، شديد الحرص عليه، حفياً به، وكان لا يدعه لوحدته؛ بل يحرص أن يصحبه في مجالسه العامة، ويؤثره على أولاده، وقد كان جده عبدالمطلب مهيباً لا يتجرأ أن يجلس أحدٌ على فراشه، وكان محمد ﷺ يجلس على فراش جده فيحاول أعمامه أن يبعدوه عن فراش أبيهم، فيقول عبدالمطلب: « دعوا ابني هذا فوالله إنّ له لشأناً »، ثم يجلسه معه على فراشه، وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلا ويقول: «عليَّ بابني»، فيأتون به إليه، وكان عبدالمطلب إذا أرسله في حاجة جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبل فتأخر عليه، فتوجه للبيت وطاف به وهو يرتجل قائلاً:

رب رد لي ابني محمدًا ... رده لي واصنع عندي يداً

فلما رجع محمد ﷺ بالإبل قال له: يا بني لقد حزنت عليك كالمرأة حزناً لا يفارقني أبداً، كان محمد ﷺ يرى من جده هذا العطف والحنان فلا يحس بألم اليتم؛ بل يجد في هذا الجد خير العوض عن أبيه وأمه، ولكن الزمن والقدر لم يمهلا عبدالمطلب بعد وفاة آمنة سوى عامين، ثم أدركته المنية بمكة المكرمة سنة ٥٧٨م، بعد عام الفيل بثماني سنوات عن عمر يناهز مائة وعشرين عاماً، وكان عمر محمد ﷺ ثماني سنين على أشهر الأقوال.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ١١٦-١١٧، ١١٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٦٨- ١٦٩.

ثامناً: كفالة عمه أبي طالب بن عبدالمطلب(١)

امتدت مظاهر رعاية عبدالمطلب لمحمد ﷺ لتشمل المدة التي تلت وفاة عبدالمطلب نفسه، فبتوصية منه تحمل أبوطالب بن عبد المطلب مسؤولية رعاية محمد ﷺ، والواضح أن عبدالمطلب لم ير أفضل من أبي طالب لينال شرف هذه المسؤولية، فالمعروف أن أبا طالب كان شقيقاً لعبدالله والد محمد ﷺ فقد كانا لأم واحدة هي فاطمة بنت عمرة بن عائذ بن عمران، وكان لهما شقيق آخر هو الزبير بن عبدالمطلب وشقيقات أربع هن عاتكة، وبره، وأروى، وأميمة.

كان اختيار عبدالمطلب لأبي طالب لما كان يتمتع به من مؤهلات شخصية لم يكن يتمتع بها غيره، حيث كان يتسم بدماثة الخلق، وسماحة النفس، ويعرف في الوقت ذاته بصلابته ومهابته بين قريش، ولهذا كان خليقاً بأن يمنح محمد ﷺ عطفه وحمايته.

كان أبوطالب يحب محمداً ﷺ حباً جماً، فهو ذكرى شقيقه عبدالله، وهو وصية أبيه عبدالمطلب، وقد رأى منه ما لم ير من غيره من الأدب، والنجابة، والتربية، والطاعة التامة، وكان أبوطالب لا ينام إلا ومحمد ﷺ إلى جواره، ويخرج متى خرج، وكان أبوطالب قليل المال كثير العيال، وقد كانت كفالته لمحمد ﷺ فاتحة خير كثير؛ فوسع الله عليه، وبارك له، وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل أولاد أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم محمد ﷺ شبعوا، وكان إذا أرادوا تناول طعامهم قال: «كما أنتم حتى يأتي ولدي»، فيأتي محمد ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يأكل معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: «إنك لمبارك».

ولما أدرك أبوطالب ذلك ازداد حبه لمحمد ﷺ، وأحس محمد ﷺ بهذا الحب الذي كان يغمره به عمه، فوجد في ذلك ما أنساه مرارة اليتم وعوضه خير العوض عن جده وأبيه.

تاسعاً: عمل محمد ﷺ في الرعي(٢)

كان أبوطالب قليل المال كثير العيال وقد لاحظ هذا محمد ﷺ مع صغر سنه فطلب إليه أن يعمل إلا أن أبا طالب لم يرغب في أن يعمل ابن أخيه تكريماً له وتقديراً، ولكن في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٧٩؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٤؛ البلازري، أنساب الأشراف، ج١، ص ٨٧ – ٨٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٤٣ -٢٤٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٧٧-٢٧٨.

نهاية الأمر وافق العم على طلب محمد وإلحاحه، فبدأ برعي الغنم لأهل مكة المكرمة على قراريط، قال ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه : وأنت؟ فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة المكرمة»، ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام: «بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»، ولا شك أن رعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية منها :

- **الصبر** على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها نظراً لبطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر.
- **التواضع** إذ إن طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها، والنوم بالقرب منها، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء.
- **الشجاعة** وهي طبيعة عمل الراعي فقد يجد الراعي في طريقه بعض الوحوش المفترسة، والاصطدام بها فلا بد أن يكون الراعي على جانب كبير من الشجاعة تؤهله للقضاء على الوحوش، ومنعها من افتراس أغنامه.
- **الرحمة والعطف** إن الراعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم إن هي مرضت أو كسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وآلامها إلى العطف عليها وعلاجها.
- **حب الكسب** تعلم مهنة الرعي صاحبها حب الكسب من عرق الجبين، وهي تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد، ورعي الغنم من أنواع الكسب باليد.

عاشراً: سفر محمد ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام(١)

شعر أبو طالب أن ابن اخيه قد بدأ في مرحلة الشباب ؛ فقد أصبح عمره قريباً من الثانية عشرة ويجب عليه أن يترك عمل الرعي الذي لا يعطي من الربح إلا القليل، لذا يجب عليه أن يدربه على التجارة مهنة قريش الرئيسة التي تدر أرباحاً أكثر، فعندما تأهب أبو طالب للسفر مع القافلة الذاهبة إلى الشام سنة ٥٨٢م، وقد أظهر محمد ﷺ رغبة في مرافقته وهو في الثانية عشرة من عمره طبقاً لأكثر الروايات وقال له : « يا عمي، إلى من تكلني لا أب لي ولا أم»، وكان أبو طالب يحبه ولا يكاد يفارقه، ويروى في هذا الصدد أن أبا طالب رق وعطف على ابن أخيه قائلاً : والله لأخرجن به معي، ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً، فأخذه معه إلى الشام،

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٧٨-٢٧٩ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٤١ -٢٤٩.

وعند مكان يقال له بصرى – في جنوب بلاد الشام – استراحت القافلة حيث التقى براهب يسمى « بحيرا» في صومعته، وكان راهباً مسيحياً وعالماً فلكياً منجماً، وكان قد اتخذ صومعته بقرب الطريق الموصل إلى الشام، وكان يأمر الناس بعبادة الله، وينهاهم عن عبادة الأصنام، وكان إليه علم أهل النصرانية، وكان أبوطالب ومن معه كثيراً ما يمرون ببحيرا، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا على مقربة من صومعته صنع لهم طعاماً، والتقى بمحمد ﷺ وعرف فيه إمارات النبوة التي ذكرتها كتب النصرانية التي عكف على دراستها، وتذكر كتب السيرة أن بحيراً سأل محمداً ﷺ عن أشياء عن حاله، وقومه، وهيئته، وأموره، وأخذ محمد ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب يقول له : « ما هذا الغلام منك؟» فقال : « ابني». فقال له بحيرا : «ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً». قال : « فإنه ابن أخي». قال : «فما فعل أبوه؟» قال : «مات وأمه حبلى به». قال : «صدقت»، ولما رأى بحيرا في محمد ﷺ إمارات النبوة التي بشرت بها الكتب المقدسة علم منها أن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر ؛ لذا نصح أبا طالب ألا يوغلوا به في بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود أن ينالوه بأذى إذا رأوا فيه إمارات النبوة، ومما يؤيد قول بحيرا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٦).

خرج به عمه أبو طالب مسرعاً، وأعاده إلى مكة المكرمة بعد أن فرغ من تجارته بالشام، ومما يستفاد من لقاء محمد ﷺ ببحيرا أن الصادقين من رهبان أهل الكتاب كانوا يعلمون أن محمداً ﷺ هو الرسول المنتظر للبشرية، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أوصاف وإمارات عنه في كتبهم، كما أن محمداً ﷺ استفاد من سفره وتجواله حيث اطلع على تجارب، وخبرة الآخرين، والاستفادة من آرائهم، إضافة إلى ذلك إثبات سجود الشجر والحجر لمحمد ﷺ، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشجرة عليه.

الحادي عشر: الأحداث التي عاصرها محمد ﷺ في مرحلة شبابه المبكرة

١ - حرب الفجار[١]

هي حرب قامت بين كنانة وقيس وهما قبيلتان من قبائل العرب، وقد انضمت قريش إلى كنانة، وتعرف هذه الحرب بالفجار الثاني أو الفجار الآخر إشارة إلى حرب أخرى سابقة عليها بين كنانة وقيس عرفت بالفجار الأول ولم يكن لها شأن، ويصف المؤرخون الفجار الثاني « بأنه لم يكن في أيام العرب أشهر منه ولا أعظم، وسميت فجار لاشتعال القتال في الشهر الحرام وهو شهر رجب، وقيل سميت بذلك لما استحلت كنانة وقيس فيها من انتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها »، وقد انضمت قريش إلى كنانة في تلك الحرب، وشهد محمد ﷺ بعض أيامها مع أعمامه، وروى عنه أنه قال: «كنت أيام الفجار أنبل على عمومتي (أي أناولهم النبل، أو أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها)».

٢ - حلف الفضول[٢]

شهد محمد ﷺ بعد حرب الفجار حلفاً وميثاقاً كريماً يدعو إلى الدفاع عن الحقوق وحماية المستضعفين وهو حلف الفضول، فقد قدم مكة المكرمة رجل زبيدي من أهل اليمن ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، ورفض أن يعطيه ثمنها، فاستغاث الزبيدي بالأحلاف من قريش، فأبوا أن يعينوه، فاعتلى جبل أبي قبيس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة المشرفة، وأنشد بأعلى صوته مستغيثاً بآل فهر وأهل المروءة، فقام الزبير بن عبدالمطلب العم الأكبر لمحمد ﷺ فقال: «ما لهذا مُترك»، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يرد إليه حقه، وأن لا يظلم بمكة المكرمة غريب، ولا قريب، ولا حر، ولا عبد، إلا كانوا معه حتى يأخذ حقه، ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل، وقالوا له: والله لا نفارقك حتى تؤدي إليه حقه، فنزل العاص على إرادتهم، وأعطى الرجل حقه.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٣٣ - ١٣٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ١٢٦ - ١٢٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٣٣ - ١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٥ - ٢٦؛ أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١، ص ٢١٤.

وقد رفع هذا الحلف مكانة قريش بين قبائل العرب، وكان محمد ﷺ أحد شهود هذا الحلف، وقد ترك هذا الحلف العظيم في نفسه أعمق الأثر فقال: «شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله ابن جدعان ما أود لو أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».

٣ - بناء الكعبة المشرفة وقصة التحكيم(١)

أصاب البيت الحرام حريق، ثم جاءه سيل عارم فصُدِّعت جدران الكعبة المشرفة، فأرادت قريش إعادة بنائه من جديد، فجمعت قريش من أجل ذلك المال، وشرعت في البناء، وقد اشترك سادة قريش ورجالاتها الكبار في أعمال التجديد، ونقل الأحجار بعدما نقضوا الأنقاض الواهية، وشرعوا يعيدونها كما كانت، وكان محمد ﷺ قد اشترك في بناء البيت الحرام وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان عليه الصلاة والسلام ممن يحملون الحجارة، وكان معه العباس بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - ولما تم البناء، وأرادوا وضع الحجر في مكانه اختلفوا فيمن يضعه في مكانه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت الحرب أن تنشب بين بطون قريش، واستمر الخلاف أربع ليالٍ حتى نهض أبو أمية بن المغيرة المخزومي - وكان كبيراً فيهم - قائلاً: يا قوم، لا تختلفوا، وحَكِّموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: فَكِلوا الأمر لأول داخل علينا. فكان أول داخل هو محمد ﷺ، فاطمأن الجميع لما يعهدونه فيه من الأمانة، ورجاحة العقل، وصدق الحديث، وقالوا: هذا محمد الأمين رضيناه حكماً بيننا، فلما عرضوا عليه الأمر طلب عليه أفضل الصلاة والسلام ثوباً، فوضع الحجر وسطه، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين، فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة المشرفة، فحمله محمد ﷺ ثم وضعه في مكانه، وهكذا انتهت مشكلة كبرى كادت أن تؤدي بقريش إلى حرب بين قبائل قريش لولا حكمة محمد بن عبدالله ﷺ، وبعد نظره، وسداد رأيه.

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٧ - ٢٩؛ عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء، دار الحكمة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٢٦ - ٣٠.

الثاني عشر: تجارة محمد ﷺ في مال السيدة خديجة - رضي الله عنها -[1]

أتيحت لمحمد ﷺ حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره فرصة الخروج من مكة المكرمة في تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد، وكانت امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمد ﷺ صدق حديثه، وعظم أمانته، وكريم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل ذلك منها عليه الصلاة والسلام، وخرج في تلك المهمة مع غلام لها يقال له «ميسرة» حيث توجها إلى الشام، وباع محمد ﷺ البضاعة التي خرج بها، وربحت تجارة السيدة خديجة - رضي الله عنها - ربحاً عظيماً، واشترى محمد ﷺ من الشام ما أراد من بضاعة وسلع، ولما رجع إلى مكة المكرمة، باعت السيدة خديجة - رضي الله عنها - ما أحضره لها فتتضاعف مالها، فتفاءلت به خيراً، وضاعفت له الأجر، ثم كان حديث ميسرة لها عما شد انتباهه في شخصية محمد ﷺ من سمات ودلائل تفوق مستوى البشر العاديين، وعن البركات التي قصها ميسرة على سيدته بعد عودتهما، وأن محمدًا ﷺ نزل في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فسأل الراهب ميسرة: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت الشجرة إلا نبي. كما حكى لها ميسرة أنه عندما قفل محمد ﷺ عائداً إلى مكة المكرمة إذا كانت الهاجرة، واشتداد الحرارة يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعير، وكان حديث ميسرة للسيدة خديجة - رضي الله عنها - عن محمد ﷺ سبباً لأن تزداد عليه حرصاً وبه تمسكاً، ومنذ ذلك الوقت بدأت حياة محمد ﷺ تأخذ مساراً جديداً

الثالث عشر: زواج محمد ﷺ بالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[2]

كانت رحلة محمد ﷺ بتجارة السيدة خديجة - رضي الله عنها - إلى الشام سبباً لزواجه منها، بعد أن حدثها (ميسرة) عن سماحته، وصدقه، وكريم أخلاقه، وأمانته وبركته، فوجدت السيدة خديجة - رضي الله عنها - ضالتها المنشودة، وكان أشراف مكة المكرمة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٨٣ ؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ١٠٩ ؛ عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء، ج٣، ص ٢٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ١٢٩ - ١٣١ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٨٧ - ١٨٩ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٤ - ٢٥.

وساداتها يحرصون على الزواج منها، فترفض ذلك، فلما رجع محمد ﷺ من رحلته إلى الشام أرسلت إليه من ترغبه في الزواج، وقيل : إنها أرسلت أختها، وقيل : أرسلت (نفيسة بنت منيه) التي ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة - رضي الله عنها - فرضي وقبل ذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم السيدة خديجة - رضي الله عنها - عمرو بن أسد، وخطبوها إليه، وعلى أثر ذلك تم الزواج، وأصدقها عشرين بكرة، أو اثنتي عشرة أوقية ذهباً.

كان محمد ﷺ في الخامسة والعشرين عندما تزوج السيدة خديجة - رضي الله عنها - وكانت هي في الأربعين، وكانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - أول امرأة تزوجها محمد ﷺ، ولم يتزوج غيرها حتى توفيت - رضي الله عنها - عن خمسة وستين عاماً، كانت طوالها محل الكرامة، والتقدير والإعزاز.

ولدت السيدة خديجة - رضي الله عنها - لمحمد ﷺ غلامين، وأربع بنات، فالابنين هما : القاسم وبه كان ﷺ يكنى، وعبدالله ويلقب بالطاهر والطيب ومن البنات : رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة - رضي الله عنهنَّ، ومات بنوه ﷺ كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهنَّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ سوى فاطمة - رضي الله عنها - فقد توفيت بعده بستة أشهر.

الرابع عشر: السيرة الذاتية لمحمد ﷺ قبل البعثة(١)

لم يعرف عن محمد ﷺ أن حضر مجلساً من مجالس اللهو والمجون، ولا شرب خمراً، ولا أكل مما ذبح لغير الله، وما وافق قريشاً على شيءٍ مما كانت تدين به، كما أنه لم يمس نسبه الشريف بشيء من رجس الجاهلية، فكان أجلهم خلقاً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حكماً، وأوفاهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى والرذائل، فما رئي ممارياً، ولا مداجياً، ولا ملاحياً حتى اجتمع قومه على تسميته بالأمين وذلك بإجماع أهل بلده ؛ لرفعة أخلاقه، وحسن سيرته، واستقامة سلوكه مع الناس، وكان أهل مكة المكرمة يستأمنونه، ويودعون عنده ودائعهم إلى أن هاجر إلى المدينة المنورة، وترك

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٢٨، ١٩٠، ٢٣٤ - ٢٣٥ ؛ الطبري، تاريخ الأمم، ج١، ص ٢٦٣ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٣٥ ؛ رضا، محمد، محمد رسول الله، ص ٤٣ ؛ البخاري، ؛ محمد إسماعيل، صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

علياً – رضي الله عنه – مكانه، فبقي حتى رد الودائع إلى أصحابها، وهاجر بعد ذلك إلى المدينة المنورة.

كان محمد عليه أفضل الصلاة والسلام لا يحضر للأوثان عيداً، ولا احتفالاً ؛ بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة حتى لم يكن شيءٌ أبغض إليه منها، وكان عليه أفضل الصلاة والسلام لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى، ولم يذق محمد ﷺ شيئاً ذبح على الأصنام، وقيل له عليه أفضل الصلاة والسلام : «هل عبدت وثناً قط؟» قال:«لا». قالوا : «هل شربت خمراً؟» قال : «ما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان».

ومن إرهاصات نبوة محمد ﷺ تسليم الحجر عليه قبل النبوة، فعن جابر ابن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : إني لأعرف حجراً بمكة المكرمة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن، ومنها الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدا له من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وحبب الله إليه العزلة والتحنث، فكان يتعبد في خلواته في غار حراء على الملة الحنيفية التي أتى بها إبراهيم عليه السلام، واستمد الإسلام منها أساس دعوته وهو ما يتضح في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١)، وكان عليه أفضل الصلاة والسلام يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك، ثم يعود إلى بيته، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يعود من جديد إلى خلوة أخرى في غار حراء، واستمر هكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك.

ومما أكرمه الله به من صفات حلاه بها منها : بلاغته وفصاحته، وقدرته العجيبة في فنون القول، فقد تكاملت له كل هذه الموهبة في كل ضروبها، فصاحة في الكلام واللسان، وبلاغة في المعاني، وكان محمد ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل رجال قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وألينهم عريكة، وأجملهم نفساً، وأكرمهم خيراً، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وأعظمهم أمانة، حتى سماه قومه «الأمين» ؛ لما جمع فيه من الصفات الصالحة، والخصال الحميدة.

الخامس عشر: بشارات الأنبياء والعلماء بمحمد ﷺ(١)

وردت البشارة ببعثة الرسول ﷺ في الكتب السماوية المنزلة على لسان الأنبياء السابقين قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وأعلم الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء ببعثته وأمرهم بتبليغ أبنائهم بوجوب الإيمان به وأتباعه إن هم أدركوه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١).

وجاء في إنجيل يوحنا حكاية عن المسيح عليه السلام: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليطاً آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكث معكم وفيكم».

وذكر ابن تيمية رحمه الله: «قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى من الزبور فلم أر ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى».

وذكر كعب الأحبار أنه وجد في التوراة مكتوباً: «محمد رسول الله، لافظ ولا غليظ، ولا نحاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح أمته الحمادون، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل نجد، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضؤون أطرافهم، صفهم في الصلاة وفي القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة المكرمة، ومهجره بطابة، وملكه بالشام».

---

(١) ابن تيمية، أبوالعباس تقي الدين أحمد عبدالحليم (ت٧٢٨هـ) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطابع المجد، ج١، ص ٣٤٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٨٠ -١٨٢، ٢١١، ٢١٤، ٢٢١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤، ص ٧٥ - ١٥٨٨٠ -١٥٩؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ١٢٠.

إن تلك النصوص المذكورة في التوراة والإنجيل ناطقة برسالة محمد ﷺ، لهذا نرى أن بحيرا الراهب المتبحر في علم النصرانية قد عرف النبي ﷺ، وأخبره برسالته مما اطلع عليه في الكتب المقدسة، ففيها أوصافه عليه الصلاة والسلام وشيء من إرهاصاته ومعجزاته عليه أفضل الصلاة والسلام.

الفصل الثاني

الفترة الأولى

من العهد النبوي في

مكة المكرمة

الفترة الأولى من العهد النبوي في مكة المكرمة

أولاً: تحنثه في غار حراء و نزول الوحي(1)

أجمع المؤرخون أن محمداً ﷺ كان يتعبد في غار حراء القريب من مكة المكرمة يفكر في الكون وخالقه إلى أن اعتقد بصحة دين إبراهيم - عليه السلام - فعبد الله الواحد الأحد، وكان محمد ﷺ في غار حراء يبحث عن سر الكون وعن الخالق، وكان يسأل الله عز وجل في خلوته أن يهديه إلى سواء السبيل، فاستجاب الله دعاءه، وهداه إلى الحق، وأنزل عليه وحيه، وأرسله إلى العالمين هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

لم ينزل الوحي على محمد ﷺ فجأةً، ولكن سبقه مقدمات مهدت لنزوله وهيأت الرسول ﷺ لذلك الشرف العظيم وهو شرف الرسالة والتبليغ عن الله عز وجل، وأولى هذه المقدمات: الرؤيا الصادقة وتسمى أحياناً الرؤيا الصالحة، فكان عليه الصلاة والسلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،(أي وقعت كما يراها في المنام)، ثم حببت إليه الخلوة والانقطاع عن الناس، فكان يخلو بغار حراء وهو غار في أعلى جبل حراء كان يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ويحمل معه الطعام والماء، فإذا فرغ رجع إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - فحمل ما يحتاجه من الزاد، ثم ينطلق إلى الغار ليتعبد، وهذه العبادة قيل: «إنها كانت على دين إبراهيم عليه السلام»، وقيل: «أنها كانت بالتأمل والتفكر في هذا الكون العجيب، وما يحيط به من أسرار تدل على وجود إله قدير».

كان الرسول ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره عندما كان يخلو في غار حراء وحيداً بنفسه يتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة.

واختلف أهل السير اختلافاً كبيراً في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة والراجح أنه شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (البقرة: ١٨٥)، كما اختلفت الروايات، واختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان وتحديد ذلك اليوم

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٨٨ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ١٩١؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، المطبعة السلفية، القاهرة، ج١، ص ٢٧.

والراجح أنه اليوم الحادي والعشرين، لأن أهل السير كلهم أو معظمهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبي قتادة - رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين فقال: « فيه ولدت، وفيه أنزل علي»، وفي لفظ آخر: « ذلك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل علي فيه».

وجاء في (صحيح البخاري) عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾ (العلق: ١ - ٣).

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: مالي، فأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي، قالت خديجة: « والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي».

ثانياً: الدروس المستفادة من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها

• اقتضت حكمة الله أن يكون النبي ﷺ أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وهو الثابت من التاريخ، والقرآن، والحديث، بالرغم من أن بعض المستشرقين حاولوا أن يثبتوا عكس ذلك من غير برهان، وإن ما جاء في حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها - إبعاد لشبهة الشك في مصدر القرآن الكريم.

• بداية الوحي الإلهي كانت فيها إشارة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم.

• تجلي موقف السيدة خديجة - رضي الله عنها - مع الرسول ﷺ - في ما وقع له في الغار دليلاً على رجاحة عقلها، وحسن تصرفها، وسلامة فطرتها، وقوة قلبها، وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان، وقد صدَّق ورقة برسالة محمد ﷺ، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبيت النبي ﷺ، وتقوية قلبه، وإدخال الطمأنينة في نفسه، وأخبره أن ما مرَّ به من تجربة لم يكن إلا استهلالاً لأعظم رسالة.

ثالثاً: أنواع الوحي ومراتبه[1]

بين بعض العلماء المهتمين بسيرة الرسول ﷺ أقسام الوحي ومراتبه فذكروا منها :

١ - الرؤيا الصادقة : وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

٢ - ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن روح القدس نفخ في روعي».

٣ - كان عليه الصلاة والسلام يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له.

٤ - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، وكان أشد عليه، وعندما سأل الحارث - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي؟ قال عليه الصلاة والسلام : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي، فيمضي عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٢١ ؛ عبدالقادر، أسامة، الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، ص ١٠٨.

٥ - إنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ - كلام الله تعالى للرسول ﷺ مباشرة من غير واسطة ملك، كما كلم موسى بن عمران عليه السلام، وثبوتها لنبينا محمد ﷺ وهو في حديث الإسراء.

رابعاً: فترة تخلف الوحي(١)

اختلف علماء ومؤرخو السيرة في المدة التي فتر فيها نزول الوحي على المصطفى ﷺ بعد أن نزل عليه أول مرة في غار حراء، ولكن أرجح أقوال العلماء أنها أربعون يوماً، ولقد مرت تلك الأيام الأربعون على الرسول ﷺ وكأنها أربعون سنة، ولا عجب في ذلك، فقد اشتد به الشوق لنزول الوحي عليه، وخاف أن يكون الله قد حرمه من هذه النعمة الكبرى، وهي اختياره رسولاً بينه وبين الناس.

جاء في (صحيح البخاري) عن جابر بن عبدالله الأنصاري - رضي الله عنهما - وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: قال رسول الله ﷺ في حديثه: « بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: دثروني، دثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ (المدثر: ١ - ٥).

فحمي الوحي وتتابع، وقد أمره الله تعالى في هذه الآية القرآنية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله عز وجل، وهنا بدأ الرسول ﷺ يدرك حق الإدراك أنه أمام مهمة محددة، وبدأت آيات الوحي تتوالى لتحدد أمامه معالم هذه المهمة بوضوح، وترسم له خطوات التنفيذ.

خامساً: الدعوة إلى الإسلام سراً(٢)

كان من حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون الدعوة إلى دين الإسلام في مبدأ أمرها سرية لئلا يفاجأ أهل مكة المكرمة بما يثير استنكارهم وغضبهم فينفروا، ويكون ذلك سبباً لشن الغارات والحروب، وإهراق الدماء، إضافة إلى ذلك فإن مكة المكرمة كانت مركز دين العرب، وبها سدنة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٤١ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٤١٢ - ٤١٤ ؛ صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، ج٢، ص ٤٣ ؛ الطلابي، السيرة النبوية، ص ٨٢ ؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١، ص ٢٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ٣٠٧ - ٣٠٩ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٣١ - ٣٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ٢٥.

الكعبة المشرفة، والقوام على الأصنام، والأوثان القديمة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة.

لم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة من قبل أن يهيئ له أسباب النصر والفوز على من يقاومه في ذلك، خصوصاً أن قومه الذين بعث إليهم كانوا من أشد الناس تمسكاً بمعبوداتهم، وحرصاً على ما كان عليه آباؤهم، فإعلان الدعوة يحتاج إلى مقدمة يستأنس بها الفريقان، وما ذلك إلا باجتذاب أفراد هؤلاء وهؤلاء خفية، حتى إذا تكونت منهم جماعة، وأعلنت بهم الدعوة سهل على غيرهم أن ينبذوا تقاليد قومهم، ويتبعوا ما يدعوهم إليه الداعي، وبعد أن نزلت سورة المدثر أخذ الرسول ﷺ يدعو الناس امتثالاً لأمر ربه، وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على أقرب الناس إليه من أهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه ممن يطمئن إليهم، ويثق بهم، ويتوسم فيهم الخير، وحب الحق، فبادر إلى التصديق، والإيمان به أفراد قليلون كانوا يخفون إسلامهم عن أعدائهم، ويقيمون صلواتهم وما أمروا به من العبادات خفية، لا يظهرون بذلك في مجامع قريش، وهؤلاء هم الذين عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين إلى الإسلام.

كان أول من صدّقه وآمن به واتبعه من خلق الله، وسطع عليه نور الإسلام فاستجاب له من أهله زوجه خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - وصلى الرسول ﷺ معها آخر يوم الاثنين وهو أول يوم صلى فيه الرسول ﷺ، وكانت الصلاة وقتئذ ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي.

بعد إسلام السيدة خديجة - رضي الله عنها - دخل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في الإسلام، وكان أول من آمن من الصبيان، وكان سنه آنذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وأسلم مولاه زيد بن حارثة بن شراحبيل الكلبي - رضي الله عنه - وهو أول من آمن بالدعوة من الموالي، وكان أبوبكر - رضي الله عنه - أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال الأحرار، والأشراف، ويذكر علماء السيرة أن هؤلاء رضوان الله عليهم أول من استجابوا لدعوة الرسول ﷺ.

قام أبو بكر- رضي الله عنه - بجهد كبير لنشر الدعوة فأسلم على يديه خمسة من المسلمين الأولين هم : عثمان بن عفان - وعبدالرحمن بن عوف - وسعد بن أبي وقاص - والزبير ابن العوام - وطلحة بن عبيدالله - رضي الله عنهم جميعاً - وكان هؤلاء الخمسة أول ثمرة من ثمار أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا له.

استمرت هذه الدعوة السرية مدة ثلاث سنوات، وكانت مقصورة على الأفراد، ولم

يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي إلا أنها عُرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة المكرمة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحياناً، وقاموا بالاعتداء على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيراً، فقد حسبوا النبي ﷺ أحد هؤلاء الربانيين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها، كما صنع قبله أمية بن الصلت الثقفي، وقيس بن ساعدة الإيادي، وعمرو ابن نفيل، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع وانتشار خبره، وامتداد أثره، وأخذت تفكر في ماهية مصير دعوته.

سادساً: فرض الصلاة[1]

في هذه المرحلة الأولى من تاريخ الدعوة فرض الله الصلاة على رسوله وعلى المسلمين، والذي فُرض حينذاك كان أصل الصلاة، فأمر بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ثم شرع الوضوء، وذلك أن جبريل عليه السلام ظهر للرسول ﷺ في أحسن صورة، وأطيب رائحة بأعلى مكة المكرمة، فقال: يا محمد، إن الله يقرئُك السلام، ويقول: أنت رسول الله إلى الإنس والجن، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله، ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء، فتوضأ منها جبريل، ثم أمره أن يتوضأ، وقام جبريل يصلي، وأمره أن يصلي، فعلمه الوضوء والصلاة، وهذه الفريضة هي صلاة الليل، أما الصلوات الخمس فقد فرضت ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة، ولا جدال في ذلك بين العلماء، وقد فرضت خمساً كما هي الآن.

سابعاً: الجهر بالدعوة[2]

بعد المرحلة التي قضاها النبي ﷺ في تبليغ دعوته خفية بدار الأرقم بن أبي الأرقم، وهي مدة ثلاث سنوات أمر الله عز وجل النبي ﷺ أن يصدع بما جاء به، وأن يدعو الناس إلى عبادة الله، قال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)، أي لا تبال بهم، ولا تلتفت إلى لومهم لك على إظهار الدعوة.

وقد تطورت طريقة الدعوة بعد أن نزلت تلك الآيات، فبدأ النبي ﷺ الدعوة متمثلاً

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢١، ص ٤٢٦ - ٤٢٧؛ النجدي، مختصر سيرة الرسول، ص ٨٨؛ الطلابي السيرة النبوية، ص ٨٤.

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٢٢؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٧٥؛ اللحام، حنان، هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٣٨ - ٣٩.

أمر ربه، واثقاً بوعده ونصره، وأعلن الدعوة إلى دين الله، وأصبح محمد ﷺ يجمع القوم ويكاشفهم بأمر الدين الحنيف الجديد بعد أن كان يهمس في أذن الناس أن اعبدوا الله وحده واهجروا عبادة الأصنام.

بدأ الرسول ﷺ دعوته بعشيرته الأقربين، من بني هاشم، فجاؤوا ومعهم نفر من بني طالب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً، فلما اجتمعوا كلمهم الرسول ﷺ في شأن الدعوة الإسلامية الجديدة، وما تدعو إليه من نبذ معتقداتهم الفاسدة والإيمان بالله وحده، ولكنه لم يكد يعرض حديثه حتى قاطعه أبو لهب ليفسد عليه الغرض من الاجتماع ودعا القوم إلى الانصراف فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاًوتفرقت جموعهم بعد ذلك.

لكن النبي ﷺ لم يفقد الأمل، ولم تضعف عزيمته فدعاهم ثانية، فلما اجتمعوا قال لهم: « إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً، أو النار أبداً» فقال أبو طالب: « ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقاً لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني عن فراق دين عبدالمطلب»، فقال أبو لهب: « هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم»، فقال أبو طالب: « والله لنمنعنه ما بقينا».

بعد أن تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، اتجه ﷺ نحو الصفا، وهو جبل معروف في مكة المكرمة، منه يبدأ السعي بين الصفا والمروة، وصعد إلى أعلاه ونادى بطون قريش، فكان الرجل إذا لم يستطع الخروج بنفسه أرسل من يأتي له بالخبر، فلما اجتمع الناس قال لهم النبي ﷺ: « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: «نعم، ما علمنا عليك كذباً». قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، - حتى عدّ الأفخاذ من قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله». فنهض أبو لهب وكان رجلاً بذيئاً سريع الغضب، وصاح قائلاً: « تبّاً لك سائر

هذا اليوم ألهذا جمعتنا؟!» فسكت محمد ﷺ، ونظر إليه نظرة يملؤها الأسى والأسف، ثم نزل عليه الوحي يقول تعالى :﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ (المسد: ١ – ٥).

ثامناً: أساليب قريش في محاربة الدعوة(١)

لما بلغ القرشيون ما أكرم الله به رسوله ﷺ من النبوة راعهم ذلك، وكبر عليهم، ولكنهم لم يستنكروا عليه شيئاً من دعوته، ولم يبعد عنه قومه، ولم يردوا عليه حتى بدأ يوضح موقف الإسلام من عبادة الأصنام، وأخذ يذكر آلهة قريش ويعيبها، ويتهم من يعبدونها بالضلال والزيغ، حينئذٍ أدركت قريش أبعاد هذه الدعوة الجديدة، وأنها ما جاءت إلا لتهدم معتقدات وقيم وعاداتٍ تأصلت في مجتمعهم، فأظهروا استياءهم من جهره بالدعوة إلى وحدانية الله، خشية القضاء على عبادة الأوثان التي كان وجودها حول الكعبة المشرفة مصدراً هاماً لثرائهم، وقد أجمع المشركون على محاربة الدعوة التي عابت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم، فاتخذوا العديد من الوسائل، والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

تاسعاً: قريش تفاوض أبا طالب في أمر رسول الله ﷺ(٢)

شعر المشركون بعجزهم أمام الصمود الذي تحصن به المسلمون، وفشلت محاولاتهم لإرجاعهم عن دينهم، فرغَّبوا أباطالب لعله يكف ابن أخيه، فيكف أتباعه، ولما رأى القرشيون أن أبا طالب سيد بيت عبد مناف، وأشرف بيوت قريش لم يتعرض لدعوته ؛ بل كان يعطف عليه، ويحرص على صدِّ كل أذى عنه سار إليه فريق من أشرافهم، فقالوا له : «أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه». فقال لهم أبوطالب

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٦٤- ٢٦٥ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ؛ ج١، ص ٤٧ ؛ السهيلي، عبدالرحمن بن عبدالله،(ت٥٨١هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لأبن هشام، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة ١٣٨٧هـ، ج١، ١٥٦ ص ٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢١٢ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٧٥.

قولاً جميلاً، وردهم رداً رفيقاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ لما هو عليه، هذه هي المفاوضة الأولى، لكنها لم تثمر شيئاً، إذ ظل رسول الله ﷺ يدعو إلى عبادة الله كما كان.

فشلت الوفادة الأولى لأبي طالب، وتذمر أشراف قريش، ووفدوا مرة ثانية إليه، وأعلنوا أنهم لن يصبروا على تلك الحال قائلين : « يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك أن تنهى ابن أخيك، فلم تفعل، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا، وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعظم الأمر على أبي طالب، وكلم الرسول ﷺ في ذلك، فقال له النبي ﷺ :«والله يا عمُّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه»، ثم بكى رسول الله ﷺ، وقام، فلما همَّ بالانصراف ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : « اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً »، وفشلت الوفادة الثانية.

حاولت قريش للمرة الأخيرة الاتفاق مع أبي طالب، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له : « يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجملهم عقلاً ونصراً، اتخذه ولداً، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامنا فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال : « والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لايكون أبداً».

لم تثن تهديدات قريش أبا طالب، ولم يتراجع عن موقفه ؛ بل ازداد به تمسكاً، واستنفر بني هاشم وبني عبدالمطلب للوقوف إلى جواره في حلف واحد على الحياة والموت تأييداً للرسول ﷺ، مسلمهم ومشركهم على السواء، فاستجابوا له، وقاموا بجانبه إلا أبا لهب، فإنه انضم إلى المشركين.

عاشراً: تشويه دعوة الرسول ﷺ واتهامه بالساحر(1)

استعملت قريش في مناهضة الرسول ﷺ طريق الاتهامات والسخرية وسوء الأدب إذ قام مشركو مكة المكرمة بمحاولة تشويه دعوة الرسول ﷺ، ولذلك نظمت

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص ٢٧٠ -٢٧١ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج1، ص ٥٠٤ ؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ص ٢٩، ١٨٨ .

قريش حرباً إعلامية ضده قادها الوليد بن المغيرة عم أبي جهل وكان من أكابر قريش في المركز الاجتماعي والمادي، سمع القرآن مرة من النبي ﷺ فقال لقومه: « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه». فقالت قريش: صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل: «أنا أكفيكموه»، ثم توجه إليه، وجلس أمامه حزيناً، وكلمه بما شعر به تجاه محمد ﷺ، مما جعل الوليد يأتي القوم في ناديهم ويخاطبهم قائلاً: «أتزعمون أن محمداً مجنون؟! فهل رأيتموه يهوس؟! وتقولون كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟! وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟! وتزعمون أنه كاذب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟! »، فقالوا في كل ذلك: «اللهم لا». ثم قالوا: «فما هو؟» ففكر قليلاً ثم قال: « ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه فرق بين الرجل وأهله وولده»، فاهتز النادي فرحاً بهذا الرأي الذي سيفرق بين محمد ﷺ وعشيرته، وسيباعد بينه وبين الناس، وأنزل الله سبحانه وتعالى رداً عليه في آيات مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (المدثر: ١١ - ٢٦).

الحادي عشر: إيذاء قريش للرسول ﷺ والمؤمنين [(١)]

لم يتوقف المشركون عن أذى رسول الله ﷺ منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ولما لم تلق قريش نجاحاً في صرف هؤلاء الفتيان الذين أسلموا عن دينهم، ولم يلن رسول الله ﷺ ولم يحابهم، اشتد عليهم ذلك، فأغروا برسول الله ﷺ سفاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالسحر والشعر، والكهانة، والجنون، وتفننوا في إيذاء رسول الله ﷺ، وذهبوا فيه كل مذهب، ويدل على مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تنزل عليه ﷺ في تلك

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ ؛ صحيح البخاري، فتح الباري، ج٦، ص ٣٧، ٤٤٥ - ٥٥٥؛ أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٦٢ ؛ الجزائري، هذا الحبيب، ص ٩٤ - ٩٨

الأثناء تأمره بالصبر، وتدله على وسائله، وتنهاه عن الحزن، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل: ١٠).

وجد رسول الله ﷺ من المشركين كثيراً من الأذى والمضايقات خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت الحرام وكان من أعظمهم أذى لرسول الله ﷺ جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين وكان من هؤلاء: أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة - لعنه الله - فكثيراً ما أساء إلى الرسول ﷺ، وحاول أكثر من مرة منع الرسول ﷺ من الصلاة عند الكعبة المشرفة، وقد أراد مرة أن يرض رأسه ﷺ وهو ساجد،ولكن الله تعالى حفظه منه، فإنه لما قرب منه خانته قواه، وسقط من يده الحجر الذي أعده لذلك، ورجع إلى قومه مذعوراً، وهو يقول: إنه قد تعرض لي فحل، ما رأيت مثله قط، هم بي ليأكلني، وقد تمثل جبريل عليه السلام بهذه الصورة.

نهى أبو جهل الرسول ﷺ عن الصلاة في البيت الحرام، فلما لم ينته، تعرض له بالمنع، فقابله الرسول ﷺ بالشدة وهدده، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ومنزلاً، فرد الله تعالى عليه تهديداً له ووعيداً بقوله: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ (العلق: ١٥ - ١٩).

كان أبو لهب عم الرسول ﷺ من أشد الناس عداوة له، وكذلك امرأته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكثيراً ما كانت تضع الشوك في طريقه، وتلقي بالقاذورات النجسة أمام بيته، ولم تترك عملاً فيه إيذاء للرسول ﷺ إلا فعلته، وحتى لم تكتف بهذا الإيذاء العملي؛ بل كانت تسب الرسول ﷺ، وتوقع العداوة بينه وبين الناس، وأنزل فيها قول الله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ (المسد: ٤ - ٥).

ومن أشد الناس عداوة للرسول ﷺ عقبة بن أبي معيط فقد روى البخاري في صحيحه: «بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة المشرفة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق الرسول ﷺ، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (غافر: ٢٨).

لم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والإيذاء النفسي؛ بل تعداه إلى الإيذاء البدني، بل

وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه الرسول ﷺ، ويكثر من همزه ولمزه إذا رأى رسول الله ﷺ وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (سورة الهمزة آية ١).

الثاني عشر: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب[1]

تذكر المصادر التاريخية ما فعله كفار قريش بأبي بكر - رضي الله عنه - عندما قام يوماً في الناس، يدعو إلى الله تعالى، وإلى رسوله، فثار المشركون على أبي بكر - رضي الله عنه - فأنزل وضرب ضرباً شديداً، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر - رضي الله عنه - في ثوبه حتى أدخلوه منزله وهم لا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فجعل أبو قحافة والده، وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: «ما فعل رسول الله ﷺ» فنالوا منه بألسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه أم الخير: «انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه»، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: «ما فعل رسول الله ﷺ؟» فقالت: «والله ما لي علم بصاحبك»، فقال: «اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه»، فخرجت أمه حتى جاءت أم جميل، فقالت: «إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله»، فقالت: «لا أعرف، ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك»، قالت: «نعم». فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً، فدنت أم جميل، وأعلنت الصياح، وقالت: «والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم»، قال: «فما فعل رسول الله ﷺ»، قالت: «هذه أمك تسمع»، قال: «فلا شيء عليك منها»، قالت: «سالم صالح»، قال: «أين هو؟» قالت: «في دار الأرقم»، قال: «فإن لله علي ألا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ»، فامهلتا حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فقال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣١٧ - ٣٢٠؛ الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ج٣، ص ١٠ - ١٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص ١١٦؛ يوسف، محمد السيد، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ص ٢٤٣

شديدة، فقال أبو بكر: « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها، فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت».

ومن بين الذين عذبوا فصبروا : بلال بن رباح، وكان عبداً حبشياً، كان سيده أمية بن خلف إذا حمت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يضع حجراً كبيراً على صدره ويقول له : ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمن باللات والعزى، ولكنه احتمل كل هذه الآلام، وصبر على الأذى والنكال وكلما التمسوا منه جواباً لا يرد عليهم إلا بتلك الكلمة التي ملكت نفسه ومشاعره (أحدٌ أحد) وما أعطاهم قط كلمة مما يريدون، وقد رآه أبو بكر - رضي الله عنه - يوماً يقاسي أشد العذاب والأذى، فقال لسيده أمية بن خلف : ألا تتقي الله في هذا المسكين؟!، فقال : أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا، وعبادة أصنامنا فأنقذه، فقال : عندي غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيكه به، قال أمية بن خلف : قبلت، فأعطاه أبو بكر - رضي الله عنه - غلامه، وأخذ بلالاً فأعتقه، وقيل إن أبا بكر اشتراه بخمس أواق ذهباً، وبذلك تخلص بلال من التعذيب والتحقير، ومن أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ﷺ بقية حياته ملازماً له، وكان راضياً عنه مبشراً إياه بالجنة، فقد قال ﷺ لبلال : « ... فإني سمعت خشق نعليك بين يدي في الجنة» وكان مقامه عند الصحابة - رضوان الله عليهم - كبيراً، حيث كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: « أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا».

ومن الذين تعرضوا لأبشع ألوان التعذيب عمار بن ياسر وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكان مولى لبني مخزوم، أسلم أبوه وأمه مبكراً، وكان المشركون يخرجونهم إلى رمضاء مكة المكرمة الملتهبة، ويطرحونهم بها، ويتفننون في تعذيبهم، ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال : صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، فمات ياسر من شدة العذاب، أما امرأته سمية فقد أغلظت القول لأبي جهل، فطعنها في قلبها بحربة كانت في يده فماتت رضي الله عنها، وهي أول شهيدة في الإسلام.

شدد مشركو قريش العذاب على عمار بن ياسر - رضي الله عنه - في الشمس المحرقة بين صخور مكة المكرمة ورمالها تارة، ووضعوا الصخر على صدره تارة أخرى، قائلين له : لا نتركك حتى تسب محمداً، وتقول في اللات والعزى خيراً، ففعل واستجاب

لطلبهم فتركوه، فأتى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ : ما وراءك؟ قال ياسر: شرٌّ يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا، قال : فكيف تجد قلبك؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان، فقال : يا عمار إن عادوا فعد، فأنزل الله تعالى :﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقد حضر عمار بن ياسر – رضي الله عنه – المشاهد كلها مع النبي ﷺ.

وممن اشتد عليهم إيذاء قريش من المستضعفين : صهيب بن سنان الرومي، كناه رسول الله ﷺ أبا يحيى قبل أن يولد له، وكان ممن يعذب في الله، فعذب عذاباً شديداً، فلما أراد الهجرة منعته قريش، فافتدى نفسه منهم بماله كله.

وممن اشتد عليهم إيذاء قريش : مصعب بن عمير – عبدالله بن مسعود – خالد بن سعيد بن العاص – عامر بن فهيرة – أبو فكيهة (رضي الله عنهم جميعاً) .

ولم يكن التعذيب والأذى من مشركي قريش مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم، وإنما طال النساء أيضاً قسطٌ كبيرٌ من الأذى والتعذيب والعنف بسبب إسلامهنَّ، وكان من بين هؤلاء : زنيرة الرومية، وأخت عامر بن فهيرة، كانتا لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قبل أن يسلم، فمر به أبو بكر وهو يعذبهما بالضرب فاشتراهما منه وأعتقهما، وأم عنيس، كانت أمة لبني زهرة، وكان الأسود بن عبد يغوث قد تولى تعذيبها بأشد ما يستطيع قلب صلد أن يفعله، فصادفه أبو بكر، فاشتراها وأعتقها، واشترى كذلك ابنتها لطيفة، وكانت تُسام أشد العذاب، وأعتقها، واشترى أبو بكر – رضي الله عنه – لبينة جارية المؤئل بن حبيب، وكانت تلاقي من سيدها أفظع ما يلقاه ضعيف من قوي.

وممن اشتد عليهنّ تعذيب مشركي قريش : سمية بنت خياط – وفاطمة بنت الخطاب – وحمامة أم بلال بن رباح، وغيرهنَّ – رضي الله عنهنَّ جميعاً.

الثاني عشر: الإغراء بدل الإيذاء «عروض مغرية»[1]

لجأت قريش إلى سياسة الملاينة والإغراء بالمال، والجاه، والملك، والسلطان، ظناً منهم أنه ربما يغريه بريق هذه العروض، فأرسلوا إلى محمد ﷺ، يعرضون عليه من الدنيا ما يشاء.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص ٥٠١ – ٥٠٦

استأذن عتبة بن ربيعة قريشاً أن يذهب إلى رسول الله ﷺ فيكلمه ويعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها فيعطوه أيها شاء، ويكف عنهم. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه وكلمه، فجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي في المسجد، وقال له : «يا ابن أخي إنك من خيارنا نسباً وحسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، ومن مضى من آبائهم، فإنك إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه». فلما فرغ من كلامه، ورسول الله ﷺ يستمع إليه، قال : « أفرغت يا أبا الوليد؟» قال عتبة :» نعم» فقال النبي ﷺ : « فاسمع مني»، قال : أفعل.، قال : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ ﴾ (فصلت: ١ — ٤).

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فرجع عتبة إلى قومه وقال لهم:«يا معشر قريش لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله، والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر، فأطيعوني وامتنعوا عن الرجل، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعته شأن عظيم، فإن يصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم»، فقالوا : «لقد سحرك محمد يا أبا الوليد»، فقال لهم : «هذا رأي، وتركهم وشأنهم».

ويتجلى من موقف عتبة لمَّا عاد إلى قومه عدم نصحه لهم باتباع محمد ﷺ، ولم يتَّبعه هو نفسه، وكان كل ما أشار عليهم أن يتركوه وشأنه، فإما أن يكفيهم الناس أمره فيطمئنوا على عاداتهم ووثنياتهم ونظامهم الاجتماعي، وإما أن يزداد عدد أنصاره والداخلين في دينه ويسود فيستفيدوا من علو شأنه باعتبار أنهم قومه وأقرباؤه، وبناء على ذلك فقد أخفق الإغراء وانتهت المفاوضات دون اتفاق، ولم يتغير موقف قريش تجاه إيذائهم للمسلمين.

الفصل الثالث

الهجرة إلى الحبشة

وتطور الدعوة في مكة المكرمة

حتى وفاة أبي طالب والسيدة

خديجة رضي الله عنها

الهجرة إلى الحبشة وتطور الدعوة في مكة المكرمة حتى وفاة أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنها

أولاً: ملابسات وأسباب الهجرة الأولى إلى الحبشة [1]

عز على النبي ﷺ أن يرى أتباعه يتعرض بعضهم للسخرية، والإيذاء، والبعض الآخر للتعذيب والاضطهاد الذي لجأت إليه قريش في مقاومة الدعوة كما عز عليه ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله، ثم من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من الأذى، والبلاء، فأشار على أصحابه في السنة الخامسة من البعثة، أن يتفرقوا في الأرض فراراً بدينهم، وحفاظاً على عقيدتهم، ودمائهم وأموالهم، وقال لهم: « لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك أصحاب الرسول ﷺ إلى أرض الحبشة فكانت أول هجرة في الإسلام، ويبدو أن دوافع الهجرة ارتكزت على عدة محاور منها: حماية الدين - حماية النفس - نشر الدعوة خارج مكة المكرمة.

ثانياً: اختيار الحبشة لتكون مكاناً للهجرة [2]

اختار الرسول ﷺ الحبشة دون سواها مهجرًا للمسلمين وذلك يعود إلى ما عرف عن النجاشي ملك الحبشة آنذاك من عدل وصلاح، مما كان يتيح للمسلمين في دياره الأمن والطمأنينة، وينعموا بحرية العبادة مع أن النجاشي كان يدين بالمسيحية إلا أنه كان يتمتع بسمو الأخلاق وحبه للعدل والصلاح وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: كان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، ومن ثناء الرسول ﷺ عليه قوله: « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد».

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج، ص ٣٣٤؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج٧، ص ١٨٩؛ صحيح البخاري، ج٦، ص ٢٣٧؛ العودة، سليمان، الهجرة الأولى في الإسلام، ص ٣٣ - ٣٥؛ العودة، سليمان، الهجرة الأولى في الإسلام، ص ٣٣ - ٣٥.

(١) ابن هشام السيرة النبوية، ج١، ص ٣٢١؛ صحيح مسلم، ج٣، ص ٣٩٢؛ الطلابي، السيرة النبوية، ص ١٩٣ - ١٩٥

هناك سبب آخر يتمثل في أن الحبشة كانت مكاناً تجارياً معهوداً لقريش، وتعد أيضاً من مراكز التجارة، ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن يجد فيها المسلمون المهاجرون إليها مصدراً للرزق، وسعة فيه عن طريق اشتغالهم بالتجارة.

وأخيراً قد يكون أيضاً محبة الرسول ﷺ للحبشة، ومعرفته بأخبارها من خلال حاضنته أم أيمن - رضي الله عنها - والتي كانت حبشية الأصل، وكانت تحدثه كثيراً عن الحبشة بلدها، كما أن الرسول ﷺ كان خبيراً بطبائع وأحوال الدول في زمانه وكانت الحبشة إحدى تلك الدول.

ثالثاً: خروج المسلمين إلى الحبشة(١)

كان خروج المسلمين إلى الحبشة في شهر رجب من العام الخامس من البعثة النبوية، وقد اختلف المؤرخون في عدد من هاجر منهم في المرة الأولى والراجح أنهم اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان في مقدمتهم عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وزوجته السيدة رقية ابنة النبي ﷺ، وعبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن مطعون، والزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود - رضي الله عنه جميعًا.

لم يطل مكث المسلمين بالحبشة في هجرتهم الأولى، فقد هاجروا في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وغادروها إلى مكة المكرمة في شوال من السنة نفسها وتعود دوافع عودة المسلمين المهاجرين إلى مكة المكرمة إلى أن الظروف التي أحاطت بهؤلاء المهاجرين الأولين لم تكن مشجعة، فقد كان عددهم قليلاً مما عمق إحساسهم بالعزلة بالرغم من حسن استقبال النجاشي لهم، ولما بلغ أسماعهم أن المسلمين بمكة المكرمة أصبحوا بمأمن من أذى قريش بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، واتساع دائرة الإسلام بمكة المكرمة ، وأن زعماء قريش أسلموا واصطلحوا مع الرسول ﷺ، فقالوا هؤلاء عشائرنا الذين أسلموا أحب إلينا، وكانوا يطمعون في أن يجدوا موقف أهل مكة المكرمة من المسلمين قد تغير، فرجعوا مستبشرين مسرورين إلى مكة المكرمة، فلما كانوا دون مكة المكرمة ساعة من نهار عرفوا جلية الأمر، عندما لقوا ركباً فسألوهم عن قريش، فقالوا لهم : ذكر محمد آلهتهم بخير

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٣٥ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢٠٤ ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٨٨.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النجم: ١٩ - ٢٠), فألقى الشيطان في أمنية قريش «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى»، فظنوا أن النبي ﷺ تلا ذلك ضمن السورة، فلما بلغ السجدة سجدوا معه، ثم عاد الرسول ﷺ لذم آلهتهم فعادوا لما كانوا عليه من الشر والأذى والتعذيب والعداوة للمسلمين، عند ذلك هموا بالرجوع إلى الحبشة، ولكنهم رأوا أن يدخلوا مكة المكرمة فدخل من دخل منهم بجوار بعض ذوي المكانة، ودخل بعضهم مستخفياً.

رابعاً: الهجرة الثانية إلى الحبشة(١)

نظراً للظروف القاسية التي كان يعانيها المسلمون في مكة المكرمة المكرمة أشار رسول الله ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها بيد أن المسلمين كانوا أسرع في الخروج إلى الحبشة في المرة الثانية.

اختلف مؤرخو السيرة حول عدد الذين ذهبوا إلى الحبشة في الهجرة الثانية والراجح أن عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة من قريش وسبعاً غرائب.

كان من أبرز المهاجرين في الهجرة الثانية بالإضافة إلى من ذكرت أسماؤهم في الهجرة الأولى : جعفر بن أبي طالب، وأبوعبيدة عامر بن الجراح، والمقداد بن عمرو، وشرحبيل بن حسنة، وسلمة بن هشام وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً.

وصل المهاجرون إلى الحبشة وأقاموا فيها مدة طويلة ثم عادوا بعد أن أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة.

خامساً: موقف قريش من المهاجرين إلى الحبشة(٢)

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم، وأغرتهم كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفداً منهم محملاً بالهدايا والتحف كي يحرم المسلمين وده وعطفه، وتصرفه عن إيواء المسلمين، وتقديم الحماية لهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٣٠ ؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص ٢٤ ؛ السهيلي، الروض الأنف، ج٣، ص ٢٢٨ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص ١١ - ١٣ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٣٣ - ٣٣٥ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٥٤

أرسلت قريش وفدًا مكوناً من عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة وهو الأرجح لأن هناك من مؤرخي السيرة من ذكر أن عمارة بن الوليد هو الذي صحب عمرو بن العاص إلى الحبشة، وكان مطلب قريش رد المهاجرين المسلمين إلى مكة المكرمة، وقال المبعوثان لأصحاب النجاشي : إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دين الملك، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد أرسلنا أشراف قومنا إلى الملك ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم، وخافا أن يسمع النجاشي كلام المسلمين.

فلما دخل وفد قريش على النجاشي قالا له : « أيها الملك، إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا، وعن ملتنا، وجاؤوا بدين جديد، لا نعرفه نحن ولا أنت، فقد بعثنا أشراف قومنا لنردهم إليهم.

سادساً: حوار بين جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - والنجاشي (١)

بالرغم من أن البطارقة أعلنت تصديقها لكلام السفيرين، فإن النجاشي أبى، واحتاط في الأمر، ورأى أن يسمع القضية من الطرفين حتى يتضح له الحق، وقال : « لا والله، لا أسلم قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم، وأسألهم، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانا على غير ما يذكر هذان ؛ منعتهم وأحسنت جوارهم»، وأرسل إليهم يستدعيهم، ودخلوا عليه، وعندئذ سألهم النجاشي : «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم؟» فرد عليه جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - قائلاً : «أيها الملك، كنا قوماً نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، وأخذ يذكر تعاليم الدين الجديد - فصدقناه وآمنا برسالته، فعذبنا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، فلما ظلمونا، وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك دون غيرك سواك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك». فقال النجاشي: «هل عندك مما جاء به عن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٣٥ - ٣٣٨ ؛ ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد، المسند، المكتب الإسلامي، بيروت، ج١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص ٢٨.

الله من شيء؟» قال جعفر بن أبي طالب : «نعم»، فقرأ عليه قوله تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ (مريم: ٣٢ - ٣٣)، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى الأساقفة حتى بلوا مصاحفهم، وقال النجاشي : « إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً» يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه، فخرجا من عند النجاشي، إلا أن عمرو بن العاص فكر في الوقيعة بين النجاشي والمسلمين وقال : « والله لأتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم، لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبداً». فلما كان الغد قال عمرو بن العاص للنجاشي : « إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً »، فأرسل إليهم يسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا : هو عبدالله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فأخذ النجاشي عودًا من الأرض، وقال : ما عند عيسى قدر هذا العود، اذهبوا فأنتم شبوم (أي آمنون) بأرضي، من سبكم غرم - من سبكم غرم - من سبكم غرم ما أحب أن لي دبراً - أي جبلاً - من ذهب وأني أذيت رجلاً منكم».

رد النجاشي هدايا قريش، وعاد عمرو وصاحبه إلى مكة المكرمة دون النجاح في مهمتهما، وفشلت قريش في إعادة المسلمين إلى مكة المكرمة، وبقي هؤلاء المهاجرون في الحبشة ينعمون بحرية تامة، ورعاية شاملة من النجاشي.

ومن هنا نرى أن هجرة المسلمين إلى الحبشة بكل ما أحاط بها من ملابسات، وما ترتب عليها من ردود فعل توضح موقف مشركي قريش، ومدى ما وصلت إليه محاولاتهم اليائسة من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية، وملاحقة ومتابعة أنصارها حيث وجدوا.

سابعاً: إسلام حمزة وعمر - رضي الله عنهما -(١)

اشتد أزر المسلمين في مكة المكرمة بإسلام رجلين من كبار رجالات قريش مشهورين بالفتوة والشجاعة والنجدة وهما : حمزة بن عبدالمطلب - عم الرسول ﷺ - وأخوه من الرضاع، وهو رجل جلد قوي الجسم، ويرجع سبب إسلام حمزة - رضي الله عنه - إلى أنَّ أبا جهل مر يوماً برسول الله ﷺ، وهو عند الصفا، فنال منه وآذاه، ويقال إنه ضربه بحجر في

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٤٢ - ٣٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٥٦ - ٥٧ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ابن الجزري، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١١

رأسه ﷺ، فشجه ونزف منه الدم، ثم انصرف إلى نادي قريش عند الكعبة المشرفة، وكانت مولاة لعبدالله بن جدعان تنظر ما حدث من مسكن لها على الصفا، وبعد ما أقبل حمزة من الصيد متوشحاً قوسه، أخبرته الخبر، فخرج حمزة - رضي الله عنه - وتوجه إلى أبي جهل وهو في مجلس قومه، ثم ضرب رأسه بالقوس، فشجه شجة منكرة، وقال : أتشتمه وأنا على دينه، وثار الحيان، بنو مخزوم وبنو هاشم، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

كان إسلام حمزة - رضي الله عنه - كأن اللسان قد سبق إليه دون قصد، ثم شرحالله صدره للإسلام، وسمي أسد الله، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة، ولما أسلم حمزة - رضي الله عنه - عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالونه من الرسول ﷺ لاعتقادهم أن حمزة سيصدهم عنه إذا ما حاولوا التعرض له.

أما عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد أسلم بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة - رضي الله عنه -، وكان من أشد الناس قوة على المسلمين قبل إسلامه، وكان لإسلام عمر - رضي الله عنه - في ذلك الوقت أثر كبير في تقوية شأن المسلمين بمكة المكرمة، فكانوا قبل إسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة المشرفة، فلما أسلم قاتل قريش حتى صلى عندها، وصلى معه المسلمون، وأصبح من اليسير على المسلمين أن يجهروا بتلاوة القرآن، ولم يكونوا قبل ذلك يستطيعون الجهر به، كما دخل في الإسلام كثير من أهل مكة المكرمة اقتداء بحمزة وعمر - رضي الله عنهما.

ثامناً: مقاطعة قريش لبني هاشم وعبدالمطلب(١)

أدرك كفار قريش أن كل ما عملوه ضد المسلمين لم ينجح في صدهم عن دينهم، وأن أعداد الداخلين في الإسلام ازداد، ولم ينجحوا أيضاً في إعادة المهاجرين إلى مكة المكرمة المكرمة، وفشلت مؤامرتهم عند النجاشي بالحبشة، وإزاء هذا كله فكرت قريش في طريقة جديدة تفسد بها على النبي ﷺ وأتباعه، ويقضون بها على المسلمين، ومن يناصرهم من بني هاشم وبني عبدالمطلب، فاتفقت على مقاطعتهم مقاطعة تامة وعامة.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٨ ؛ النجدي، مختصر سيرة الرسول، ص ١٠٦.

هـذا الـسـلاح الجـديـد الـذي لجـأت إليـه قـريـش هـو المقـاطعـة لبني هـاشـم وبني عبدالمطلب، فكتبوا كتاباً «صحيفة» يتعاقدون فيه على ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ور يجالسوهم، ولا يخالطونهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وسجلوا هذه القرارت في صحيفة ختمت بأختام ، وعلقت في جوف الكعبة المشرفة، تأكيداً لاحترامها، فيكون الخروج عليها، أو عدم الوفاء بما فيها بمثابة الخروج عن العقيدة الموروثة.

وقفت بنو هاشم وبنو عبد المطلب - مسلمهم وكافرهم - في هذه المحنة صفاً واحداً مع رسول الله ﷺ، وانضم أبو لهب إلى قريش في حصارهم لقومه.

انحاز بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى شعب أبي طالب شرق مكة المكرمة سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم، وظلوا مقاطعين ثلاث سنين يعانون الحرمان حتى بلغ بهم من سوء حالهم أن أكلوا أوراق الأشجار، والجلود، ومُنع التجار من مبايعتهم، فجهد القوم جهداً شديدا، وواصلوا الضر والفاقة، حتى سمعت أصوات النساء والصبيان يتضورون من الجوع، وقد خفف عن الرسول ﷺ وصحبه قسوة المقاطعة أنها لم تنفذ على الأشهر الحرم، ثم إنه كانت تصلهم في بعض الأوقات مساعدات سرية كالتي كان يقوم بها حكيم بن حزام ابن أخي السيدة خديجة - رضي الله عنها - إذ كان يحمل إليها الطعام في ظلام الليل.

تاسعاً: نقض الصحيفة وفك الحصار (١)

أحس بعض رجال قريش بمدى الجرم الذي يرتكبونه ضد بني عمومتهم، فسعوا إلى نقض تلك الصحيفة الظالمة دون أن يبالوا باعتراض المعترضين، وكان على رأس هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث الذي نجح في إقناع أربعة من وجهاء قريش بوجهة نظره وهم : زهير بن أمية المخزومي، والمطعم بن عدي، وأبو البحتري العاص بن هاشم، وزمعة بن الأسود، واتفق هؤلاء الخمسة على رفع الصحيفة من جوف الكعبة المشرفة وتمزيقها، وعندما توجهوا لتنفيذ قرارهم، وقف دونهم أبو جهل ففاجاءهم إجماعهم على هذا الأمر، وإصرارهم عليه، وكاد نزاع يقع لولا أن أبا جهل خاف من العاقبة، ثم تقدم المطعم بن عدي فوجد الأرضة قد أكلتها

---

(١) صحيح البخاري، باب نزول النبي بمكة، ج١، ص ٢١٦ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٣٧٤ - ٣٨٢ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٤٤ - ٤٥ ؛

إلا عبارة «باسمك اللهم»، وكانت قريش تفتح بها ما تكتب، وكان النبي ﷺ قد أخبر بذلك أبا طالب بأن الله سلط الأرضة - وهي النمل الأبيض - على الصحيفة فأكلتها إلا باسمك اللهم فلما ذهب القوم لنقض الصحيفة وجدوها كما أخبر النبي ﷺ، وكان ذلك آية من آيات الله رآها المشركون بأعينهم، لكنهم ما زالوا مسترسلين في غيهم وكفرهم، وبذلك انتهى هذا الحصار الأثيم الذي كان قمة ما انتهت إليه قريش في مقاومة الإسلام، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب خروجاً عزيزاً متمسكين بدعوة الدين الجديد ملتفين حول الرسول ﷺ، وشعروا معه بأن الله يؤازره وحزبه، ويخذل قريشاً وباطلها، وبذلك انتهت المقاطعة في السنة التاسعة من البعثة بعد مضي ثلاث سنوات وهذا ما أكده معظم مؤرخي السيرة.

عاشراً: عام الحزن وفاة أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنها[1]

كانت وفاة أبي طالب عم الرسول ﷺ في آخر السنة العاشرة من البعثة، وقد كان أبو طالب أشد الناس دفاعاً عن الرسول ﷺ، وقد صبر طويلاً على مناصرته، ووقف حياته على تأييده وحمايته بكل ما يستطيع، ولكنه مات على دين آبائه ؛ لأن نفسه لم تطاوعه على اعتناق الإسلام، وفراق دين آبائه، وكان النبي ﷺ يحب أن يسلم عمه لأنه هو الذي كفله، وذاد عنه إلى آخر لحظة من حياته، ولما اشتد مرضه جاءه زعماء قريش من المشركين وحرضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدخول في الإسلام قائلين : أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام قائلاً : « قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة»، فقال أبو طالب : يا ابن أخي، لولا مخافة المسبة وأن تظن قريش إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص: ٥٦)، ومات أبو طالب كافراً وقد قارب الثمانين من عمره.

ثم توفيت السيدة خديجة - رضي الله عنها - بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام، وقيل أكثر من ذلك، في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها خمس وستون سنة، وكان مقامها مع الرسول ﷺ بعدما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر.

---

(١) صحيح البخاري، فتح الباري، ج٧، ص ١٩٤ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤١٥ - ٤١٨ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٦٣.

كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - عوناً صادقاً للرسول ﷺ في كل مراحل حياته منذ زواجها منه حتى وفاتها، وهي أول من آمن بدعوة الرسول ﷺ من النساء، فقد أذهبت مخاوفه أول ما جاءه الوحي، وبددت حيرته حين ذهبت به إلى ورقة بن نوفل الذي بشره بأن ما يأتيه هو ملك الوحي الذي كان يأتي الرسل من قبله، فهونت عليه كل شدة، ودفعت عنه الكثير من الأذى لما لها من الجاه والمكانة في عشيرتها بني أسد، قال عنها الرسول ﷺ : « آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمت ولد غيرها»، وروي في فضائلها أن جبريل - عليه السلام - أتى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

وبوفاة أبي طالب التي أعقبتها وفاة السيدة خديجة - رضي الله عنها - تضاعف الأسى والحزن على رسول الله ﷺ بفقد هذين النصيرين الحبيبين اللذين كانا دعامتين كبيرتين من دعائم سير الدعوة في أزماتها، فكان أبو طالب السند الخارجي الذي يدفع عنه القوم والأذى، وكانت خديجة - رضي الله عنها - الدعم الداخلي الذي يخفف عنه الأزمات والمحن.

الفصل الرابع

تطور الدعوة في مكة المكرمة
منذ وفاة أبي طالب
والسيدة خديجة - رضي اللّٰه عنها -
حتى الهجرة إلى يثرب

تطور الدعوة في مكة المكرمة منذ وفاة أبي طالب والسيدة خديجة - رضي الله عنها - حتى الهجرة إلى يثرب

أولاً: أهم الأحداث بعد وفاة عمه أبو طالب

تعد السنوات الثلاث التي تلت وفاة أبي طالب والسيدة خديجة - رضي الله عنها - من أكثر السنوات حسماً في تاريخ الدعوة الإسلامية بمكة المكرمة، وقد توجت هذه السنوات الثلاث بهجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى المدينة المنورة، وكان من أهم الأحداث خلال تلك السنوات الثلاث :

- **خروج النبي ﷺ إلى الطائف.**
- **الإسراء والمعراج.**
- **عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب.**

١ - خروج الرسول ﷺ إلى الطائف[1]

فكر الرسول ﷺ في التوجه إلى مكان جديد لعله يجد فيه آذاناً صاغية لدعوته ؛ فخرج إلى الطائف وهي تلو مكة المكرمة في الأهمية، واتساع العمران، وكانت مستقر عبادة اللات وكانت تضارع مكة المكرمة في عبادة الأوثان.

وصل الرسول ﷺ إلى الطائف لثلاث بقين من شوال سنة عشر من البعثة، ومعه مولاه زيد بن حارثة، يلتمس من ثقيف النصرة، فعمد إلى جماعة من أشراف ثقيف، ودعاهم إلى الله، ولكنه لم يلق منهم إلا الإعراض والإهانة، ولم يجد إلى دعوته أحداً ؛ بل أغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونه، ويقذفونه بالحجارة، وكان زيد بن حارثة - رضي الله عنه - يحاول الدفاع عن الرسول ﷺ حتى شج رأسه، وأصيب الرسول ﷺ في رجليه، فسالت منه الدماء، واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، حيث جلس في ظل نخلة يلتمس الراحة والأمن وكان ما لقيه في الطائف أشد مما لقيه من المشركين بمكة المكرمة، وفاض قلبه ولسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعف قوته، وقلة حيلته، واستعان بالله سبحانه وتعالى أن ينصره ويؤيده.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٤١٨ - ٤٢١ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٦٣ - ٦٤.

فلما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما لقي رسول الله ﷺ تحركت فيهما نخوة الكرم والشهامة، فأرسلا إليه غلاماً لهما نصرانياً يقال له : (عدّاس)، فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب، وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله يده، قال : باسم الله، فنظر عداس إلى وجهه، ثم قال : والله إن هذا كلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له النبي ﷺ : من أي البلاد أنت؟ قال : أنا نصراني من نينوى، فقال رسول الله ﷺ : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له : وما يدريك ما يونس؟ قال رسول الله ﷺ : ذلك أخي كان نبيًا، وأنا نبي، فأكب عداس على قدمي رسول الله ﷺ يقبلهما، ولما رجع عداس إلى ابني ربيعة، قالا : ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس ذلك الرجل؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض من هو خير من هذا الرجل.

بعد هذه التجربة القاسية التي تعرض لها رسول الله ﷺ بالطائف رجع بصحبة مولاه زيد بن حارثة - رضي الله عنه - إلى مكة المكرمة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، ومن هنا لم يتمكن محمد ﷺ من دخولها إلا بعد ما أجاره المطعم بن عدي أحد أشراف مكة المكرمة، فقد تسلح هو وبنوه وبنو أخيه، ودخلوا مع الرسول ﷺ إلى الحرم حيث طاف وصلى، ثم انصرف إلى منزله في حراسة المطعم وأولاده، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة عشر من البعثة.

٢ - الإسراء والمعراج(١)

في تلك الظروف حدث حادث الإسراء والمعراج، ويقصد بالإسراء : الرحلة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بالقدس، ويقصد بالمعراج : ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع في طبقات السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق، ولا يعرف كنهه أحد، ثم الأوبة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة.

واختلف علماء السيرة في وقت الإسراء والرأي الأرجح أنه قبل الهجرة بسنة في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب، كما ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح، والأقلون قالوا : إنه ما أسري إلا بروحه.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٢١ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢١٠- ٢١١ .

وعندما أذاع الرسول ﷺ حديث الإسراء والمعراج في مكة المكرمة كان لذلك صدى عميق في نفوس من سمعوه سواءً كانوا مشركين أم مسلمين، أما المشركون فقد أنكروا إنكاراً تاماً هذه الحادثة ويذكر المؤرخون أن أبا جهل حين سمع بحديث الإسراء والمعراج من الرسول ﷺ قال له: «أرأيت إن دعوت لك قومك لتخبرهم، أتخبرهم بما أخبرتني به»، فقص عليهم الرسول ﷺ خبر ما رأى، وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة، وصلى فيه، فأعظم القرشيون ذلك الإسراء، وصار بعضهم يصفق، وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً، فلو كان الإسراء رؤيا منامية لما كانت مستغربة، ولما أحدثت تلك الضجة، وقام الكفار يمتحنونه، فسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، ولم يكن رآه قبل ذلك، فجلاه الله له حتى عاينه، فأخذ يخبرهم عن آياته يصفه لهم باباً باباً، وموضعاً موضعاً فلم يستطيعوا أن يردوا عليه، وسألوه عن عير لهم قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ووقت قدومها، وعن البعير الذي يتقدمها، وكان الأمر كما قال ﷺ.

وأما المسلمون فيتضح موقفهم من خلال الرواية التالية التي تحدثنا عن موقف أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – فقد ذهب إليه الناس يخبرونه أن محمدًا ﷺ يقول: إنه أسري به إلى المسجد الأقصى وعرج به هناك، فقال أبوبكر: إنكم تكذبون عليه! فقالوا: والله إنه ليقوله، فقال: والله إن كان قاله فقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتينه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا بعض مما تعجبون منه، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك لقب بالصديق – رضي الله عنه.

٣ - عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب[(١)]

كان المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ بعد ما حل به من الإرهاق والأذى الشديد من أهل مكة المكرمة وثقيف، فهم لم يسكتوا لحظة واحدة عن الوقوف في سبيل نشر الدعوة، ولم تهن عزائمهم في الكيد والصد له، فراح الرسول ﷺ يعرض نفسه في المواسم:

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٢٢ – ٤٢٧ ؛ ابن سعد الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢١٣ – ٢١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ١٤٠؛ السمعاني، أبو سعيد عبدالكريم بن محمد، الأنساب، تحقيق عبدالرحمن المعلمي اليماني، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ج١، ص ٣٦؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ١٥١ – ١٥٢.

مواسم الحج ، وأيام أسواق العرب على قبائل العرب ينتظرهم على أبواب الطرق الموصلة إلى مكة المكرمة يدعوهم إلى دين الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به، وكان يقول لهم : من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي؟ وكان من تلك القبائل بنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم وغيرهم، فلم يستجب منهم أحد، ولكنهم اختلفوا في أساليب ردودهم، فمنهم من رد عليه رداً جميلاً، ومنهم من رد عليه رداً قبيحاً، ومنهم من اشترط لنفسه أن تكون له الرئاسة بعده، فقد قال رجل من بني عامر للرسول ﷺ : «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ » فقال له الرسول ﷺ : « الأمر لله يضعه حيث يشاء »، فانصرفوا عنه وأعرضوا عما عرض عليهم.

ومما زاد المهمة تعقيداً أمام الرسول ﷺ أن مشركي قريش كانوا يحاولون الوقوف في وجهه، وصد الناس عنه وهو يبلغ دعوته في المواسم، وكان أبولهب لا يتركه، ولم يدع القبائل تسمع له ؛ بل كان يتبعه أين ذهب، ويحرض الناس على الإعراض عنه وهو يقول : « إن هذا قد غوى فلا يغرينكم عن آلهة آبائكم»، وكان رسول الله ﷺ يفر منه، وهو على إثره، وكان من أساليب الرسول ﷺ للرد على مكايد أبي جهل وأبي لهب والمشركين أثناء دعوته القبائل مقابلة القبائل في الليل حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أعداء الدعوة، ومن أساليبه أيضاً ذهابه عليه أفضل الصلاة والسلام إلى منازل بعض القبائل يدعوهم إلى دعوته، والتصديق برسالته وبهذا الأسلوب يستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطريقة المناسبة دون علم قريش، على أن هذا كله لم يزد الرسول ﷺ إلا إصراراً على المضي في طريق تبليغ رسالته.

ثانياً: بدء إسلام أهل يثرب (1)

الأوس والخزرج قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب، وقد لقبهم النبي ﷺ بالأنصار لما هاجر إليهم، ومنعوه ونصروه، وكان هؤلاء يسمعون من حلفائهم يهود

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص ٤٢٧ - ٤٣٠ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ؛ شلبي، التاريخ الإسلامي، ص ٢٠٤ ؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ١٥٤.

المدينة المنورة بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير أن نبياً سيبعث ويتوعدونهم به إذا حاربوهم، فلما قدموا لزيارة البيت الحرام في السنة الحادية عشر من البعثة رأوا الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الله فلاحظوا إمارات الصدق لائحة عليه، قال بعضهم لبعض: والله هذا الذي توعدكم اليهود به، فلا يسبقونكم إليه، وكان اليهود في المدينة المنورة يفتخرون بدينهم عن العرب الوثنيين من قبيلتي الأوس والخزرج، وكان العرب يتطلعون إلى التخلص من فخر اليهود عليهم.

تجمع المصادر التاريخية على أن موسم الحج في السنة الحادية عشر من البعثة لقي النبي ﷺ ستة رجال من الخزرج فعرض عليهم الإسلام، وتيقنوا أنه النبي الذي يتحدث اليهود عن قرب ظهوره، ورأوا أن يسارعوا إلى تصديقه، فشرح الله صدورهم للإسلام، وأسلموا وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم في العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم لك وسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، ولما قدموا على قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، فلم يبقَ دار من دور يثرب إلا وفيها ذكر لمحمد ﷺ، وذلك بفضل استعداد أهل يثرب لقبول الدعوة الإسلامية.

ولا شك أن مبادرة هؤلاء الممثلين للأوس والخزرج إلى اعتناق الإسلام والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، والوقوف بجانبه يعود إلى عدة أسباب من أهمها:

- كان أهل يثرب أكثر العرب تقبلاً للإسلام كدين سماوي يدعو إلى التوحيد لمجاورتهم اليهود وسماعهم منهم الكثير عن الله وأنبيائه واليوم الآخر والجنة والنار، فلم تكن مفاهيم الإسلام غريبة عنهم، فكانوا لذلك أسرع استجابة له من غيرهم من قبائل العرب.
- ومن الناحية السياسية كانت علاقةِ اليهود بعرب يثرب سيئة حتى أن هؤلاء العرب صمموا قبل هجرة النبي ﷺ إلى يثرب على إجلاء اليهود عنها، واحتلال أراضيهم التي كانت أخصب بقاع يثرب، كما كان اليهود يهددون أهل يثرب بقرب ظهور نبي تتحدث عنه كتبهم وأنهم سيتبعونه، وسيقاتلونهم معه، وهكذا أسرع عرب يثرب إلى اعتناق الإسلام ليكتسبوا بإسلامهم عزاً وسلطاناً في وجه من يتحداهم من اليهود.

ثالثاً: بيعة العقبة الأولى[1]

بعد مضي عام على لقاء الرجال الستة من الخزرج بالرسول ﷺ واستجابتهم لدعوته، وفي موسم الحج من السنة الثانية عشرة من البعثة قدم إلى مكة المكرمة اثنا عشر رجلاً من الأنصار، ولقوا النبي ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه البيعة التي اشتهرت باسم « بيعة العقبة الأولى» كما عرفت أيضاً بـ «بيعة النساء»، والملاحظ أن اللقاء السابق - وهو الذي تم في العام الحادي عشر من البعثة لم تحدث فيه بيعة، وإنما ترتب عليه إسلام رجال الخزرج الستة، وكان بين الرجال الاثني عشر الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، ولم ينص في هذه البيعة على حرب أو قتال، ولكنها كانت بيعة على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم على عادة العرب ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، فإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب.

وبعد أن تمت البيعة بعث النبي ﷺ معهم مصعب بن عمير - رضي الله عنه - يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يسمى حينذاك بالمقرئ، وقد اختاره الرسول ﷺ للقيام بهذه المهمة عن علم بقوة شخصيته، وقوة إيمانه، وشدة حماسته للدين، وظل مصعب بن عمير - رضي الله عنه - يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، وبذلك نجحت سفارة مصعب بن عمير - رضي الله عنه - في شرح تعاليم الدين الجديد وتعليم القرآن وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة لإيجاد القاعدة الأمنية لانطلاق الدعوة.

عاد مصعب بن عمير - رضي الله عنه - إلى الرسول ﷺ بمكة المكرمة قبيل موسم الحج يخبره بما لقي الإسلام من قبول حسن في يثرب ويبشره بأن جموعاً دخلت فيه عن اقتناع.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، باب علامة الإيمان، حب الأنصار، ج١، ص ٧، باب وفود الأنصار، ج١، ص ٥٥٠ - ٥٥١ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٣١ - ٤٣٨ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢١٩؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٢، ص ٥١ .

رابعاً: بيعة العقبة الثانية[1]

في موسم الحج من السنة الثالثة عشرة من البعثة قدم من مسلمي يثرب إلى مكة المكرمة خمسة وسبعون (٦٢ من الخزرج و ١١ من الأوس) وامرأتان هما : نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ابن عدي، وكان بصحبتهم مواطنوهم من المشركين، وتم لقاؤهم مع الرسول ﷺ بالعقبة، وكان معه أبوبكر وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - وحضر معه عمه العباس بن عبدالمطلب، وكان لا يزال مشركاً، ولم يكن قد أسلم بعد ولكن أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له.

كان العباس أول من تكلم، فقال لهم : «إن رسول الله ﷺ لا يزال في عز من قومه، ومنعة في بلده، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإلا فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»، وكان جواب أهل يثرب :» قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت»، فتكلم الرسول ﷺ، فتلا بعض آيات من القرآن الكريم، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال : «تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فقال البراء بن معرور - وكان سيداً في قومه من الخزرج - : « والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أي القتال) ورثناها كابراً عن كابر»، وعندئذ تدخل أبوالهيثم بن التيهان في الحديث، وسأل الرسول ﷺ سؤالاً لا شك أنه كان يدور بخاطر بعض الأنصار حيث قال : « إن بيننا وبين الرجال حبالاً (أي عهوداً وروابط) وإنّا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟»، فتبسم الرسول ﷺ ثم قال :» بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»، ثم طلب رسول الله ﷺ منهم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً (أي أميناً وممثلاً) فاختاروهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما تم اختيارهم قال لهم رسول الله ﷺ : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي»، قالوا : « نعم»، وبسطوا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٣٨ - ٤٤٤ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٦٨ - ٧٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٦٠ - ٣٦٥ ؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ١٩٨ - ٢٠١.

أيديهم إلى يد رسول الله ﷺ فبايعوه، وقد سميت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية أو بيعة العقبة الكبرى، ويطلق عليها أحيانا بيعة الحرب، وعقب هذا الحلف أصبح النبي ﷺ أحد أعضاء المجتمع في يثرب له ما لأفراد هذا المجتمع من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات، كما أن هذه البيعة كانت مقدمة لانتشار الإسلام في جميع بيوت يثرب أولاً ولهجرة المسلمين ورسولهم واتخاذ يثرب قاعدة للإسلام ثانيا.

خامساً: الهجرة إلى يثرب وموقف قريش منها(١)

لما رجع الأوس والخزرج من مكة المكرمة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الثانية اطمأن الرسول ﷺ إلى قوة المسلمين في يثرب، وازدياد أعوانه وأنصاره فيها، وأنها أصبحت مكاناً مناسباً طيباً يأمن فيه المسلمون على أنفسهم من أذى المعتدين لذا أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، ليجعل منها قاعدة قوية للإسلام، وقلعة منيعة تنطلق منها الدعوة إلى قبائل العرب، وأطراف الأرض.

لقد أدركت قريش خطورة الموقف بعد أن رأت مسلمي مكة المكرمة يلحقون تباعاً بإخوانهم من أهل يثرب، إن ذلك يعني لديهم أن تصبح يثرب حصناً حصيناً للإسلام بمن أسلم من أهلها وبمن انضم إليهم من مسلمي مكة المكرمة، وكان أكثر ما يفزع قريشاً أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه بيثرب.

ولما تضاعف أذى وظلم قريش للمسلمين بمكة المكرمة طلب الرسول ﷺ من المسلمين في مكة المكرمة اللحاق بإخوانهم من الأنصار وقال: « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»، فاستجاب المسلمون إلى طلبه وهاجروا إلى يثرب جماعات وأفراداً بطرق سرية في أغلب الأحيان خوفاً من كفار قريش الذين عملوا كل ما في وسعهم للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى يثرب واتبعت في ذلك عدة أساليب منها:

١ - **أسلوب التفريق بين الرجل وزوجته وولده**: هذا ما حدث لأبي سلمة المخزومي - رضي الله عنه - عندما أجمع على الخروج مع زوجته وابنه فمنعوه أن يأخذ زوجته وولده ثم وافقوا على لحاق زوجته به بعد عام.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٦٨ - ٤٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٦٨ - ١٧٠ ؛ الشامي، صالح أحمد، السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١١٨ ؛ هيكل ٢٢١.

٢ - **أسلوب التجريد وسلب المال** وذلك ما حدث لصهيب بن سنان النمري، والذي كان يريد الهجرة إلى يثرب فقبض عليه كفار قريش، وقالوا له : أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن تركت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا : نعم، قال : فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب، ربح صهيب.

٣ - **أسلوب الحبس والسجن** لمنعهم من الهجرة، فكان كل من يقبض عليه وهو يحاول الهجرة إلى يثرب تقوم بسجنه وحبسه داخل أحد البيوت، فتوضع يده ورجله في القيد، وفي بعض الأحيان يكون الحبس داخل حائط بدون سقف وذلك زيادة في التعذيب إذ تضاف إلى وحشة الحبس حرارة الشمس وسط بيئة شديدة الحرارة مثل مكة المكرمة.

حقيقة إن أساليب قريش المتنوعة تجاه المسلمين ومحاولاتها المتعددة لمنعهم من الهجرة إلى يثرب لم تمنع المسلمين من الخروج والهجرة إلى يثرب، حتى إن المحبوسين منهم نجحوا فيما بعد من التمكن من الخروج من سجنهم، واستقروا بيثرب.

الفصل الخامس

هجرة النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى يثرب وبناء المجتمع الإسلامي

الفصل الخامس هجرة النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى يثرب وبناء المجتمع الإسلامي

أولاً : تآمر قريش على قتل الرسول - ﷺ - وفشل خطتهم[1]

بعد فشل قريش في منع الصحابة - رضوان الله عليهم - من الهجرة إلى يثرب على الرغم من أساليبهم المختلفة أدركوا خطورة موقفهم، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية وكيانهم الاجتماعي القائم بين كل قبائل العرب وخاصة القرشيين، وأن محمداً ﷺ قد أصبح له أنصار في يثرب، ولا سلطان لهم عليها، وأنه عليه أفضل الصلاة والسلام يعزم على اللحاق بأتباعه من المهاجرين إلى يثرب، فتشاور القرشيون في دار الندوة فيما يصنعون في أمره حتى يحولوا بينه وبين الهجرة، وطال نقاش الحاضرين، واختلفت آراؤهم، فمنهم من قال : نخرجه من أرضنا وننفيه إلى مكان بعيد كي نستريح منه، فرفضوا هذا الرأي.

ومنهم من رأى أن يقيد الرسول ﷺ، ويحبس حتى يأتيه أجله، ولكن هذا الرأي لم يلق استحساناً، ثم جاء اقتراح أبي جهل عمرو بن هشام والذي لقي قبولاً واستحسان الجميع قال أبو جهل : « أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، ولا تقدر بنو هاشم على أن تأخذ ثأره، فيرضون بالدية فيقبلونها منهم، وقد وقع هذا الرأي في نفوس المجتمعين من قبائل قريش موضع الرضا والقبول، ووافقوا عليه، وتهيؤوا للإسراع في تنفيذه.

وهكذا نجد اسم أبي جهل يتردد في كل مؤامرة وأذى ضد النبي ﷺ، حيث كان لا عمل له غير ذلك.

كان الرسول ﷺ حينذاك ينتظر إذن الله له بالهجرة إلى يثرب، بعد أن هاجر المسلمون من مكة المكرمة إلى هناك، أطلع الله عز وجل نبيه محمد ﷺ على كيد المشركين له، وأذن له بالهجرة، وحدد له وقت الخروج، وبين له خطة الرد على مكر

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٨٠ - ٤٨٢ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٢ ؛ الطلابي، السيرة النبوية، ص ٢٦٢، ٢٧٥ -٢٧٦ ؛ إبراهيم علي، في السيرة النبوية، ص ١٣٢ - ١٣٥.

قريش، فقال : « لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه»، فذهب الرسول ﷺ إلى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وأخبره أن الله أذن له بالهجرة، فسأله أبو بكر أن يكون صاحباً له، فقال له : نعم، فبكى أبو بكر – رضي الله عنه – من شدة الفرح، وراح يعد راحلتين لهما، كما استأجر دليلاً ماهراً، وكان مشركاً، وخبيراً بطرق الصحراء اسمه عبدالله بن أريقط، وعلى الرغم من أن ابن أريقط كان كافراً، إلا أنهما وثقا في أمانته، وإخلاصه، فواعداه أن يقابلهما في غار ثور بعد ثلاث ليال.

عاد الرسول ﷺ بعد اتفاقه مع أبي بكر – رضي الله عنه – في طريقة وكيفية خروجهما ومغادرتهما من مكة المكرمة إلى يثرب خفية من عيون قريش، واتفقا أن يكون اللقاء بعد منتصف الليل خارج مكة المكرمة، وكانت هذه الليلة ليلة التنفيذ لدى قريش لقتل محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي منتصف الليل اجتمع المتآمرون أمام دار الرسول ﷺ يرقبونه حتى ينام، فإذا فعل انقضوا عليه، وقد اطلع الله سبحانه وتعالى نبيه على كيد المشؤكين فطلب من ابن عمه علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أن ينام على فراشه، وأن يتغطى ببردته كعادته، وكانت مهمة علي – رضي الله عنه – التمويه عن رسول الله ﷺ ليلاً، وتأدية الودائع التي عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها، وكان المشركون إذا نظروا من ثقب باب الرسول ﷺ وجدوا شخصاً «شيخاً» نائماً وعليه بردة الرسول ﷺ فيعتقدون أنه محمد فيطمئنوا، ثم خرج النبي ﷺ من منزله، والمتآمرون جالسون ينتظرون خروجه، فأعماهم الله عنه، وأخذ عليه الصلاة والسلام حفنة من تراب البطحاء في يده وجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ٩).

وهكذا أغشى الله أعين المتآمرين، ولم يروا الرسول ﷺ، فأتاهم رجل لم يكن معهم، فسألهم عمَّ ينتظرون، فقالوا : محمداً، قال : قبحكم الله، لقد خرج محمد، وانطلق لحاجته، فأسرعوا، ونظروا من ثقوب الباب، فرؤوا النائم مكانه، فلم ينصرفوا، ولم يشكوا في أنه رسول الله ﷺ، فلما أصبحوا قام علي – رضي الله عنه – عن الفراش فلما رأوه سألوه عن محمد، فقال : لا أدري، فانطلقوا مسرعين، وفي كل جهة يبحثون عن رسول الله ﷺ.

ثانياً : خروج الرسول ﷺ، ووصوله إلى غار ثور [(١)]

خرج النبي ﷺ، ومعه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – من خوخة « فتحة» في ظهر بيت أبي بكر – رضي الله عنه – وسارا حتى وصلا غاراً بجبل ثور بالقرب من مكة المكرمة، ومكثا في ذلك الغار ثلاث ليال.

وكان من حسن التخطيط أن كلف أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – ثلاثة من أهل بيته للقيام ببعض المهام والأدوار خلال إقامته مع النبي ﷺ في الغار، فكانت مهمة عبدالله بن أبي بكر – رضي الله عنهما – أن يسمع ما يقوله المشركون عنهما في أثناء النهار، ثم يأتيهما بما سمع ليلاً حتى يتصرفا في ضوء ذلك، وكان من حسن التخطيط أيضاً أن يبيت عبدالله معهما في الليل يرعى شؤونهما ويحدثهما عن أخبار قريش، ثم يخرج من عندهما في السحر، فيصبح في مكة المكرمة، وكأنه قد بات بها يتسمع الأخبار، حتى إذا حل الظلام عاد إليهما.

وكانت مهمة أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – أن تأتيهما بالطعام إذا أمست، ويروى أنها جاءتهما في اليوم الثالث – وهو اليوم المحدد لسفرهما – بطعامها على جراب، ولكنها لم تجد ما تعلق به هذا الجراب في رحالهما، فحلت نطاقها – وهو حزام الوسط – فشقته اثنين، فربطت الجراب وعلقته بواحد، وانطلقت بالآخر، فلذلك سميت ذات النطاقين، أما عامر بن فهيرة – مولى أبي بكر – رضي الله عنهما – فقد كانت مهمته أن يرعى غنم مولاه أبي بكر – رضي الله عنه – بين أهل مكة المكرمة نهاراً، ثم يريح الأغنام في المساء عند الغار فيسقيهما من لبنها، ثم يغدو بها قبيل النهار، فيمحو آثار أقدام عبدالله وأسماء – رضي الله عنهما – في طريقهما من وإلى الغار.

أما كفار قريش فإنهم لما علموا بخروج النبي ﷺ، وأبي بكر – رضي الله عنه – استجوبوا علياً – رضي الله عنه – فلم يصلوا إلى شيء، واستجوبوا أسماء – رضي الله عنها – فلم يخرجوا بطائل، ولجؤوا إلى من يقص الأثر، ووصلوا إلى الغار حيث انقطع الأثر، ويجزع أبو بكر – رضي الله عنه – ويهمس للنبي ﷺ : « لو أن أحدهم نظر تحت

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٣ ؛ أبو زهرة،محمد، خاتم النبيين،دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ج١، ص ٦٥٩.

قدمه لرآنا «، لكن محمداً ﷺ قد بذل كل ما يقدر عليه من أسباب للنجاة وهو الآن في قمة التوكل فيقول :» ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، فتأتي حماية الله لهما بالعنكبوت، وصرف أذهانهم عن تفتيش الغار، وصدتهم خيوط العنكبوت عن هدفهم، وساورهم الشك في أن يكون محمد ﷺ وصاحبه قد لجآ إلى ذلك الغار، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم ويتساءلون، وكان على مقربة من الغار راعٍ، فلما رآه المشركون سألوه : هل رأيت محمداً وأبا بكر؟ وهل تعرف أين ذهبا ؟ فأجابً الراعي : قد يكونا بالغار، وإن لم أرَ أحداً، ثم تقدم واحد منهم نحو الغار، ودار حوله، فلم يلبث أن عاد أدراجه، وسأله أصحابه : ماذا رأيت بالغار؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ﷺ، فاعتقد المشركون أن الغار مهجورٌ، ورجعوا خائبين.

ثالثاً :وصول الرسول ﷺ وصاحبه إلى يثرب واستقبال الأنصار لهما (١)

مرت ثلاث ليالٍ على مبيت النبي ﷺ، وصاحبه في الغار، وخمد حماس المشركين، وفترت هممهم فيٍ طلبهما، وكان النبي ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - قد اتفقا مع دليلهما عبدالله بن أريقط على أن يأتي إلى غار ثور صبيحة اليوم الثالث من دخولهما في الغار، ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبو بكر، وفي الساعة المتفق عليها، انطلق الرسول ﷺ، وأبو بكر، ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وذلك بهدف خدمتهما، وقد آثر الدليل أن يسلك بهما طرقاً غير مألوفة بالقرب من ساحل البحر الأحمر، ولم يأخذ طريق يثرب مباشرة حتى يضلل الأعداء.

لما استنفذت قريش وسائل البحث عن رسول الله ﷺ جعلت لمن يأتي بمحمد ﷺ حياً أو ميتاً مائة من الإبل، ونادوا في ذلك من أسفل مكة المكرمة وأعلاها.

أغرت هذه المكافأة سراقة بن مالك بن جعثم المدلجي، فلحق بركب الرسول ﷺ، فرآه أبو بكر - رضي الله عنه - فقال : «يا رسول الله أدركنا الطلب، فقال له الرسول ﷺ : «لا تحزن إن الله معنا»، فدعا عليه الرسول ﷺ فغاصت يدا فرسه في الأرض، فأدرك سراقة أن ما حدث له كان بسبب ذلك الدعاء، فسأل

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٨٦ - ٤٩٩؛ البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص ٥٥٤ - ٥٥٦ ؛ العسقلاني، محمد بن عبدالشافي الزرقاني، شرح المواهب، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص ٤٠٥.

رسول الله ﷺ أن يدعو الله ليخلِّصه، وسوف يرد الناس عنه، فدعا له، وخلصت يدا الفرس، فلما قرب من الرسول ﷺ قال له: «يا رسول الله خذ سهماً من كنانتي، وإن إبلي بمكان كذا فخذ منها ما أحببت، فقال الرسول ﷺ: «لا حاجة لي في إبلك»، فعاد سراقة، وكان لا يلقاه أحد يريد طلب الرسول ﷺ إلا قال له: كفيتم ما ها هنا، ولا يلقى أحداً إلا رده، وهكذا تغيرت حال سراقة بن مالك من باحث عن الرسول ﷺ ليسلمه إلى المشركين طمعاً في المال إلى مغرر بأولئك المشركين وفاءً بما تعهد به، وكانت محاولة سراقة بن مالك نهاية المحاولات التي بذلتها قريش في سبيل إحباط هجرة الرسول ﷺ، وبعد فشل هذه المحاولة أصبح الطريق أمام الرسول ﷺ آمناً إلى يثرب.

مر الرسول ﷺ وصاحبه بخيمة أم معبد الخزاعية رضي الله عنها، وكانت بالمشلك في ناحية قديد على بعد نحو ١٣٠ كيلو متراً من مكة المكرمة، فسألوها طعاماً أو شراباً، فلم يصيبوا عندها شيئاً، وكانت في جانب الخيمة شاة هزيلة خلفتها الغنم لهزالها، ولم يكن فيها قطرة من لبن فاستأذن رسول الله ﷺ أم معبد ليحلبها، فلما حلبها درت باللبن حتى امتلأ منه إناء كبير فسقاه أم معبد حتى رويت، ثم سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، ثم حلب منه ثانياً حتى ملأ الإناء، وتركه عندها، وارتحلوا، فلما جاء زوجها تعجب عندما رأى اللبن، وسألها عنه، فأخبرته الخبر، ووصفت النبي ﷺ وصفاً دقيقاً، فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من البعثة وصل الرسول ﷺ وصحبه إلى قباء، وهي قرية على بعد ميلين من جنوب المدينة المنورة وتلقاه المسلمون مبتهجين، وأخذوا يكبرون الله ويشكرونه على ما تم لهم من نعمة وصوله إليهم.

نزل رسول الله ﷺ على بيت عمرو بن عوف، وأقام عندهم أربعة أيام، وفي رواية أخرى بضع عشرة ليلة، وضع خلالها أسس مسجد قباء الذي كان أول مسجد في الإسلام، ووصفه الله عز وجل بقوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨).

كان أثناء إقامة الرسول ﷺ، وأبي بكر - رضي الله عنه - بقباء قد لحق بهما علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وذلك بعد أن أقام بمكة المكرمة ثلاثة أيام عقب هجرة الرسول ﷺ حتى يؤدي الودائع التي كانت عنده إلى أصحابها، فقد كان أهل مكة المكرمة يؤثرون أن يودعوا ما يخشون عليه من نفائس ممتلكاتهم عند رسول الله ﷺ.

واصل الرسول ﷺ وصاحبه سيرهما صوب يثرب فدخلوها في اليوم الذي غادروا فيه قباء وهو يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول، وقد أدركهم وقت صلاة الجمعة في واد يقال له : «رانوناء» فصلاها الرسول ﷺ بالمسلمين، وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بيثرب، وأول خطبة خطبها في الإسلام.

وعند وصول الرسول ﷺ إلى يثرب «المدينة المنورة» خرج أهلها لاستقباله مكبرين ومهللين ومرحبين بوصوله الميمون، وأحاطوا به عن يمين ويسار، وهم يقولون : « جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ»، فكان يوم فرح وسرور، وابتهاج، لم تر المدينة المنورة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، وارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأوس والخزرج «الأنصار» بغاية الفرح والسرور :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحباً يا خير داع

وكانت تلك لحظات خالدة في تاريخ يثرب، ويوماً عظيماً في تاريخ الإسلام، شعر فيه أهل يثرب «المدينة المنورة» بالفضل الذي حباهم الله به وبالشرف الذي اختصهم به، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين - رضي الله عنهم.

كان النبي ﷺ كلما مر على دار من دور أهل يثرب « المدينة المنورة» عرض عليه أهلها النزول عندهم، وأخذوا خطام راحلته قائلين له : هلم إلى القوة والمنعة والسلاح، فكان يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت على باب مربد لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل أبناء عمرو بن النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ هاهنا المنزل إن شاء الله، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في منزله.

وهكذا كان وصول النبي ﷺ إلى يثرب «المدينة المنورة» مهاجراً إلى الله، واستقر عليه أفضل الصلاة والسلام في يثرب «المدينة المنورة »، وسميت يثرب بالمدينة المنورة، وسمي المسلمون من أهلها بالأنصار، كما سمي القادمون إليها بالمهاجرين، واتخذ الرسول ﷺ من المدينة المنورة مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية.

رابعاً: مجتمع يثرب قبل الهجرة (١)

يثرب هو الاسم القديم للمدينة المنورة، وكان لها شرف استقبال الرسول ﷺ والمهاجرين، وهي واحة خصبة التربة، كثيرة المياه، تحيط بها الحرات من جهاتها الأربع وكانت المنطقة الشمالية من يثرب هي الناحية الوحيدة المكشوفة وهي التي حصنها النبي ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة المنورة محاطة بأشجار النخيل والأشجار الكثيفة.

وسميت يثرب بعد الإسلام بالمدينة المنورة، مدينة رسول الله ﷺ، فمن أسمائها : يثرب، أرض الله، أرض الهجرة، آكلة البلدان، آكلة القرى، الإيمان، البارة، البررة، بيت الرسول، الحرم، حرم رسول الله، دار الأبرار، دار الأخيار، دار الهجرة، طيبة.

قبل وصول رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى يثرب كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، ومن تلك العناصر :

اليهود : كان اليهود جاليات كثيرة العدد، متعددة الفروع، منتشرة في أماكن كثيرة من منطقة يثرب، والطريق المؤدي إلى الشام، وكانت في المدينة المنورة ثلاث قبائل من اليهود بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين وهي : بنوقينقاع - بنو النضير - بنوقريظة.

لم تتفق النظريات وآراء المؤرخين حول أصل يهود يثرب «المدينة المنورة» والمكان الذي هاجروا منه، والزمان الذي قدموا فيه، ولعل أقوى تلك الآراء تميل إلى أن بداية قدومهم من

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة، ص ٢٨٨ - ٢٩٢؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج٢، ص ٤٦٧، ٥٠٣، ٤٠٥ ؛ ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ج٣، ص ٢٨٠ ؛ السمهودي، نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج١، ص ٨ - ٢٨.

الشام كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، بعد أن نجح الرومان في السيطرة على الشام ومصر في القرن الأول قبل الميلاد، وعلى اليهود ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد، مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه جزيرة العرب التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان، لكن ما جاء في المصادر المختلفة أن غالبية اليهود حلوا بالجزيرة العربية بصفة عامة، ومدينة يثرب بصفة خاصة في القرن الأول الميلادي بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م، والتي انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتيت اليهود في أصقاع العالم، فدخلت جموع كبيرة من اليهود في بلاد العرب.

سكن اليهود الجهات الخصبة الغنية من مدينة يثرب، فقد أقام بنو النضير بالعوالي في الجنوب الشرقي لمدينة يثرب، وأقام بنو قريظة إلى شمالهم، أما بنو قينقاع فقد أقاموا عند منتهى جسر وادي بطحان، وتختلف الروايات التاريخية حول بني قينقاع في كونهم عرباً فتهودوا، أو أنهم نزحوا مع النازحين إلى الحجاز، وهذا الاختلاف يسري على البطون الأخرى من اليهود والتي كانت منتشرة في أماكن أخرى متعددة من المناطق الغنية من يثرب، كبني هلال وغيرهم.

كان اليهود يتحكمون في يثرب سياسياً واقتصادياً قبل قدوم الرسول ﷺ إليها مستغلين أوضاعهم المالية، فصاروا يتحكمون في الأسواق ويحتكرونها لمصلحتهم، فكرههم السواد الأعظم من الناس بسبب أنانيتهم في أخذ الربا، وحصولهم على الغنى والثراء بطرق ملتوية يأنف العربي على سلوكها والتعامل بها.

خضعت علاقة اليهود بالأوس والخزرج سكان يثرب العرب للمنفعة الشخصية، والمكاسب المادية، فكانوا يعملون على إثارة الحروب بين الطرفين « الأوس والخزرج»، ويعطون السلاح لكلا الطرفين فيتقاتلون بذلك السلاح، وكان اليهود يشعرون بالسعادة حين يرون هلاك الآخرين من غير دينهم، وزيادة في الكيد فقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس، وذلك ليتمكنوا من إثارة الخلاف، وإيقاد نار الفتنة والبغضاء، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي اندلعت بين الأوس والخزرج فأنهكت قوتهم.

كما كان اليهود في كثير من الأوقات يصطدمون مع سكان يثرب من الأوس والخزرج ويخسرون معاركهم معهما، وكان هؤلاء اليهود الثلاث عندما ينهزمون يقولون : لقد أظل

زمان نبي من هذه الأمة نتبعه ونحاربكم معه فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حقداً، فلعنة الله على الكافرين.

كانت لغة اليهود في بلاد العرب اللغة العربية، ولكنها لم تكن خالصة بل كانت تشوبها الرطانة العبرية، وكانوا يستعملونها أيضاً في صلواتهم ودراساتهم، كما كان هناك عدد من العرب المنتمين إلى الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل العربية الأصيلة دانوا باليهودية عن رغبة منهم، أو بتأثير المصاهرة والزواج، أو بحكم النشأة في البيئة اليهودية، فكان في يثرب عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق.

خامساً: العرب «الأوس والخزرج»(١)

تنتمي بطون الأوس والخزرج سكان يثرب العرب إلى قبيلة الأزد اليمنية الكبيرة التي خرجت من اليمن إلى الشمال متفرقة في عصور مختلفة، ربما أقدمها في حدود عام ٢٠٧م، عندما هاجرت خزاعة إلى مكة المكرمة.

انقسمت كل قبيلة من القبيلتين (الأوس والخزرج) إلى خمسة بطون كبرى، وانقسمت بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطناً، عدا من كان يجاورها من عشائر عربية أخرى، اتصلت بها برابطة الولاء.

سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية وهي منطقة العوالي من يثرب، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية وهي سافلة المدينة المنورة.

وترجع بعض المصادر العربية سبب هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب إلى أنها كانت نتيجة لهدم وانهيار سد مأرب وحدوث سيل العرم، وقد بين القرآن الكريم أنه كان عقوبة لسبأ بسبب إعراضهم عن الحق، وأنه أدى إلى تفرق سبأ في البلاد.

بينما يعزو البعض السبب إلى الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الذي نجم عن تأثير ذلك على السكان، وأخذت القبائل تهاجر كلما ضاق بها الحال، وكان الأوس والخزرج من ضمن هذه القبائل المهاجرة إلا أن هجرتها كانت متأخرة عن غيرها من بطون الأزد، وعلى هذا فإن الأوس والخزرج أحدث عهداً بالمدينة المنورة من اليهود، ويحدد البعض تاريخ هجرتهم

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ١٣ - ١٤؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج١، ص ٢١٩ - ٢٢٠؛ الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة، ص ٣٠٩ ٣١٣، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٨، ٣٤٣، ٣٨٤.

بعام ٣٠٠م، ثم سيطرتهم على يثرب في عام ٤٩٢م، ولا شك أن ثمة تحولات اقتصادية وسكانية حصلت لصالح العرب تمثلت في زيادة عددهم وثروتهم، ولا يوجد إحصاء لعدد رجال الأوس والخزرج ولكن الباحث المتتبع للحوادث يستطيع تحديد قوتهم الحربية من المعارك والحروب التي خاضوها وشاركوا فيها بعد الهجرة النبوية إلى يثرب فقد بلغ عدد المقاتلين الذين قدمتهما القبيلتان قرابة أربعة آلاف مقاتل للجيش الإسلامي الذي ذهب لفتح مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة.

لم تستمر العلاقة الطيبة بين القبيلتين مدة طويلة فقد ساءت العلاقة بينهما الأمر الذي دفع إلى الصراع والحروب بين القبيلتين، وذكر المؤرخون عدداً من تلك الحروب منها : حرب سمير، وحرب كعب بن عمرو المازني ويوم الفجار الأول والثاني، ثم حرب بعاث، التي كانت قبل الهجرة بخمس سنين حيث هزم الأوس الخزرج الذين طالما هزموهم من قبل لتفوق قوتهم عليهم حتى لجأت الأوس إلى محالفة يهود بني النضير وبني قريظة فغلبتهم في بعاث، ولكنهم فطنوا في نهاية المطاف إلى خطورة الإجهاز عليهم، وإن ذلك سيمكن اليهود من استعادة سيطرتهم على يثرب، لذلك سعوا إلى المصالحة معهم ؛ بل إن الجانبين اتفقا على ترشيح رجل من الخزرج هو عبدالله بن أبي بن سلول ليكون ملكاً عليهم، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكونه ولكن لم يتم له هذا الأمر وكان سبب ذلك مجيء النبي ﷺ إلى يثرب وقبول معظم سكانها بدعوته المباركة، وقد دفع انصراف الخزرج عن عبدالله بن أبي ابن سلول إلى حقده وكراهيته للنبي ﷺ الذي حرمه ملكاً كاد يعتليه ومع ذلك اضطر عبدالله أن يدخل في الإسلام عن نفاق وضيق.

سادساً: أسس بناء المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية بيثرب (المدينة المنورة)(١)

باستقرار النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم في المدينة المنورة بدأ النبي ﷺ يضع اللبنات الأولى لبناء الدولة الإسلامية، وتثبيت دعائم الدولة على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت **أولى خطواته** المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة، وإنشاء المؤسسة الإسلامية التي تضطلع بجميع مهام الدولة الدينية والسياسية، ولم تكن هذه المؤسسة سوى المسجد

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٣٤ - ٣٣٨ ؛ الخضري، محمد، نور اليقين، تحقيق أحمد عبداللطيف، دار العلم، دمشق، ص ٩٥

الذي كان له مهمة عظيمة، فهو مؤسسة لإقامة الشعائر الدينية، ولممارسة السلطات السياسية والعسكرية والقضائية وغيرها من شؤون الدولة المتعارف عليها.

وجاءت **الخطوة الثانية** لتؤكد رغبة الرسول ﷺ في إزالة آثار الماضي من خلاف مستحكم بين الأوس والخزرج، وضرورة التقريب بين قلوبهم، وإيجاد التآلف بين سكان المدينة المنورة من مسلمي الأوس والخزرج والمهاجرين، وجعلهم كتلة ومجموعة واحدة تقف في وجه اليهود فيما إذا أرادوا الغدر بهم، فآخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة والحب.

أما **الخطوة الثالثة** فتمثلت في إصدار الصحيفة أو الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة المنورة، وهو دستور ينظم العلاقات بين المسلمين من ناحية، وبين المسلمين واليهود والمشركين بالمدينة من ناحية أخرى، والتضامن في إعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، وكان ذلك من أبرز الجهود التي بذلها الرسول ﷺ في الإصلاح والتأسيس والبناء، وهذا ما سوف نراه في الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ في المدينة المنورة والتي كان من أهمها:

أ - بناء مسجد الرسول ﷺ وحجرات سكنه(١)

شرع رسول الله ﷺ منذ وصل إلى المدينة المنورة في بناء مسجده في المكان الذي بركت فيه ناقته، وكان هذا المكان مربداً للتمر مملوكاً لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل من بني مالك بن النجار، فدعا رسول الله ﷺ الغلامين وطلب منهما المربد ليتخذه مسجداً، وطلب منهما شراءه، فقالا : لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى النبي ﷺ أن يقبله منهما هبة، ولكنه ابتاعه منهما، وهذا يدل على حرص النبي ﷺ على أن يقام المسجد على أرض مكتسبة لهذا الغرض بطريق مشروع شراء أو كراء، وأن يكون الإنفاق عليه في سبيل الله، والله طيب لا يقبل إلا طيباً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (البقرة: ٢٦٧)، كانت مساحة الأرض التي تم شراؤها مائة ذراع في مائة ذراع تقريباً، وفيها قبور المشركين، وبعض حفر ونخل وشجر، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالحفر فسويت، وبالنخل والشجر فقطعت.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٣٤ - ٣٣٨ ؛ الطلابي، السيرة النبوية، ٣٠٧ - ٣٠٨ .

بدأ الرسول ﷺ في العمل مع أصحابه وضرب أول معول في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، واللبن الذي يعجن بالتراب، وكان سقفه من الجريد، والعمد من الجذوع، وفرشت الأرض بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وظل على بساطته تلك طوال حياته ﷺ وعهدي الخليفتين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما.

لم يكن في مسجد الرسول ﷺ منبر يخطب الناس عليه ؛ بل كان الرسول ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع نخلة ثبتت في الأرض عند مصلاه في الحائط القبلي، وقصة الجذع وحنينه إلى الرسول ﷺ معروفة مشهورة، وفي الناحية الشمالية من المسجد أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذع النخل، كانت تسمى الصفة، أما باقي أجزاء المسجد فقد تركت مكشوفة بلا غطاء، كما بنى الرسول ﷺ حول المسجد حجراً بالطوب واللبن لتكون مساكن له.

كان هذا العمل الجليل وهو بناء مسجده أول أعمال الرسول ﷺ بالمدينة، ويعد المسجد هو مكان الصلة بين العبد وربه، وتلك الصلة هي أهم المقاصد، وأسمى الغايات، وقد أنشئ المسجد ليكون متعبداً لصلاة المؤمنين وذكرهم لله سبحانه وتعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم ويقيم فيه صلاته وعبادته، كما بني المسجد ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه والوافدين عليه طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته، كذلك لم يكن المسجد موطناً للعبادة فحسب ولكنه كان محكمة للقضاء بما أنزل الله، وليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقيلة، والتنزيلية التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد والدعوة إلى الله.

أما الأحاديث الواردة في فضل المسجد النبوي فهي كثيرة، فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس»، وجاء في الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

كان المسلمون يجتمعون في المسجد لأداء الصلاة في مواقيتها بغير دعوة، فيثقل بعضهم ويتأخر البعض، وكان ﷺ لا يرغب أن يحاكي اليهود والنصارى في طرق الإعلان التي اعتادوها في الإعلان عن صلواتهم، لذا استشار الرسول الكريم المسلمين في علامة يعرفون بها حضور المسلمين لأداء صلاتهم فأشار بعضهم برفع النار، وبعضهم بالنفخ في البوق، وبعضهم بضرب الناقوس، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ألا تبعثون رجلاً ينادي «الصلاة جامعة»، فقبل رسول الله ﷺ هذا الرأي، وعمل به، ثم أكرم الله المسلمين بالأذان فأراه عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري - رضي الله عنه - وهو في المنام، فجاء وأخبر الرسول ﷺ، فقال ﷺ : إنها لرؤيا حق، وأمره أن يلقي على بلال بن رباح - رضي الله عنه - حتى ينادي بها ؛ لأنه أندى صوتاً منه فأذن بلال «الله أكبر الله أكبر» إلى آخر الأذان المعروف والمتبع حتى وقتنا الحاضر، ولما سمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بلالاً وهو ينادي «الله أكبر، الله أكبر»، قدم إلى رسول الله ﷺ، وقال له : «لقد رأيت مثله، فتأكد الأمر، وصار الأذان أحد شعائر الإسلام.

ب - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم [(١)]

واجه المهاجرون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة مشكلات متنوعة اقتصادية واجتماعية وصحية، فمن المعروف أن المهاجرين تركوا أهلهم وذويهم وأموالهم في مكة المكرمة وخرجوا مهاجرين إلى المدينة المنورة، وكان أولى تلك المشكلات التي واجهت المهاجرين في المدينة المنورة تكمن في عدم قدرتهم على التكيف على المناخ السائد في المدينة المنورة، وقد أدى اختلاف المناخ إلى إصابة المهاجرين بالحمى ومرض كثير منهم، كان من جملة الصعوبات التي واجهتهم في أعقاب الهجرة مسألة الحصول على مساكن ملائمة للسكنى، وقد نزل بعضهم في بيوت الأنصار بقباء، وكانت الصعوبات الاقتصادية أشد قسوة، وقد تمثلت في ضرورة توفير الطعام الكافي للمهاجرين، كما أن علائق المهاجرين بالمجتمع الجديد كانت

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٠٥ - ٤٠٧ ؛ البخاري، صحيح البخاري، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ج١، ص ٥٥ ؛ البلازري، أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٧٠ ؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ٢٤٠

حديثة فقد ترك المهاجرون أهليهم ومعارفهم بمكة المكرمة وانقطعت صلتهم بهم مما ولّد إحساساً بالوحشة والحنين إلى بلدتهم مكة المكرمة.

وهكذا كان وضع المهاجرين بحاجة إلى علاج سريع وحل مؤقت واستثنائي، لذلك حرص الرسول ﷺ منذ اللحظة الأولى التي استقر فيها بالمدينة المنورة على توثيق الصلة بين أبناء الأمة الإسلامية، وأقام هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم بعيداً عن عصبيات الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام.

أحس الأنصار بحاجة إخوانهم المهاجرين وقدروا ظروفهم النفسية، وكان من سجايا الأنصار وكرمهم أنهم كانوا يتنافسون في إنزال المهاجرين واستضافتهم في بيوتهم.

كانت سياسة الرسول ﷺ في تلك الظروف القاسية سياسة القائد المحنك الرشيد فقد عمل على تنظيم المسلمين، وتوكيد وحدتهم فربط بينهم برباط متين، وذلك أن عقد تلك الأخوة النادرة بين الأنصار والمهاجرين على الحق والمواساة، وقال الرسول ﷺ لأصحابه: « تآخوا في الله أخوين أخوين»، فآخى بين كل مهاجر وأنصاري اثنين اثنين، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين والنصف الآخر من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، وعلى التوارث بينهما بعد الموت، دون ذوي الأرحام، ثم نسخ التوارث بعد غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وبقيت المؤاخاة وبهذه المؤاخاة التي آخى فيها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان الأنصاري يقول فيها لأخيه المهاجر: « انظر إلى أعجب نسائي إليك أطلقها، فإذا انتهت عدتها تزوجها »، بهذه المؤاخاة كان المجتمع المدني قد التحم بعضه ببعض، وأصبح جسداً واحداً ينهض بكل عبءٍ يلقى عليه، على أنه ينبغي ألا يفهم من هذه المؤاخاة أنها كانت دعوة إلى التواكل على الغير، والكف عن السعي وراء الرزق، كلا إنها كانت من هذه الناحية الاقتصادية درساً أخلاقياً، واجتماعياً من أعظم الدروس في التنظيم الاجتماعي هدفه أن يعين ويساعد المسلم أخاه المسلم وقت الحاجة، فقد قدر المهاجرون هذا الكرم والجهد الخالص الذي بذله إخوانهم الأنصار فاحترموا حفاوتهم لهم، ولم يستغلوا ذلك.

ج - الصحيفة «الدستور» الأساسي في الدولة الإسلامية(١)

لما استقر الرسول ﷺ في المدينة المنورة رأى أن يضع نظاماً للحياة العامة فيها يكون أساساً لتحقيق الوحدة بين أهاليها، وينظم العلاقات بين سكانها، ويوضح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات بين كل الأطراف، فكتب الرسول ﷺ كتاباً بهذا الشأن، عرف في المصادر التاريخية القديمة باسم (الكتاب) أو (الصحيفة)، وسماه الكُتَّاب المحدثون (الدستور) أو (الوثيقة)، هذا الكتاب الذي أصدره الرسول ﷺ تضمن تنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار وكذلك تنظيم العلاقات بين المسلمين عامة، وغيرهم من سكان المدينة المنورة، وخاصة اليهود الذين أقرهم النبي ﷺ على دينهم وأموالهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٥٠١ - ٥٠٤ ؛ العلي، صالح أحمد، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجتمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد، ١٩٦٩م، ص ٤، ٥ ؛؛ حميد الله محمد، مجموعة الوثائق السياسية، دار النفائس، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٤١ - ٤٧

الفصل السادس

الجهاد العسكري للمسلمين في عهد الرسول ﷺ حتى نهاية غزوة بدر الكبرى

الجهاد العسكري للمسلمين في عهد الرسول ﷺ حتى نهاية غزوة بدر الكبرى

مكث الرسول ﷺ بمكة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة، وكان عليه أفضل الصلاة والسلام ميالاً ومحباً للسلم، فلم يلجأ للقتال طوال إقامته بمكة المكرمة ؛ بل عمد إلى مجادلة المشركين، وإقناعهم بالدليل والبرهان، وكان الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم قد تعرضوا لمختلف أنواع الأذى والتعذيب من كفار قريش فصبروا على أذاهم، وحثه الله سبحانه وتعالى على التمسك بالصبر بما أنزله عليه من الآيات البينات، وضرب له الأمثلة في الصبر وقوة التحمل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

لما اشتد أذى المشركين على المسلمين واضطروهم إلى الهجرة من مكة المكرمة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة المنورة ثانياً رأى الرسول ﷺ أن يوحد بين المهاجرين والأنصار حتى يتيسر لهم الوقوف في وجه أعدائهم، خاصة كفار قريش الذين كانوا يستعدون للقضاء على دولة الإسلام في المدينة المنورة فضلاً عن موقف يهود المدينة المنورة ومؤامراتهم ضد المسلمين.

أولا : مشروعية الجهاد ومراحله وأسبابه(١)

شرع الله الجهاد على المسلمين في السنة الثانية للهجرة، والجهاد مصطلح شرعي يراد به القتال في سبيل الله لإقامة نظام عادل يلتزم فيه بأحكام الشريعة، ويسعى لتحقيق أهداف الإسلام في المعمورة، ولم يشرع الجهاد في الإسلام في العهد المكي، بل أمر المسلمون بألا يواجهوا المشركين بالقوة، وألا يحملوا السلاح في وجوهم، فكان الشعار المعلن آنذاك قوله تعالى : ﴿ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (النساء: ٧٧).

أدى استقرار المسلمين من الأنصار والمهاجرين في المدينة المنورة، وازدياد قوتهم وسيادتهم عليها إلى كره أعدائهم من المشركين واليهود لهم، وراح كل فريق من هؤلاء يعمل ضد المسلمين، وكان لا بد من الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية الناشئة نتيجة لتلك الظروف

(١) المنصور فوري، رحمة للعالمين ، ج١، ص ١١٦ ؛ الكيلاني، ماجد عرسان، إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، الطبعة الأولى، ص ٥٢ ؛ هيكل، القتال والجهاد، ج١، ٤٦٣ - ٤٦٤.

الخطيرة أذن الله تعالى بالجهاد وقتال قريش، ثم تطور الإذن مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريش إلى غيرهم.

كان تشريع الجهاد أو القتال قد تم على مراحل عديدة :

المرحلة الأولى : كانت مرحلة الحظر، وذلك عندما كان المسلمون في مكة المكرمة يطالبون الرسول ﷺ بالإذن لهم في القتال والجهاد، فيجيبهم : اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال».

المرحلة الثانية : الإذن من غير إيجاب، وقد ورد قوله تعالى في هذا الخصوص ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩).

والمراد بهذه الآية أن الله أحل القتال للمسلمين ؛ لأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم لا لسبب سوى عبادة الله.

المرحلة الثالثة : وجوب قتال من قاتل المسلمين قال تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

المرحلة الرابعة : فرض قتال عموم الكفار على المسلمين وذلك لتمكين وتأصيل العقيدة الإسلامية للانتشار دون أي عقبات تضعها قوى الشرك، ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض، ويظهر هذا التوجه في عدد من الآيات منها قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ (البقرة: ٢١٦).

أهم الأسباب الموجبة لإعلان الجهاد العسكري (القتال) في الإسلام كانت ترجع إلى :

- الدفاع عن النفس - ورفع الظلم - ورد الاعتداء الذي أصاب المسلمين.
- تأمين الدعوة الإسلامية، وتدعيم هيبتها حتى تلقي الرعب في قلوب الأعداء.
- المحافظة على وحدة الأمة والقضاء على كل من يحاول إحداث الفتنة.
- تأديب الذين ينقضون العهود والمواثيق المعقودة مع المسلمين ؛ لأن الإسلام يعتبر ناكثي العهود وخائني المواثيق في حكم البغاة الخارجين الذين يجب قتالهم.

ثانياً : السرايا والغزوات قبل غزوة بدر الكبرى[1]

تنقسم الحملات التي أخذ الرسول ﷺ يوجهها من المدينة المنورة ضد خصومه إلى قسمين : **القسم الأول ويعرف بالغزوة :** وهي ما خرج بها الرسول ﷺ مع المقاتلين من الصحابة رضوان الله عليهم.

والقسم الثاني ويعرف بالسرية أوالبعث وهي ما لم يخرج فيها الرسول ﷺ بنفسه، فقد كان يعقد لواء قيادتها إلى رجل من أصحابه - رضوان الله عليهم - وقد يطلقون على السرية غزوة، ولكن ذلك قليل.

قاد الرسول ﷺ أربع غزوات قبل غزوة بدر الكبرى، وأرسل أربع سرايا قام بقيادتها بعض صحابته الكرام - رضوان الله عليهم - وإن لم يحدث في معظمها قتال. وتتمثل طلائع حركات الجهاد في غزوات وسرايا صغيرة اتجهت إلى مواقع غربي المدينة المنورة وكان من أكبر أهدافها:

- استكشاف تحركات العدو، وتأمين أطراف المدينة حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة.
- تهديد طرق تجارة قريش إلى الشام، والتعرض لقوافلهم حتى يشعروا بالخطر على تجارتهم، وأموالهم، وأنفسهم.
- عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش.
- إبلاغ رسالة الله عز وجل، ونشر دعوة الإسلام قولاً وعملاً.

كما كان لهذه السرايا والغزوات أهدافٌ أخرى تكمن في عملية الإعداد الدائم والتدريب على كيفيات المواجهة، وإن إخراج السرايا كفيل بأن يرفع من الروح المعنوية للمسلمين، ويزيدهم إقبالاً على التأهب النفسي، والاستعداد للجهاد العسكري، وقد نجحت تلك الغزوات والسرايا في كل أهدافها.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٥٩٥ - ٥٩٦ ؛ حماد، جمال، غزوة بدر من الناحيتين العسكرية والسياسية، ص ٣٩ ؛ العصامي، عبدالملك بن حسن، سبط النجوم العوالي في بناء الأوائل والتوالي، القاهرة، ١٣٧٩هـ، ج٢، ص ٤٠٣

كانت أولى سرايا الرسول ﷺ سرية حمزة بن عبدالمطلب [1]

حدثت في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، فقد عقد له الرسول ﷺ لواء أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين واصلوا سيرهم حتى بلغوا إلى سيف البحر على ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص، واعترضوا قافلة لقريش قادمة من الشام إلى مكة المكرمة فيها أبو جهل ومعه ثلاثمائة راكب من أهل مكة المكرمة، فاصطف الفريقان، وكاد يقع القتال بينهما لولا توسط مجدي بن عمرو الجهني الذي كان حليفاً للفريقين، فانصرف الفريقان، وعاد حمزة - رضي الله عنه - إلى المدينة المنورة دون قتال، وتعد هذه السرية أول عمل عسكري، وأول لواء عقد في تاريخ الإسلام.

سرية عبدالله بن جحش « سرية نخلة» [2]

تعد آخر سرية بعث بها الرسول ﷺ قبل غزوة بدر الكبرى في رجب من السنة الثانية من الهجرة وهي من السرايا الإسلامية التي حققت نتائج مهمة، وكان فيها دروس وعبر وفوائد عظيمة.

أرسل الرسول ﷺ عبدالله بن جحش الأسدي في عدد قليل من المهاجرين قيل كان عددهم ثمانية، وقيل اثنا عشر، إلى موضع يدعى نخلة بين مكة المكرمة والطائف لاستطلاع أخبار قريش، ولم يشأ الرسول ﷺ أن يكشف عن الجهة التي ستذهب إليها السرية حتى لقائد السرية وأفرادها، إذ زودهم بكتاب مختوم يحدد فيه وجهتهم، وأمر عبدالله ألا يفتحه حتى يسير مسافة يومين، ثم يقرأه، ويمضي لما أمر به، وطلب منه ألا يكره أحداً من أصحابه، ففعل، ولما سار اليومين فتح الكتاب، ونظر فيه، فإذا فيه الأمر بالنزول بنخلة، وهي مكان بين مكة المكرمة والطائف يرصد فيها قريش، ويعلم أخبارها وتحركاتها وتدابيرها العسكرية والحربية، فأعلم عبدالله من معه، وساروا في اتجاه مكة المكرمة، وفي الطريق تخلف سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان اللذان أخذا يبحثان عن بعير لهما ضلّ كانا يتعقبانه، وحين وصلت السرية إلى نخلة مرت بهم قافلة تجارية لقريش قادمة من الطائف، فلما رأى أفراد السرية قافلة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٥٩٥ - ٥٩٦ ؛ الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ)، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جيوش، بيروت، عالم الكتب، ١٩٦٤م، ج١، ص ٩ - ١١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص٦٠١ - ٦٠٤ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٧٩ - ٨٠ ؛ رضا، محمد، محمد رسول الله، ص ١٨٢ - ١٨٣.

قريش رمى وافد التميمي، وكان من المسلمين عمرو بن الحضرمي وهو من المشركين بسهم فقتله، وأسروا اثنين من المشركين هما عثمان بن المغيرة، والحكم بن كيسان، وفر ثالث منهم يدعى نوفل بن عبدالله بن المغيرة، فلما قدم عبدالله بن جحش على الرسول ﷺ بالمدينة المنورة وأخبره بما حدث ؛ غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، ورفض أن يأخذ العير، والأسيرين فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في يدي القوم، وظنوا أنهم هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما فعلوا.

انتهزت قريش فرصة اشتباك المسلمين معهم في القتال في شهر رجب، فحملت عليهم، وأعلنت في كل مكان أن محمداً ﷺ وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام، وأثاروا عموم العرب على المسلمين ؛ لأنهم خرجوا عن أحد تقاليدهم، فقالت : استحل محمد ﷺ وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فلما كثر الناس في ذلك نزل الوحي يؤيد مسلك عبدالله بن جحش وصحبه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقد أظهرت هذه الآية أن ما قامت به قريش من صد المسلمين عن سبيل الله وإخراجهم من المسجد الحرام أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.

وبذلك هدأت نفوس المسلمين وشعروا أن ما فعله عبدالله وأفراد سريته لم يكن بالأمر الجسيم كما صورته وادَّعته قريش، وإنما كان لوناً من رد العدوان الذي كانت قريش قد بدأته ضد المسلمين.

ومما جاء من خبر تلك السرية أن عبدالله بن جحش لما رجع إلى يثرب قال باجتهاد منه إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وكان ذلك قبل أن يفرض الله أن يكون من الغنائم الخمس لرسول الله ﷺ، وأقر الرسول قضاء عبدالله في الغنيمة، فكان أول خمس في الإسلام، وأول غنيمة غنمها المسلمون، وأول قتيل من المشركين، وكان عثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان أول من أسرهما المسلمون، وسمي عبدالله بن جحش أمير المؤمنين.

ثالثاً: غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة(١)

كانت غزوة بدر الكبرى في اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة وهي أول معركة كبيرة في الإسلام كانت بين المسلمين والمشركين، وانتصر فيها المسلمون.

أسباب الغزوة

واصل الرسول ﷺ سياسته القائمة على ممارسة الضغط على حرية قبيلة قريش عند إرسال قوافلها التجارية على بلاد الشام من خلال محاولة التعرض لها والاستيلاء عليها؛ لذا فإنه عندما بلغه أن قريشاً جمعت أموالها، ولم يبق أحد من أهل مكة المكرمة إلا وقد اشترك فيها على قدر استطاعته، وحملت هذه التجارة على ألف بعير، قيل بأنها كانت محملة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار من الذهب، عليها أبو سفيان بن حرب بن أمية، ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً، قادمة من الشام في الطريق إلى مكة المكرمة، فأرسل الرسول ﷺ بسيس بن عمرو لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسيس بالخبر ندب الرسول ﷺ أصحابه بالخروج، وقال لهم: «هذه عير لقريش فيها أموالهم؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»، ولم يكن في نية النبي ﷺ عند خروجه أي نية للقتال، وإنما كان قصده قافلة قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار قريش حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة.

أراد الرسول ﷺ أن يعترض طريق هذه القافلة ليفجع قريش في أموالها كما فجعت المسلمين من قبل في أموالهم وأنفسهم، وإن نجاح المسلمين في الاستيلاء على هذه القافلة كان من شأنه أن يلحق ضربة قوية بقريش، ويعوض المسلمين عن أموالهم التي صادرتها، ويساعد على تحسين أوضاعهم الاقتصادية بصورة واضحة.

حصل خلاف بين المصادر التاريخية حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوته إلى بدر، فمنهم من ذكر أن عددهم بضعة عشر وثلاث مئة، وهناك من ذكر أنهم ثلاث مئة وسبعة عشر رجلاً، وهذا هو الأرجح، ولم يكن معهم سوى فرسين وسبعين بعيراً.

---

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١١٨، ١١٩، ١٢٧، ١٩٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٤، ١٩، ٢٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٨٥، ٣٦٤، ٤٠٣-٤٠٤، ٤١٢؛ خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، ط٢، بغداد، ١٩٦٠م، ص ٧٨ - ٧٩؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

خرج الرسول ﷺ ومعه أصحابه - رضوان الله عليهم - وكان معظمهم من الأنصار، وكانوا لا يظنون أنهم يلقون حرباً، واستعمل أبا لبابة والياً على المدينة المنورة، وعبدالله ابن أم مكتوم للصلاة بالناس .

حينما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ وأصحابه فزع كل الفزع، وأرسل إلى قريش يطلب العون، والنجدة، ويخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ويستنفرهم لاستعادتها، ولم يكتفِ بذلك بل غير طريقه، وسار محاذياً لساحل البحر الأحمر، حتى جاوز موقف المسلمين، وبذلك استطاع أن ينجو بالقافلة.

ولما علمت قريش بالخطر الذي ستتعرض له تجارتها قرروا الخروج لنجدة قافلتهم، وإنقاذ تجارتهم، فخرجوا من مكة المكرمة بدون تعبئة منظمة وكان عددهم يتراوح بين التسع مئة والخمسين أو قرابة الألف، وكان في هذه الأثناء أبوسفيان قد تمكن من النجاة بالقافلة، فأرسل إلى قريش يخبرها بذلك، وطلب منهم أن يعودوا إلى مكة المكرمة، ولكن قريشاً صممت على أن تسير إلى بدر لتظهر قوتها للمسلمين، ولغيرهم من قبائل العرب، وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وأشارت بعض المصادر عن عدم مشاركة بعض القبائل مثل: بني زهرة، وبني عدي، وشارك بنو هاشم وهم مكرهون، وإن بعض قادة المشركين من قريش كعتبة بن ربيعة، وحكيم بن حزام من بني أسد قد ساروا إلى القتال وهم غير راضين.

موقف المسلمين بعد نجاة القافلة

كان الرسول ﷺ قد خرج من المدينة المنورة مع أصحابه من المهاجرين والأنصار، وبينما هو في طريقه إلى بدر، علم الرسول ﷺ والمسلمون أن القافلة قد نجت، وأفلتت من أيديهم، وأن قريشاً قد خرجت بخيلها ورجالها، واتخذت الطريق إلى بدر لتحدي المسلمين قريباً من ديارهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم.

استشار الرسول ﷺ أصحابه فيما يعمل لمواجهة قريش، فأعلن كبار المهاجرين موافقتهم على الخروج لمواجهة قريش، وأراد الرسول ﷺ أن يستوثق من رأي الأنصار، وقام سعد بن معاذ قائلاً : « لقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معكَ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً ... إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عيناك، فسر على بركة الله»

سر الرسول ﷺ سروراً عظيماً حينما سمع رأي الأنصار، وأيقن بأن التضامن بين المهاجرين والأنصار وإيمانهم الكامل سوف يكون سبباً في انتصارهم على مشركي قريش.

رأي الحباب بن المنذر في اختيار مكان المعركة

نزل ﷺ عند أدنى ماء من مياه بدر، وكان الحباب بن المنذر بن الجموح - رضي الله عنه - عليماً وعلى معرفة بهذا المكان، فقال يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ؟ أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ فرد عليه النبي ﷺ : بل هو الحرب والرأي والمكيدة. قال الحباب : يا رسول الله فليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم (قريش) فتنزله ثم تغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فاقتنع الرسول ﷺ بهذا الرأي السديد، وقال لحباب : لقد أشرت بالرأي».

رأي سعد بن معاذ في مكان الرسول ﷺ

بعد أن شرع الرسول ﷺ بإعداد قوته للمعركة جاء سعد بن معاذ مقترحاً عليه قائلاً : يا رسول الله نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركابك، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركابك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك، ويجاهدون معك»، فوافق الرسول ﷺ على ذلك المقترح، وأثنى على سعد، ودعا له بخير، ثم بني العريش فوق تل مشرف على المعركة، وكان معه أبو بكر - رضي الله عنه - وعدد من فتيان الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يقومون بحراسة عريش الرسول ﷺ.

نشوب القتال وهزيمة المشركين

حاول الرسول ﷺ إقناع قريش ليتجنب المواجهة العسكرية، فأرسل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لإقناعهم بذلك، إلا أن جميع المساعي قد فشلت، ولم يبق من خيار لدى الطرفين سوى حسم الموقف عن طريق السلاح بين فئتين فئة مسلمة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت.

التقى الجمعان في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وبدأ القتال بمناوشة من جانب قريش، وذلك حينما اندفع الأسود المخزومي يريد

أن يشرب من ماء المسلمين، فتصدى له حمزة بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - وقتله، وكان الأسود أول قتيل من الكفار أشعل نار المعركة.

أبرزت قريش ثلاثة من خيرة فرسانها للمبارزة مع المسلمين وهم : عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وخرج إليهم ثلاثة من الأنصار هم : عوف ومعوذ أبناء عفراء، وعبدالله ابن رواحة، إلا أن المبارزين من قريش رفضوا ملاقاتهم، وطلبوا أكفاءهم من قومهم، فطلب الرسول ﷺ أن يخرج إليهم عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - فتمكن حمزة من قتل شيبة، ولم يمهل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - الوليد فقتله هو الأخر، وبارز عبيدة بن الحارث - رضي الله عنه - عتبة، وأثخن كل منهما خصمه بالجراح، فكر علي وحمزة على عتبة، وقتلاه، أما عبيدة بن الحارث - رضي الله عنه - فقد قطعت رجله، ثم مات شهيداً رضي الله عنه.

شاركت الملائكة في غزوة بدر، وكان في مقدمتهم جبريل - عليه السلام - وكان عددهم ألف ملك في صورة رجال عليهم عمائم بيض أرسلوها على ظهورهم إذ شوهد بعضهم، وأخبر بهم الرسول ﷺ،وقاتل بعض الملائكة بالفعل، وشارك بعضهم في تثبيت قلوب المؤمنين على المثابرة في القتال.

ومن الآيات القرآنية التي تؤكد مشاركة الملائكة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الأنفال: ٩ - ١٠).

وقد كان من بين قتلى قريش أبرز زعمائها من أمثال : عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة، وأمية بن خلف، وابن البحتري بن هشام، وغيرهم، ثم أمر الرسول ﷺ أن ينقلوا من مصارعهم ويطرحوا في القليب، فطرحوا فيه، وكان السبب في إلقاء قتلى قريش في القليب كثرة قتلاهم، فكان سحبهم إلى القليب أيسر من دفنهم، وأقام الرسول ﷺ ببدر ثلاثة أيام، ثم غادرها راجعاً إلى المدينة المنورة.

الأسرى وفداؤهم

أسر المسلمون في غزوة بدر سبعين أسيراً، وهو عدد كبير إذا قيس بنسبة عدد مقاتلي المسلمين والمشركين، ووسائل القتال في ذلك العصر.

استشار الرسول ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : يا رسول الله، قد كذبوك، وقاتلوك، وأخرجوك ؛ فاضرب أعناقهم»، وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : يا رسول الله هم أهلك، وقومك أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم ربك فيكونوا لنا عضداً.

استحسن الرسول ﷺ رأي أبي بكر - رضي الله عنه - وأخذ به، وذلك لما عرف عنه عليه أفضل الصلاة والسلام من العفو والسماحة.

كانت معاملة الرسول ﷺ للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم والأهداف الدعوية، ولذلك تعددت أساليبه، وتنوعت طرق تعامله عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد تم إنهاء مشكلة الأسرى على النحو التالي :

- قتل منهم اثنان : النضر بن الحارث، وعتبة بن معيط ؛ لشدة إيذائهما للدعوة، وشدة إيذائهما للرسول ﷺ.
- منَّ الرسول ﷺ على عدد منهم فأطلقهم بدون فداء منهم.
- أخذ الفداء من عدد كبير من الأسرى منهم سهيل بن عمرو، والعباس بن عبدالمطلب وغيرهما.
- اشترط الرسول ﷺ على فداء بعض الأسرى ممن لا يملكون مالاً أن يعلموا عشرة أطفال من المسلمين القراءة والكتابة.

وقد جعل الرسول ﷺ فداء الرجل ما بين ألف درهم وأربعة آلاف درهم، كما أوصى الرسول ﷺ بحسن معاملة الأسرى، فقال : استوصوا بالأسرى خيراً، وحرم على المسلمين التمثيل بالأسرى حتى لو كان ثمة مبرر لذلك.

الخلاف في الأنفال « تقسيم الغنائم»

الأنفال هي الغنائم، ويقول البعض : هي زيادة يزيدها الإمام لفرد من أفراد الجيش أو لفرقة منه لحسن بلائهم، إضافة إلى نصيبهم من الغنيمة العامة.

حدث خلاف بين المسلمين الذي شاركوا في غزوة بدر حول تقسيم الغنائم التي حصلوا عليها من تلك الغزوة، لكن ذلك الخلاف لم يصل إلى حد الصراع، بل كان اختلافاً في وجهات

النظر، كل واحد عرض حجته، ومع ذلك ربما كانت المشكلة تستفحل، ولكن القرآن الكريم سارع إلى علاجها، وشرع في كيفية تقسيمها قال تعالى :﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ﴾ (الأنفال: ١).

فقسمها الرسول ﷺ على فواق بين المسلمين (أي بالتساوي)، وتدل الآثار الصحيحة على أن النبي ﷺ أخرج الخمس من الغنيمة ثم قسمها بين المقاتلين، وكانت آية الخمس قد نزلت ضمن سياق الآيات في غزوة بدر.

أسباب انتصار المسلمين في غزوة بدر

كانت وقعة بدر أول انتصار للمسلمين في حروبهم مع كفار قريش، وكانت نذير تحول خطير في تاريخ الإسلام، وكانت هناك جملة من الأسباب التي قادت إلى انتصار المسلمين وهزيمة المشركين في غزوة بدر منها:

- ارتفاع الروح المعنوية للمسلمين ؛ لأنهم كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان.
- القيادة الحكيمة التي أظهرها الرسول ﷺ في قيادته سواء في أثناء السير أو في اختيار الأرض والوقت المناسب للقيام بالهجوم.
- لم يكن معسكر المشركين على درجة عالية من التنظيم، والقيادة.
- ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر نظاماً جديداً في محاربة أعداء الله، لم يكن معروفاً من قبل، حيث قاتل الرسول ﷺ بنظام الصفوف، أما المشركون من قريش فقد اتبعوا في قتالهم أسلوب الكر والفر، وهو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو يقاتلون بالسيوف، ويطعنون بالرماح مشاة وفرساناً، فإن صمد لهم العدو، أو أحسوا بالضغط نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم، وكروا، وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل .

- نزول الملائكة يوم بدر، فقد وردت الآيات والأحاديث على أن الله أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر فقاتلوا معهم، فألقى الله في قلوب المشركين الرعب.

نتائج غزوة بدر الكبرى

كانت غزوة بدر ذات أثر كبير في إعلاء شأن الإسلام فهي الغزوة الوحيدة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً ؛ فكانت أساساً متيناً لمستقبل الإسلام، ولذلك سماها القرآن (يوم الفرقان) ؛ لأنها فرقت بين الحق والباطل.

- قويت شوكة المسلمين وارتفعت مكانتهم، وأصبحوا مرهوبين في المدينة المنورة، وما جاورها.
- كسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وشهرة واسعة يحسب لها ألف حساب في مختلف الأصقاع والأماكن في جزيرة العرب.
- كانت أصداء هزيمة المشركين القرشيين في بدر خطيرة على اليهود سكان المدينة المنورة، واستعلى المسلمون في المدينة المنورة على اليهود، وبقايا المشركين.

أسفرت غزوة بدر عن انتصار المسلمين على قريش وسقط منهم سبعون قتيلاً، كما أسر منهم سبعون آخرون، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، ودفنوا في ساحة بدر، ومقابرهم لا تزال معروفة.

الفصل السابع

نشاط المسلمين العسكري من بداية غزوة بني قينقاع حتى نهاية غزوة بني قريظة

نشاط المسلمين العسكري من بداية غزوة بني قينقاع حتى نهاية غزوة بني قريظة

أولاً: غزوة بني قينقاع أسبابها ونتائجها[(١)]

بنو قينقاع هم إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا بالمدينة المنورة قبل الإسلام بزمن طويل فراراً من اضطهاد الروم لهم وانتظاراً للنبوة المحمدية المشار إليها في التوراة والإنجيل، وكان لبني قينقاع سوق يسمى باسمهم، وهم أغنى اليهود في المدينة المنورة، وما حولها إذ كانوا صاغة الذهب والفضة والأسلحة، وكان بنوقينقاع من موالي الخزرج، وحلفاء عبادة بن الصامت، وعبدالله بن أبي بن سلول، وقد حدد بعض المؤرخين عددهم في تلك الغزوة بأنهم كانوا قرابة ٤٠٠ راجل و٣٠٠ دارع.

لما حل النبي ﷺ بالمدينة المنورة مهاجراً في السنة الأولى من الهجرة كان يهود بني قينقاع في جوار المسلمين بالمدينة المنورة، وارتبطوا مع المسلمين بعهود ومواثيق، ولكنهم نبذوها، وبدأو المسلمين بالعدوان والشر.

يتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ على أن غزوة بني قينقاع تمت بعد معركة بدر، وكان ذلك في يوم السبت النصف من شوال من السنة الثانية للهجرة إذ ساء يهود بني قينقاع ارتفاع شأن المسلمين ؛ فلم يستطيعوا إخفاء كرههم، واستهزائهم بهم، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية.

ويظهر مما أوردته المصادر التاريخية أن يهود بني قينقاع لم يكتفوا فقط بتحدي سلطة الرسول ﷺ بالقول ؛ بل إنهم قرنوا القول بالفعل، فقد ذُكر أن امرأة من العرب قدمت بجلب (أي بضاعة لها) فباعتها بسوق بني قينقاع، ومالت بعد ذلك إلى صائغ يهودي لتشتري منه مصاغاً، فجلست، وكان حولها بعض اليهود، فعابوا عليها لسترها وجهها، وطالبوها بكشف وجهها فأبت، ورفضت ذلك حفاظاً على عفتها، وصيانة لشرفها من أن يبتذل وجهها بنظر غير محارمها، فما كان من أحد أولئك اليهود إلا أن غافلها وربط طرف درعها من أسفله

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٧ - ٤٩ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٩٦ - ٩٧؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ رضا ، محمد، محمد رسول الله، ص ٢٠٧ -٢٠٩.

بطرف خمارها، فلما قامت انكشفت عورتها، فصاحت المرأة المسلمة مستغيثة، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله، واجتمعت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فهب رجال من المسلمين للحادث، فاقتتلوا مع اليهود الذين كانوا حول الصائغ، وبهذا العمل نقض يهود بني قينقاع عهدهم.

ولما علم الرسول ﷺ بالأمر توجه إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وحين علم اليهود بمقدمه تحصنوا في حصونهم فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة، واستمر الحصار لا يخرج منهم أحد، ولا يدخل إليهم طعام حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، ولما رأي يهود بني قينقاع من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين سألوا الرسول ﷺ أن يخلي سبيلهم، وأنهم سوف ينزلون على حكمه، فأمر بهم فربطوا بحبال في أيديهم وأرجلهم لقتلهم بموجب المعاهدة المعقودة بينهم وبين الرسول ﷺ وقبل تنفيذ الحكم فيهم توسط في جلائهم والعفو عنهم حليفهم عبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين، وطلب من الرسول ﷺ ألا ينفذ عليهم العقاب، فوافق الرسول ﷺ على ذلك بعد إلحاح شديد من عبدالله بن أبي بن سلول، وطلب الرسول ﷺ منهم الجلاء عن المدينة المنورة خلال ثلاثة أيام، فوافقوا على ذلك وتركوا المدينة المنورة خلال المهلة المحددة لجلائه.

يذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ أخذ أسلحتهم وآلة صياغتهم، و أخذ من أموالهم لنفسه ثلاثة قسي، ودرعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة رماح وخُمس غنائمهم، وكان الذي ولي إخراجهم من المدينة المنورة عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - فمضى بهم حتى بلغ ذباب، ومنها اتجهوا إلى أذرعات بالشام. وقد نتج عن الغزوة.

- نهاية يهود بني قينقاع، وتلك نهاية الخيانة في كل عصر وحين.
- خروج بني قينقاع من المدينة المنورة صاغرين وقد ألقوا سلاحهم، وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين.
- ازداد مركز الرسول ﷺ قوة بالمدينة المنورة، وضعف مركز خصومه من المنافقين واليهود.
- تحسنت أوضاع المسلمين الاقتصادية تحسناً ملحوظاً، وخاصة أحوال المهاجرين بسبب استفادتهم من الأموال والمساكن التي تركها يهود بني قينقاع بعد جلائهم.

ثانياً: غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة[1]

كانت قريش بعد غزوة بدر تتحرق حزناً على ما أصابها على يد المسلمين وكانت تستعد لقتالهم لتحقيق عدة أمور منها : الثأر والانتقام لشرفها، ولمن قتل من رجالاتها، وإعادة ما كان لقريش من هيبة ومكانة، ولتفك عن نفسها الحصار الاقتصادي الذي ضربه المسلمون على طرق تجارتها فلم يعد أمام قوافلها إلا أن تتجه جهة الجنوب.

ظلت قريش تستعد طيلة سنة كاملة لحرب الرسول ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم - وبذلت قريش في هذا السبيل مجهوداً كبيراً، كما خصصت أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها وهي قادمة من الشام والتي كانت سبباً في غزوة بدر للإنفاق منها على تلك الحرب، وطلبت من أشراف مكة المكرمة أن يجهزوا من أموالهم جيشاً لمحاربة الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم.

خروج قريش من مكة المكرمة إلى يثرب (المدينة المنورة)

خرج مشركو مكة المكرمة في السنة الثالثة للهجرة، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان لخالد بن الوليد، ويعاونه عكرمة بن أبي جهل، وكان عدد الجيش حوالي ثلاثة آلاف، كان منهم عدد من نسائهم على رأسهم هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ؛ لبث الحماس وتشجيع الرجال على قتال المسلمين، ونزلت تلك القوة على سفح جبل أحد، وهو جبل مشهور في المدينة في شمالها الغربي بينه وبينَ المدينة المنورة ثلاثة أميال.

خرج الرسول ﷺ في ألف من المسلمين إلا أنه لم يبق معه سوى سبع مئة بعد عودة المنافقين، وعدولهم عن الخروج للقتال بزعامة عبدالله بن أبي بن سلول بحجة أن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيه، وقد ترتب على ذلك حدوث بعض الاضطرابات في صفوف المسلمين، إلا أن الرسول ﷺ لم يعبأ بتخلف عبدالله ومن كان معه من المنافقين، وواصل سيره حتى نزل بعدوة الوادي فاستقبل المدينة المنورة، وترك جبل أحد خلف ظهره حتى لا تهاجمه قريش من خلفه، وجعل وراءه الرماة، وكان عددهم خمسين رجلاً ولّى عليهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٠ - ٦٣، ٦٦، ٧٧، ٨٢، ١٢٢ ؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٩٩ - ٢٠١ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٩٩ - ٥٠٠، ٥٠٧، ٥١٤، ٥١٥ ؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٢، ص ٩٦،١٤.

بداية المعركة

بدأ القتال بين الفريقين في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان، وبدأ القتال أولاً بالمبارزة، وكان النصر في جانب المسلمين، ثم حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، وكانوا في كل مرة يرمونهم الرماة بالنبل فيتقهقرون، واستمر القتال شديداً بين الجانبين، وأظهر المسلمون بطولات عظيمة وانتصروا على أعدائهم.

الرماة يتسببون في هزيمة المسلمين

لما رأى الرماة الذين أوقفهم الرسول ﷺ فوق الجبل ليحموا ظهور المسلمين أن المسلمين قد بدأو يجمعون الأسلاب والغنائم نسوا أمر الرسول ﷺ لهم فتركوا موقعهم الحصين، ونزلوا إلى مكان القتال ليجمعوا ما يستطيعون من تلك الغنائم والأموال التي خلفها المشركون، وقد نصحهم رئيسهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه بألا يتركوا مكانهم حرصاً على أمر الرسول ﷺ فلم يسمع إليه إلا نفر دون العشرة، وانتهز خالد بن الوليد قائد ميمنة المشركين هذه الفرصة الذهبية، وهجم رجاله على مكان الرماة، فقتل من ثبت منهم، وفاجأ المسلمين من ورائهم وهم مشغولون بجمع الغنائم فاستولى عليهم الرعب والفزع، وسادت الفوضى في صفوفهم حتى صار يضرب بعضهم بعضاً، وشاع بين الناس أن النبي ﷺ قد قتل، فعظمت البلية بين المسلمين، وفرح المشركون، ولكن المسلمين عرفوا بعد ذلك أن الرسول ﷺ لا يزال حياً، فأحاطوا به يدرؤون عنه الأذى والعدوان، ولكن بالرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ أصيبت رباعيته، وشج في جبينه ووجهه، وجرحت شفته، وتمكن الرسول ﷺ مع فئة قليلة من أصحابه من الوصول إلى مرتفع على سطح جبل أحد ثم هدأت موجة القتال، وأخفق خالد بن الوليد في الوصول إلى محمد ﷺ وصحبه حيث تمكن المسلمون من رده وصده.

انسحب مشركو قريش بعد أن مثلوا بجثث قتلى المسلمين، ومثلت هند بنت عتبة بجثة حمزة ابن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ، فحزن الرسول ﷺ على قتله والتمثيل به، وتم دفنه مع سائر الشهداء - رضي الله عنهم.

عاد الرسول ﷺ وصحبه الكرام إلى المدينة المنورة يحز في نفوسهم الألم والحزن لما أصابهم من هزيمة بعد نصر.

نتائج المعركة

إن غزوة أحد كانت تمحيصاً للمسلمين وبخاصة بعد أن خالفوا تعاليم رسول الله ﷺ، وأصيب الرسول ﷺ في تلك الغزوة، وأشيع أنه قتل، ولكن الله عز وجل حماه من كل ضرر، وكان عدد الذين استشهدوا من المسلمين في غزوة أحد قرابة سبعين رجلاً كان منهم: حمزة بن عبدالمطلب – عم النبي ﷺ – ومصعب بن عمير، وحنظلة بن أبي عامر، وسعد بن الربيع، وكان أكثر القتلى من الأنصار – رضي الله عنهم جميعاً.

لم يحقق مشركو قريش الهدف الرئيس من حربهم مع المسلمين والمتمثل في القضاء على المسلمين قضاءً تاماً.

انتهت غزوة أحد بانتصار مشركي قريشٍ على المسلمين لأول مرة في تاريخهم، وكان عدد قتلى المشركين قرابة اثنين وعشرين رجلاً.

ثالثاً: غزوة بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة(١)

كان يهود بني النضير يقيمون بجوار المدينة المنورة إذ كانت ديارهم على مقربة من قباء، وكان بينهم وبين المسلمين عهوداً كالتي كانت بين بني قينقاع وبين المسلمين، ولكن بني النضير لم يوفوا بتلك العهود.

أجمع المؤرخون على أن السبب في حرب الرسول ﷺ لبني النضير يرجع إلى تآمرهم على قتل الرسول ﷺ، وقد جاءهم يستعينهم في دفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الفخري خطأً في حادثة بئر معونة، فقالوا له: « نعم أبا القاسم نعينك على ما أحببت، وما استعنت بنا عليه»، ولما خلا بعضهم إلى بعض عزموا على قتل الرسول ﷺ بأن يأخذ واحد منهم صخرة ويلقيها عليه وهو مستند إلى جدار في محلتهم، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهم رسوله ﷺ بما يريد هؤلاء من بغي وعدوان.

تأكد الرسول ﷺ بعد انكشاف هذه المؤامرة أنه ليس بالإمكان التعايش بسلام مع يهود بني النضير في المدينة المنورة لذا بعث إليهم أحد الصحابة – رضوان الله عليهم – وهو محمد بن مسلمة يقول لهم: « إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ١٩٠ – ١٩٢ ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٤٤ – ١٤٩؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص ٣٦٥ – ٣٦٨؛ الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٥٠ – ٥٥٥؛ الطلابي، السيرة النبوية، ص ٥٩٧.

(يعني المدينة) لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، وقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه».

ولما انقضت الأيام العشرة ولم يخرج بنو النضير من ديارهم عدَّ الرسول ﷺ رفضهم للانصياع لأوامره بالجلاء عن المدينة المنورة بمثابة إعلان الحرب عليهم فقال « حاربت يهود».

أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ والاستعداد لقتالهم، فلما اجتمع المسلمون توجهوا مع الرسول ﷺ لمحاربة بني النضير، وضربوا حصاراً عليهم مدة ست ليالٍ، ثم أمر الرسول ﷺ بقطع النخيل، والتحريق فيها، ليكون ذلك أدعى إلى إضعاف حماسهم للقتال فخافوا وطلبوا الاستسلام والأمان من الرسول ﷺ على أموالهم ودمائهم وذراريهم، فأجابهم الرسول ﷺ إلى طلبهم على أن يخرجوا من المدينة المنورة على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة (أي السلاح) حتى لا يحاربوا بها مرة أخرى، فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام، وقد كان حصار النبي ﷺ لبني النضير في شهر ربيع الأول سنة ٤هـ.

نتائج الغزوة

- تخلص المسلمون من عنصر غريب كان يتحين الفرص للانقضاض على المسلمين.
- أورث الله سبحانه وتعالى أرضهم وديارهم للرسول ﷺ، وقد ساعد حصول المسلمين على أموالهم على موازنة الأوضاع الاقتصادية بالمدينة.
- أكرم الرسول ﷺ اللذين أسلما من يهود بني النضير وهما يامين بن عمر ابن كعب، وأبو سعد بن وهب فا حرزا أموالهما.
- بيان أن سورة الحشر كلها نزلت في يهود بني النضير.

رابعاً: غزوة بني المصطلق «المريسع» في السنة الخامسة للهجرة[1]

اختلف المؤرخون وعلماء السيرة في تاريخ هذه الغزوة، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوال: فمن قائل إنها في شعبان سنة ست من الهجرة، ومن قال إنها في شعبان من العام الرابع للهجرة، وذهبت طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، وهذا هو الرأي الراجح.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٦٣ -٦٥؛ صحيح البخاري، ج٢، ص ٩١٤، ج١، ص ٤٩٩، ج٢، ص ٧٢٧؛ الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٦٠٤ -٦١٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٩٧، ٣٠٢ -٣١٠.

أسباب الغزوة

تعود أسباب تلك الغزوة إلى مؤازرة تلك القبيلة لقريش، واشتراكها وإسهامها ضمن الأحباش في جيش قريش في غزوة أحد.

سيطرة قبيلة بني المصطلق على الخط الرئيس المؤدي إلى مكة المكرمة، فكانت حاجزاً منيعاً من مد نفوذ المسلمين إلى مكة المكرمة، كما كانت ترغب في أن يبقى الطريق التجاري مفتوحاً أمام قريش لا يهدده أحد لما في ذلك من مصالح محققة لها.

كان من الأسباب أيضاً أن الحارث بن ضرار الخزاعي كان قد جمع الجموع للتوجه إلى محاربة الرسول ﷺ، واستعدوا للهجوم على المدينة المنورة، فلما سمع الرسول ﷺ بتجمعهم وتحشدهم قرر مهاجمتهم قبل أن يهاجموه.

توجه الرسول ﷺ إلى بني المصطلق وانتصاره عليهم

خرج الرسول ﷺ على رأس جيش قيل إنه كان سبع مئة، وقيل إنه كان ألف راجل، وخرج معه كثير من المنافقين، وكان في مقدمتهم عبدالله بن أبي بن سلول، وكان من ضمن من خرج في تلك الغزوة من نساء الرسول ﷺ السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق، والسيدة أم سلمة - رضي الله عنهم جميعاً.

وصل الرسول ﷺ إلى ماء يسمى المريسع من ناحية قديد إلى الساحل، وقد دار قتال عنيف بين الطرفين، قتل فيه من المسلمين واحد هو هشام بن صبابة، وقتل من بني المصطلق عشرة، وأسروا الباقي، وكانوا أكثر من سبع مئة، وأفاء الله على المسلمين أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

انتهت تلك المعركة بانتصار المسلمين على بني المصطلق وفرارهم بعد قتال قصير مع المسلمين.

أهم الأحداث التي حصلت في غزوة بني المصطلق

تزخر غزوة بني المصطلق ببعض الأحداث التي كان لها دور في التاريخ السياسي والاجتماعي على المسلمين وكان من أهمها:

زواج الرسول ﷺ من جويرية بنت الحارث - رضي الله عنها -

كانت من جملة السبي اللاتي تم أسرهن في تلك الغزوة، وكان عمرها حينذاك قرابة عشرين عاماً.

محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار

يروى أن رجلاً من المهاجرين كسع (أي ضرب) رجلاً من الأنصار في رجله فقال الأنصاري : يا للأنصار، وقال المهاجري : يا للمهاجرين، فقال الرسول ﷺ : دعوها فإنها منتنة، ولما سمع زعيم النفاق عبدالله بن أبي بن سلول بما جرى بين المهاجرين والأنصار قال : أو قد فعلوها، أي أننا أوينا المهاجرين حتى كاثرونا، وأصبحوا ينافسونا، وقال أيضاً: لا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل، واستمر عبدالله بن أبي بن سلول في الشتم والسب والكلام القبيح عن المهاجرين ثم جاء إلى الرسول ﷺ ينفي ما نسب إليه.

قضى الرسول ﷺ على الفتنة في مهدها، وقد نزلت في حق هؤلاء المنافقين الآية الكريمة: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: ٨).

محاولة المنافقين الطعن في عرض الرسول ﷺ

كانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - ترافق الرسول ﷺ مع أم سلمة - رضي الله عنها - في تلك الغزوة، وتأخرت عن القافلة في قضاء بعض حاجتها، وسارت القافلة دون أن يحس أحد بغيابها، ثم عادت السيدة عائشة - رضي الله عنها - إلى المدينة المنورة على بعير لصفوان بن المعطل - رضي الله عنه - وكان الأمر عادياً ليس فيه ما يريب إلى أن تناولته ألسنة السوء من المنافقين، وأدت غيرة النساء دوراً في إثارة تلك الحادثة، وروجت لها حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوجة الرسول ﷺ حيث أرادت أن تفسد على السيدة عائشة - رضي الله عنها - قلب الرسول الكريم لصالح أختها زينب بنت جحش - رضي الله عنها.

أصاب الرسول ﷺ من هذا الحديث قلق وحيرة، ووصل الأمر لبعض الصحابة أن أشاروا عليه بطلاقها إلى أن نزلت آيات كريمة تعلن براءة السيدة عائشة - رضي الله عنها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: ١١)، ونزلت آية كريمة تحذر من اتهام الناس ورمي المحصنات وتحدد العقوبة لمن يفعل ذلك: وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٤).

وقد بينت الروايات التاريخية أن من خاض بحديث الإفك قد تاب ما عدا عبدالله بن أبي سلول، وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم جميعًا.

كما أجمع العلماء قاطبة على أن من سب السيدة عائشة - رضي الله عنها - بعد براءتها، ورماها بما اتهمت به فإنه كافر.

خامساً: غزوة الخندق (الأحزاب) في السنة الخامسة من الهجرة(١)

ذهب جمهور أهل السير والمغازي إلى أن غزوة الخندق «الأحزاب» كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة.

هناك أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة لهذه الغزوة فمن الأسباب غير المباشرة العداوة بين المسلمين والقرشيين، وشعور قريش بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين.

أما الأسباب المباشرة فتتلخص في أن اليهود من بني النضير الذين كان الرسول ﷺ قد أجلاهم من المدينة المنورة لعدم وفائهم للعهد المأخوذ عليهم اتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة وتحريضها على ضرب المسلمين، وكونوا لهذا الغرض وفداً.

قام وفد بني النضير بمقابلة زعماء قريش، وأخذوا يحرضونهم، ويدفعونهم إلى محاربة المسلمين، كما أغروهم بمساعدات مالية، وإمدادات حربية، واجتهدوا أيضاً في إثارة القبائل النازلة بأطراف نجد مما يلي الحجاز.

وهكذا نجح اليهود بتشكيل حلف مشترك وتكون لهم جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، خمسة آلاف من قريش وأحلافها، وانضم إليهم مثلهم من القبائل الأخرى.

خرجت قريش من مكة المكرمة لمحاربة الرسول ﷺ، وكانت ترمي من وراء اشتراكها في هذه الحرب إضعاف شأن المسلمين، وإتمام النصر الذي حالفها في أحد، أما القبائل العربية الأخرى التي حالفت قريشاً، وانضمت إليها فكانت تسعى من وراء خروجها لمحاربة المسلمين على الحصول على الغنائم والأموال، وكان اليهود يأملون من وراء إثارة القبائل

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٢١٤ - ٢٢٥ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٦٤؛ الهمذاني، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق عبدالكريم عنان، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ت، ج٢، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٤٧.

العربية، وعلى الأخص قريش لمحاربة المسلمين إلى استعادة نفوذهم وثرواتهم في المدينة المنورة.

حفر الخندق حول شمال المدينة

كان الرسول ﷺ على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش وغطفان ثانياً، وبمجرد حصول المدينة المنورة على تلك المعلومات شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره صحابته - رضوان الله عليهم - من الأنصار والمهاجرين، واستشارهم الرسول الكريم ﷺ ماذا يصنع أمام هذا الجيش أيمكث بالمدينة المنورة، أم يخرج للقائه، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة المنورة ليسهل الدفاع عنها واتفق الجميع على البقاء داخل المدينة.

أقر الرسول ﷺ أمر سلمان الفارسي رضي الله عنه، وأمر بحفر الخندق في شمال المدينة المنورة من الجهة الشرقية إلى الغربية، وهذه الجهة هي التي كان يستطيع الأعداء غزو المدينة المنورة منها.

كان حفر الخندق عمل لم تكن العرب تعرفه، لكنه كان من فنون الفرس في حروبهم، أخذ المسلمون يحفرون الخندق، وشاركهم الرسول ﷺ في حفره، وقد استغرق حفر الخندق ستة أيام، وتحصن المسلمون وراء الخندق، وعلى بعض المرتفعات، وكان عدد جيش المسلمين قرابة ثلاثة آلاف.

وصول الأحزاب إلى الخندق

وصل القرشيون وحلفاؤهم لمهاجمة المدينة المنورة ونزلوا في شمالها بمكان يعرف بمجتمع الأسيال، وكان الخندق مفاجأة لهم، وأخذوا يتطلعون إلى المسلمين، ويترامون معهم بالنبال، والخندق يحول بين الفريقين كالحصن المتين، وجعل الرسول ﷺ على الخندق حراساً حتى لا يقتحمه المشركون ليلاً، ولم يترك المسلمون فرصة للمشركين يستطيعون أن ينفذوا منها إليهم، بالرغم من محاولة بعض من المشركين أن يقتحموا الخندق، وأن يقفزوا بخيولهم من فوقه في منطقة يضيق عرضه منها، فأسرع المسلمون، وقطعوا طريق العبور، وقتلوا ثلاثة من المشركين الذين نجحوا في الدخول إلى المدينة المنورة، وكان من بينهم عمرو بن عبد ود، وقتله علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وعاد من نجا من المشركين إلى معسكرهم، كما أخفق المشركون عند محاولتهم القيام بهجوم عام، وصدهم المسلمون بعد قتال استمر طوال النهار.

موقف المنافقين ونقض بني قريظة العهد

وقف جماعة من المنافقين كانوا من ضمن أفراد الجيش الإسلامي موقف اللؤم والكيد والخيانة حيث انسحبوا من صفوف المسلمين قائلين: «إن بيوتنا عورة، ونخاف أن يغير عليها العدو» فضاعف انسحابهم من تأزم موقف الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم.

عمد أبو سفيان بن حرب إلى استمالة بني قريظة، فانتدب لذلك زعيم بني النضير حيي بن أخطب النضري في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم إلى جانب قريش وحلفائها، فامتنع كعب في أول الأمر، ثم وافق أخيراً وأجاب طلبه، وبذلك نقض بني قريظة حلفهم مع الرسول ﷺ.

لما علم الرسول ﷺ أن بني قريظة نقضت ما بينه وبينها من عهد، وتأهبت مع قريش لمحاربته أرسل الرسول الكريم ﷺ وفداً من أصحابه كان من بينهم سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة لتقصي الحقيقة، ومعرفة إذا كانت بني قريظة قد نقضت عهدها حقاً، وأوصاهم ألا يجهروا بما يرونه خشية أن يفت ذلك في عضد المسلمين، ولما عاد الوفد أكد للرسول ﷺ صحة الخبر بعد أن سمعوا من اليهود أنه لا عهد بينهم وبين محمد ولا عقد، وبنقض بني قريظة عهدها عظمت الفتنة واشتد البلاء، وعظم الكرب.

رأى الرسول ﷺ أن يخفف من شدة البلاء على المسلمين بمفاوضة زعماء بني غطفان على أن ينسحبوا مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة المنورة، لكن زعماء الأنصار من الأوس والخزرج اقترحوا على الرسول ﷺ ألا يفعل فنزل على رأيهم.

موقف نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه

ساق الله عز وجل نعيم بن مسعود وهو من قبيلة غطفان إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه وقال له: «إني قد أسلمت، وقومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت»، فقال له الرسول ﷺ: «أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة».

خرج نعيم بن مسعود - رضي الله عنه - من عند الرسول الكريم ﷺ، وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين، فلما رأوه أكرموه لصداقته منهم، وحذرهم من محالفة قريش، والقتال ضد المسلمين حتى يأخذوا منهم رهناً من أشرافهم حتى لا يتخلوا عنهم بعد القتال، وضمان بقائها إلى جانبهم، فاستحسنوا رأيه، وأجابوه إلى ذلك، ثم أوهم قريش أن اليهود قد اتفقوا مع محمد ﷺ وصالحوه على أن

يقدموا إليه عدداً من أشراف قريش وغطفان ليقتلهم كدليل لإخلاصهم له، ثم أتى غطفان فأخبرهم بما أخبر قريشاً.

أرسل أبوسفيان وفداً لبني قريظة يدعوهم للقتال غداً، فأجابوهم: «إن اليوم السبت، ولن نقاتل حتى تعطونا رهناً من رجالكم»، فرفضت قريش، وتحققت من كلام نعيم بن مسعود، وصدق قوله، وما إن علمت بنو قريظة برفض قريش حتى صدَّقت نعيم، وانهار التحالف بين بني قريظة وقريش، وبذلك نجحت دعاية نعيم بن مسعود - رضي الله عنه - أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم، وتخوف بعضهم من بعض.

نهاية الغزوة

أكمل الله عز وجل نعمته على المسلمين فأرسل على الأحزاب «الأعداء» ريحاً شديدة باردة في ليلة مظلمة فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم، وضاقت قريش ذرعاً بالحصار، وخافت أن يتفق المسلمون مع بني قريظة ويهجموا عليهم تلك الليلة، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح.

أسباب انتصار المسلمين وهزيمة المشركين

أدت عدة عوامل في إخفاق المشركين وانتصار المسلمين ونجاة مدينتهم منها:

- وجود الخندق وفضل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - في إرشاد المسلمين إلى حفره.
- صبر المسلمين وثباتهم رغم شدة الأذى والبلاء، وفقدان الثقة بين أحزاب المشركين.
- قيادة الرسول ﷺ الحكيمة الموحدة، وفقدان مثل هذه القيادة في معسكر الأحزاب.
- الوقيعة بين قريش واليهود وعظم دور نعيم بن مسعود رضي الله عنه في تخذيل كل من اليهود والمشركين.
- قسوة الطبيعة من برد ورياح عاصفة مما أضعف معنويات المشركين.

نتائج الغزوة

كانت غزوة الأحزاب من الغزوات المهمة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، وحققوا فيها نتائج مهمة منها:

- انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم وتفرقهم ورجوعهم منهزمين دون تحقيق هدفهم.

• تعد غزوة الخندق فاصلاً بين مرحلتين في تاريخ الحروب العسكرية حيث تغير الموقف لصالح المسلمين فانقلبوا من موقف الدفاع إلى الهجوم.

• كانت خسارة المسلمين في غزوة الخندق استشهاد ستة من الصحابة - رضوان الله عليهم - ثلاثة من الأوس وثلاثة من الخزرج، وكانت خسائر المشركين ثلاثة.

سادساً: غزوة بني قريظة في السنة الخامسة من الهجرة(١)

بنو قريظة إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا يسكنون المدينة المنورة ووادعهم الرسول ﷺ لكنهم نقضوا عهودهم واحدًا بعد واحد، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ (البقرة: ١٠٠).

لم يكن في استطاعة الرسول ﷺ التسامح مع يهود بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم، وكادوا يتسببون في القضاء على المسلمين، لذا رأى النبي ﷺ أن تأديبهم أمر لا مناص منه؛ لأن وجودهم في المدينة المنورة فتنة تهدد المسلمين، لذلك وجب قتالهم، وتعين قتلهم أو إجلاؤهم عن البلاد وإخراجهم منها.

لم يكد يرجع الرسول ﷺ وأصحابه من غزوة الخندق حتى أمره الله عز وجل أن يغزو بني قريظة، فأمر النبي الكريم ﷺ أصحابه - رضوان الله عليهم - بالتوجه إليهم، وأوصاهم بألا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة، فبادر المسلمون إلى الاستجابة لأوامر الرسول ﷺ، وساروا مسرعين وتبعهم الرسول ﷺ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف.

عندما رأى بنو قريظة أن المسلمين أحاطوا بهم تحصنوا بحصونهم، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة كان يجري خلالها تراشق بالنبال والحجارة، فلما رأى بنو قريظة شدة حصار المسلمين لهم، وأنهم مهددون بالفناء خارت قواهم، وضعفت نفوسهم، فأرسلوا إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يصالحهم كما صالح بني النضير من قبلهم، فيخرجوا من المدينة المنورة بما يحمل الإبل من المتاع، والأموال، وأن يأخذوا نساءهم وذراريهم معهم، ويتركوا الأرض بما فيها والحصون والدور والسلاح للمسلمين، لكن الرسول ﷺ لم يقبل ذلك منهم وأمرهم أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وأخيراً وافقوا على الاستسلام على

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٢٣٥ - ٢٤٠؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٤٩٦؛؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٨٢؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

أن يحكم في مصيرهم سعد ين معاذ - رضي الله عنه - ورأوا أنه سيرأف بهم، ويعطف عليهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس، ولما علم سعد - رضي الله عنه - بأنه قد حُكم في بني قريظة قال: « آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»، فقال: « إني أحكم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء فقال له الرسول ﷺ: «قد حكمت فيهم حكم الله يا سعد»، وبذلك تخلصت المدينة المنورة من تلك الفئات اليهودية الغادرة التي تتربص بالمسلمين الدوائر.

نتائج الغزوة

- نفذ الرسول ﷺ حكم القتل في ست مئة، وقيل سبع مئة من يهود بني قريظة، وحفرت خنادق أو أجاويد في سوق المدينة المنورة، وقتلوا فيها بشكل مجموعات.
- نجاة مجموعة قليلة من بني قريظة بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام.
- قسم الرسول ﷺ أموال بني قريظة وسباياهم على المسلمين بعد أن عزل الخمس لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.
- انتصار المسلمين على بني قريظة أدى إلى تصفية النفوذ اليهودي في المدينة المنورة، وبذلك أصبحت الكلمة الأولى والأخيرة في المدينة المنورة للإسلام والمسلمين.
- انطلق المسلمون بعد القضاء على بني قريظة إلى نشر الإسلام خارج المدينة المنورة.

الفصل الثامن

النشاط العسكري بعد غزوة بني قريظة حتى نهاية فتح مكة المكرمة

النشاط العسكري بعد غزوة بني قريظة حتى نهاية فتح مكة المكرمة

استثمر الرسول ﷺ، وأصحابه - رضوان الله عليهم - ما حققوه من نجاح في صد الأحـزاب وإفشال خططهم، ورد كيد بني قريظة في نحورهم فباشروا نشاطاً واسع النطاق، كما نفذوا العديد من السرايا والغزوات لمعاقبة المشركين من قريش وحلفائها، والثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء، وقد تمثل النشاط العسكري الإسلامي خلال تلك الفترة فيما يلي:

أولاً: صلح الحديبية - تاريخه - أسبابه - شروطه - نتائجه[1]

في يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة ست من الهجرة خرج الرسول ﷺ من المدينة المنورة متوجهاً بأصحابه إلى مكة المكرمة لأداء العمرة.

وكان سبب ذلك أن الرسول ﷺ رأى رؤيا في منامه أنه قد دخل مكة المكرمة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدياً العمرة، وقد ساق الهدي معظماً للبيت مقدساً له، فبشر الرسول ﷺ أصحابه ؛ ففرحوا فرحاً عظيماً، فقد طال عهدهم بمكة المكرمة وبالكعبة المشرفة التي طال بعدهم عنها.

تجهز الرسول ﷺ لدخول مكة المكرمة معتمراً، فخرج بمن معه من أصحابه من المهاجرين والأنصار، وبعض الأعراب، وبلغ عددهم ألف وأربع مئة وقيل ألف وخمس مئة ليس معهم سلاح إلا السيوف في أغمادها، وساق معه الهدي وكانت قرابة سبعين بعيراً، وأحرم بالعمرة بذي الحليفة بعد أن صلى ركعتين بالمسجد الذي بها ليأمن الناس من حربه ويعلموا إنه إنما خرج زائراً للبيت الحرام ، معظماً له، وأنه لا يريد حرباً، وإنما يريد الاعتمار لا غير.

لما وصل الرسول ﷺ عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي وأخبره بأن قريشاً وبعض حلفائها أجمعوا على منع المسلمين من دخول مكة المكرمة حتى ولو جاؤوا لأداء العمرة، وأنها أخذت تستعد لتنفيذ ما أجمعت عليه، وبعثوا خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس لمنعهم من دخول مكة المكرمة، فقال الرسول ﷺ: « يا ويح قريش قد أكلتهم

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٩٦ - ٩٧ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٦٢١ - ٦٢٣ ؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٥٧٢، ٦٠٠ - ٦٠٣، ٧٤٩.

الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين، والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

استشار الرسول ﷺ أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض الرسول ﷺ على أصحابه - رضي الله عنهم - المشورة في هذا الأمر، فتقدم أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - برأيه، وأشار على الرسول الكريم ﷺ بترك قتالهم، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة حتى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن الرسول ﷺ هذا الرأي، وأخذ به، وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل.

سلك الرسول ﷺ مع المسلمين طريقاً بعيداً عن عيون قريش، ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى مكان يعرف بالحديبية على بعد ٢٢ كيلو متراً شمالي غربي مكة المكرمة (مكان قريب من مكة المكرمة بينها وبين طريق جدة الآن)، واطمأن الرسول الكريم ﷺ إلى النزول بهذا المكان الذي بركت فيه ناقته، وأمر صحابته بالنزول عندها.

١ - السفارة بين قريش والرسول ﷺ

لما تأكدت قريش أن الرسول ﷺ لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة بيت الله الحرام، وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم أرسلت قريش إلى الرسول ﷺ بعض السفراء لعلهم يجدون حلاً لتلك المعضلة، ويتعرفون أيضاً على قوة المسلمين، ومدى عزمهم على القتال إذا الجئوا إليه طمعاً في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية.

كان أول من جاء إلى الرسول ﷺ من قريش بديل بن ورقاء الخزاعي في وفد خزاعة فكلموه وسألوه عن السبب الذي جاء به إلى مكة المكرمة فأخبرهم بأنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت الحرام، ومعظماً لحرمته.

عاد الوفد إلى قريش يخبرهم أن محمداً ﷺ لا يريد قتالاً، وإنما جاء زائراً للبيت الحرام، فقال القرشيون: « والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ثم أرسلت قريش إلى الرسول ﷺ مكرز بن حفص بن الأحنف، ولما وصل إلى الرسول ﷺ وكلمه عن سبب مجيئه قال له ﷺ نحواً مما قال لبديل بن ورقاء، وأصحابه، فرجع مكرز، وبلّغ قريشاً ما سمعه من الرسول ﷺ.

ثم جاء سفير آخر من قريش اسمه الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول ﷺ قال : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراها، فلما رأى الهدي قال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، وعاد إلى قريش دون أن يقابل الرسول ﷺ، وقال لهم : « يا قوم قد رأيت ما لا يحل صده الهدي في قلائده»، فقالوا: «اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك»، فقال : «والله ما على هذا حالفناكم أن تصدوا عن البيت من جاء معظماً له، والذي نفسي بيده لتخلنَّ بين محمد والبيت أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد».

وكان هذا مما أوقع الوهن في نفوس القرشيين، وحاولوا تلافي هذا الموقف الذي يهدد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحابيش، وقالوا لزعيم الأحابيش : « إن كل ما رأيت هو مكيدة من محمد وأصحابه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

اختار القرشيون سفيراً آخر هو عروة بن مسعود الثقفي للتفاوض مع الرسول ﷺ، وكان عروة قد رأى أنهم لا يقبلون نصيحة ولا رأي من يرسلونه إلى الرسول ﷺ بأنه جاء زائراً للبيت الحرام، ولم يأت مقاتلاً ، واتهمتهم وأسمعتهم ما يكرهون، لذلك قال لهم عروة بن مسعود قبل الخروج للتفاوض مع الرسول ﷺ : « اسمع منكم ما أكره» قالوا : «ما أنت عندنا بمتهم»، فخرج حتى قابل الرسول ﷺ، وحاول أن يضعف عزيمته، ويلقي في نفسه أن أصحابه سيتركونه لقريش، ويفرون إذا تصدت لهم، وكان رد الرسول ﷺ له : أنهم جاؤوا زوّاراً للبيت الحرام كما يزوره غيرهم، فيجب ألا يصدوا عنه، ولا يردوا.

عاد سفير المشركين عروة بن مسعود إلى القرشيين، وذلك بعد أن رأى ما يصنع له أصحاب الرسول ﷺ من التقدير والاحترام، وقال لهم : « يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، إني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، فقالت قريش : لا تكلم بهذا يا أبا يغفور (كنية عروة بن مسعود)، لو غيرك تكلم به للمناه، ولكن نرده عن البيت في عامنا هذا، ويرجع في العام المقبل.

لم يسمع القرشيون ما قاله عروة وما رغبهم فيه من الصلح فانصرف هو ومن معه تبعة إلى الطائف ثم أسلم عروة بعد ذلك لما انصرف رسول الله ﷺ عن ثقيف ثم قتل لما دعاهم للإسلام.

٢ - الوفود النبوية إلى قريش وبيعة الرضوان

لما لم تنجح سفارات قريش مع الرسول ﷺ رأى الرسول الكريم أن يبعث إلى قريش وفداً من صحابته - رضوان الله عليهم - يؤكد لهم أن المسلمين جاؤوا لزيارة بيت الله الحرام، ولا نية لهم في القتال، وأن معهم الهدي سينحرونه وكان مبعوث الرسول ﷺ إليهم خراش بن أمية الخزاعي وحمله على جمل يقال له (الثعلب) فلما دخل مكة المكرمة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش.

عاد خراش إلى الرسول ﷺ وأخبره بما صنعت قريش، وكان في تلك الأثناء قد بعثت قريش فريقا من رجالها ليهاجموا المسلمين على غرة بالحديبية فقبض عليهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فعفا عنهم رسول الله ﷺ إظهاراً للنية الحسنة التي جاء بها إلى مكة المكرمة فقد جاء للعمرة ولا يرغب في القتال.

لم ييأس الرسول ﷺ من مقاومة قريش فقرر أن يرسل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليبين لهم مقصد المسلمين، ولكن عمر - رضي الله عنه - اعتذر بأن قريشاً تعلم عداوته لها، ولا يستطيع بنو عدي حمايته، وأشار بإرسال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - لمفاوضة قريش.

أوفد الرسول ﷺ عثمان بن عفان - رضي الله عنه فدخل مكة المكرمة، وكلّم زعماءها رجلاً رجلاً، وكان رد القرشيين كالعادة « إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً هذا العام».

عندما لم يعد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من مكة المكرمة بعد أن قضى فيها ثلاثة أيام ذاع وأشيع بين المسلمين أنه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول ﷺ قد أذن لهم بالذهاب إلى مكة المكرمة لزيارة أهلهم، فوقف الرسول ﷺ إثر ذلك يخطب قومه قائلاً : « إن كان حقاً ما سمعنا فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم البيعة البيعة أيها الناس»، فتوافد المسلمون يبايعونه على ألا يفروا، ولما انتهى الجميع من مبايعته ضرب الرسول ﷺ يداً على الأخرى، وقال: «هذه عن عثمان»، فنال عثمان بذلك فضل البيعة، وقد سميت تلك البيعة ببيعة الرضوان ؛ لأنه سبحانه وتعالى رضي عن المؤمنين، قال تعالى :﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح: ١٨).

ثم تبين للرسول ﷺ أن خبر مقتل عثمان والمسلمين - رضي الله عنهم - الذين دخلوا مكة المكرمة لزيارة أهلهم كان إشاعة غير صحيحة، فقد عادوا جميعاً إلى الرسول ﷺ سالمين.

أخبر عثمان بن عفان - رضي الله عنه - الرسول ﷺ أن قريشاً رغم قناعتها بغايات الرسول ﷺ والمسلمين السلمية إلا أنها أصرت وأقسمت ألا يكون لهم في هذا العام عمرة.

٣ - شروط صلح الحديبية وما ترتب عليه من نتائج

عندما علمت قريش بهذه البيعة فأشار أهل الرأي منهم بالصلح على أن يعود في العام المقبل أوفدت قريش سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة الرسول ﷺ، وقالوا له ائت محمدًا فصالحه ولا يكن إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فلما أقبل سهيل قال رسول الله صلى عليه وسلم : «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

اجتمع الرسول الكريم ﷺ بسهيل بن عمرو اجتماعاً طويلاً، اتفق خلاله الطرفان من حيث المبدأ على بعض النقاط، واختلفا على البعض الآخر، وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بينهما وتوصلا إلى صلح الحديبية المشهور.

٤ - أهم شروط صلح الحديبية

اتفق الرسول ﷺ وسهيل بن عمرو على الشروط الآتية:

١ - أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين لمدة عشر سنين.

أن يرجع الرسول ﷺ هذا العام دون دخول مكة المكرمة، فإذا كان العام المقبل دخل مكة المكرمة بعد أن يخرج منها قريش ليس معه إلا سلاح المسافر لمدة ثلاثة أيام.

٢ - من أحب أن يدخل في عهد الرسول ﷺ دخل ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل، فدخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

٣ - أن يرد المسلمون من أتاهم من قريش، وألا ترد قريش من أتاهم من المسلمين.

وقد رأى بعض المسلمين في تلك الشروط ضعفاً ومذلة أمام كبرياء قريش، وأصابهم غم وحزن حتى أنهم تأخروا عن تنفيذ أوامر الرسول ﷺ حين أمرهم بذبح الأضاحي وحلق الرؤوس، ثم قاموا بذلك بعد أن نحر الرسول ﷺ هديه وحلق رأسه وزاد في ألم المسلمين ما رأوه من إعادة أبي جندل بن سهيل بن عمرو بموجب المعاهدة وقد جاء معلناً إسلامه،

وطالب سهيل بن عمرو بموجب المعاهدة الموقعة رده إليه، فرده الرسول ﷺ، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الناقمين على هذا الصلح إلى أن زالت الشكوك من نفوس المسلمين حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١).

وكان لهذا الصلح نتائج وآثار بعيدة وعظيمة، وكان فتحاً رائعاً بالنسبة للإسلام والمسلمين وكان من أهم تلك النتائج:

- أتاح صلح الحديبية للمسلمين فرصة نشر دين الله سبحانه وتعالى دون خوف من قريش.
- تفرغ الرسول ﷺ لغزو اليهود في خيبر، وَوَضَع حداً لشغبهم.
- استفاد الرسول ﷺ من فترة الهدنة فتفرغ لدعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام.
- كان شرط إعادة المسلمين الجدد متعباً لقريش حيث تجمع هؤلاء بين مكة المكرمة والمدينة المنورة فهددوا سلامة طرق قوافل قريش دون أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام مسؤولاً عنهم فجاءته قريش ترجوه التنازل عن ذلك الشرط، وقبولهم في المدينة المنورة.
- حالفت بعض القبائل الرسول ﷺ كبني خزاعة، بينما حالفت قريشاً بنو بكر وسيكون لتلك المحالفات أثرها في خلق الظروف لفتح مكة المكرمة.

ثانياً: مكاتبة الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام(١)

لم تكن دعوة الرسول ﷺ قاصرة على العرب دون غيرهم فهي دعوة عامة، خاطب الله في آياته المنزلة الناس جميعاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (النساء: ١).

استفاد الرسول ﷺ من الهدنة التي تمت بين المسلمين وقريش والمتمثلة في صلح الحديبية، وقام بدعوة الناس إلى الإسلام خارج حدود الحجاز والجزيرة العربية، وقد عبر الرسول ﷺ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء الجزيرة، وإلى جانب دعوة الأمراء والقبائل، فقد اختار الرسول أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٥٥ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٤٦ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،، ج٢، ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ابن حجر، فتح الباري، ج١، ص ٣٢، ج ٨، ١٦٣ ؛ رضا، محمد، محمد رسول الله، ص ٢٩٩ - ٣٠٢ ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص ٤٥٦ ؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل وكان لهذا الأسلوب أثر كبير في دخول بعضهم في الإسلام، وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت وبينت تلك الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة المنورة، وبذلك حققت تلك الرسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه تلك الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومميزاً.

بدأت مراسلة الرسول ﷺ للملوك والأمراء ورؤساء القبائل في أواخر السنة السادسة وأوائل السنة السابعة للهجرة كما جاء في معظم المصادر التي تم الرجوع إليها، ويلاحظ الباحث أن الوصف العام لكتب ورسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً وهو دعوتهم إلى الدين الحق الذي أرسل به لهداية الناس جميعهم.

بعث الرسول ﷺ الرسل تحمل كتبه إلى هرقل ملك الروم، وكسرى ملك فارس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر والإسكندرية، والحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق، وهودة بن علي صاحب اليمامة، والمنذر بن ساوى أمير البحرين، وجيفر وعبد ابني الجلندي بعمان.

ثالثاً: نماذج من كتب «رسائل» النبي ﷺ إلى الملوك

١ - كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم

كان إرسال كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل في السنة السادسة من الهجرة بعد رجوعه ﷺ من صلح الحديبية، وكان وصوله إليه في المحرم من سنة سبع من الهجرة، وقد أمر رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي أن يدفعه إلى أمير بصرى وهو الحارث ملك غسان ليبلغه إلى هرقل وجاء نص الكتاب كما يلي: « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الإريسين (أي الفلاحين) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ولما وصل الكتاب إلى هرقل أرسل رجالاً ليأتوا برجل من العرب يعرف الرسول ﷺ، فوجدوا أبا سفيان في ركب من قريش، فأتوا بهم إلى هرقل، فسألهم أيهم أقرب إلى الرسول ﷺ نسباً، فأخبروه بأنه أبو سفيان، فأدناه منه، وأجلس بقية

الناس وراءه وقال لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل (أي الرسول ﷺ) فإن كذبني فكذبوه، فاستحى أبو سفيان أن يكذب، وقد جاء حوار هرقل مع أبي سفيان كاملاً في (الصحيحين) عندما سأله عن أحوال محمد ﷺ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان : «إن كان ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه».

ويتبين من رد هرقل وحواره مع أبي سفيان ميله إلى الإسلام ؛ لأنه كان عريقاً في المسيحية متمسكاً بها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يدعو قومه إلى اتباع الرسول ﷺ، وترك النصرانية وهو رئيسها في وقت كان يحتفل فيه باسترداد الصليب الأعظم من الفرس، وغلب عليه حب الملك، ولم يسلم، وتجمع المصادر التاريخية على أن هرقل أكرم موفد الرسول ﷺ إكراماً سخياً.

٢ - كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى ملك الفرس

أرسل الرسول ﷺ بكتاب إلى كسرى أبرويز ملك الأمبراطورية الفارسية مع عبدالله بن حذافة السهمي، أمر أن يسلمه إلى أمير البحرين، فيسلمه إلى كسرى وقد جاء في نص الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاة الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

غضب كسرى مما جاء في كتاب الرسول ﷺ، ومزق الكتاب، وقال : عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه بأن يمزق الله ملكه، واستجاب الله لدعائه، ومزق ملكه، فقد انهزم جيشه أمام الروم هزيمة منكرة، ثم ثار عليه ابنه (قياذ) المعروف بشرويه، فقتله، وأخذ ملكه، وتمكن الجيش الإسلامي في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من إنزال هزيمة ساحقة بالفرس سنة ١٦هـ، وسقطت عاصمتهم المدائن وغيرها من المدن الفارسية في أيدي المسلمين.

٣ - كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي أصحمة بن الأبجر

حمل عمرو بن أمية كتاب الرسول ﷺ إلى نجاشي الحبشة أصحمة بن الأبجر، وقد ذكرت كتب السيرة عدة رسائل تبادلها الرسول ﷺ مع النجاشي، وكانت تلك الرسائل

تحمل عواطف طيبة من النجاشي نحو الإسلام ورسوله ﷺ، وإذا صح ما ورد في تلك الرسائل فإن النجاشي قد أعلن في بعضها إيمانه، ودخوله في الإسلام حيث يقول في واحدة من رسائله : « فإني أشهد أن ما تقوله حق»، وقد شك بعضهم في إسلام النجاشي، لكن المصادر التاريخية الموثقة تصرح بإسلامه، وتعاطفه مع الدعوة الإسلامية أما نص الكتاب فقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم تسلم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

٤ - كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس ملك مصر

أرسل الرسول ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والأسكندرية كتاباً جاء نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وكان حامل الكتاب إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة – رضي الله عنه – وقد أكرم المقوقس وفادته، ووضع كتاب الرسول ﷺ في حق من عاج، وختم عليه، واحتفظ به، وكتب إلى الرسول الكريم كتاباً يقر فيه بأنه نبي قد بقي، وكان يظن أنه يخرج بالشام، ولكنه لم يسلم، وبعث المقوقس مع حامل الرسالة عدة هدايا كان من بينهما جاريتان هما :مارية وسيرين، وقد تزوج الرسول ﷺ مارية التي ولدت له إبراهيم، أما سيرين فقد أهديت إلى حسان بن ثابت – رضي الله عنه.

كما بعث الرسول ﷺ عدد من الرسائل إلى كل من: المنذر بن أبي شمر الغساني صاحب

دمشق، وهودة بن علي الحنفي صاحب اليمامة، والمنذر بن ساوى ملك البحرين وجيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان.

وأخيراً نستطيع أن نقول إن الرسول ﷺ باتخاذه لتلك السياسة يكون قد اتبع أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل، كما تعد رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء نقطة تحول في سياسة دولة الرسول ﷺ الخارجية، فقد عظم شأنها، وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول.

رابعاً: غزوه خيبر في السنة السابعة من الهجرة(١)

استأنف الرسول ﷺ نشاطه العسكري مع اليهود في خيبر، وكانت خيبر تبعد ١٧١ كيلومترا شمالي المدينة المنورة.

لم يظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنورة فحز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، وكان من أبرز زعمائهم الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكتامة بن الحفيف، وحيي بن أخطب.

وجد الرسول ﷺ في صلحه مع قريش فرصة مناسبة لتطهير الحجاز من اليهود وغدرهم خاصة بعد أن أكدت المعلومات له بعد عودته من الحديبية بأن يهود خيبر يخططون للهجوم على المدينة المنورة.

لم يمض نسوى شهر على عودة الرسول ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم - من الحديبية في ذي الحجة سنة ٦هـ حتى سار إلى خيبر في ألف وست مئة من أصحابه - رضوان الله عليهم - وكان منهم مائة فارس، وحمل راية المسلمين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكان ذلك في شهر محرم سنة ٧هـ، وفى أثناء توجه المسلمون إلى خيبر تحركت قبيلة غطفان من نجد لمساعدة يهود خيبر، فعمل المسلمون على خديعتهم حيث سربوا إليهم أخباراً بأن بعض المسلمين توجهوا للإغارة على ديارهم فصدقت غطفان الخبر ورجعت إلى ديارها تاركة يهود خيبر بدون مساعدتهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢٨ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٠١، ١٠٦، ١٠٩؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٦٤٣،٦٣٤، ٦٧٢،؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢١٦ ؛ ليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي،بيروت للطباعة، ١٩٦٠م، ج٢، ص ٦ .

كما تحرى الرسول ﷺ أن ينزل على خيبر من ناحية الشام في موقع بينها وبين ديار غطفان وذلك لكي يقف في وجه أي احتمال هجومي من غطفان أو يهود شمال الحجاز في الوصول إلى ساحة المعركة والاتصال بيهود خيبر.

وصل الرسول ﷺ وصحابته ليلاً إلى قرب خيبر ولم يتعرضوا لأهلها بأي أذى، وعندما خرج اليهود في الصباح إلى مزارعهم فوجئوا بالمسلمين فرجعوا إلى حصونهم وهم يرددون «محمد والخميس» يقصدون «الجيش» فحاصرهم الرسول ﷺ حصاراً شديداً، وكانوا بقيادة سلام بن مشكم، واستمات الطرفان في القتال وقُتل سلام فتولى قيادة اليهود من بعده «الحارث بن ربيب» وبعد قتال ثلاثة أيام قتل الحارث وسقط «حصن ناعم» وهو مستودع لذخائرهم، ثم سقط حصن الغموض ثم أخذت بقية الحصون تستسلم واحدة بعد الأخرى حتى اكتمل فتحها وأصبحت تلك المنطقة الحصينة وما فيها من أموال غنيمة للمسلمين.

وكان في نية الرسول ﷺ أن يجلي اليهود عنها، لكنهم طلبوا أن يبقوا فيها ويزرعوها مقابل أن يدفعوا نصف ما تنتجه الأرض إلى المسلمين، وسمي ذلك بالخراج، فوافقهم الرسول ﷺ على ذلك، وعلى أن يكون للمسلمين الحق في إخراجهم منها متى أرادوا، وقد بقوا فيها حتى أخرجهم منها الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.

عرض الرسول ﷺ على يهود «فدك» الاستسلام على شروط خيبر فقبلوا ذلك دون حرب، كما صالح يهود وادي القرى على تلك الشروط نفسها بعد مقاومة بسيطة خضعوا على إثرها لشروط المسلمين، واستسلم أيضاً يهود تيماء على الشروط نفسها.

نتائج الغزوة:

- استشهاد عشرين من المسلمين، ومقتل ثلاثة وتسعين من يهود خيبر.
- تم القضاء على كيان اليهود في جزيرة العرب.
- انتصار المسلمين في خيبر فتح الطريق أمام بقية التجمعات اليهودية الموجودة بالقرب من خيبر أو الواقعة شمال الجزيرة العربية لتعلن خضوعها لسلطة الرسول ﷺ.
- اتساع نفوذ دولة الرسول ﷺ من مكة المكرمة جنوباً إلى خيبر شمالاً.

خامساً: عمرة القضاء في ذي القعدة السنة السابعة من الهجرة(١)

في شهر ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة خرج الرسول ﷺ إلى مكة المكرمة قاصداً العمرة تنفيذاً لصلح الحديبية الذي أجل فيه المسلمون عمرتهم لعام، واشترطوا ألا يدخل السلاح إلا السيف في الجراب، وأن يقيموا بمكة المكرمة ثلاثة أيام يعتمرون ثم يعودون إلى المدينة المنورة لا يمسهم سوء.

دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة، ومعه أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - وقد شهد عمرة القضاء من المسلمين ألفان سوى النساء والصبيان، وكان منهم الذين شهدوا الحديبية.

طاف المسلمون بالكعبة المشرفة، وأمرهم الرسول ﷺ أن يظهروا القوة والجلد في طوافهم؛ لأن قريشًا أشاعت أنهم ضعفاء، وقد أوهنتهم وأضعفتهم حمى يثرب.

أقام الرسول ﷺ بمكة المكرمة ثلاثاً، ثم عاد إلى المدينة المنورة تنفيذاً لشروط الهدنة بين الطرفين، وسميت تلك الغزوة بغزوة القضاء، إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية، كما تسمى تلك العمرة بأربعة أسماء: القضاء - القضية - العصاص - الصلح.

سادساً: سرية أو غزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة(٢)

أسباب الغزوة

كان من جملة الكتب التي بعثها رسول الله ﷺ إلى الممالك النصرانية كتاب أرسله مع الحارث ابن عمير الأزدي إلى أمير بصرى من جهة هرقل، وهو الحارث بن شمر الغساني يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وقال له أين تريد ؟ فقال : الشام، فقال : لعلك من رسل محمد؟ قال : نعم، فأمر به فأوثق رباطه ثم قدمه فضرب عنقه، فلما بلغ رسول الله ﷺ اشتد عليه الأمر إذ لم يقتل له رسول من قبل، وكان هذا الاعتداء سبباً لدفع الرسول ﷺ إلى استنفار الجيش وتجهيزه وإرساله إلى البلقاء بالشام

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٧٠ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١١٨ ؛ الواقدي، المغازي، ص ٧٣٠ - ٧٣٢ ؛ خطاب، الرسول القائد، ص ٢١٠ ؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج١، ص ١٧٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٢٧ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٢٨ ؛ البلازري، أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٨٠ ؛ ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

لتأديب شرحبيل بن عمرو الغساني الذي خرج على التقاليد والأعراف السياسية والدينية التي لا تحبذ مبدأ قتل الرسل المبعوثين.

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي دفع الرسول ﷺ لإرسال تلك السرية أو الغزوة وإنما كان اهتمام الرسول ﷺ بالشام والجبهة الشمالية عظيماً وذلك لسببين الأول: ديني، فشمال جزيرة العرب هو طريق منطلق الدعوة الإسلامية وانتشارها خارج حدودها، والثاني : يتعلق بعوامل إستراتيجية تتعلق بغزو الروم وأنصارها من القبائل العربية الموالين للروم وبالتالي سبق الروم في التحرك في المنطقة قبل قيامهم بأي عمل ضد الدولة الإسلامية، وحمل الروم على الاعتراف بالدولة الجديدة، واستمالة القبائل العربية إلى جانبهم باعتبار أن تلك الخطوة الأولى في طريق نشر الدعوة الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية، فجاء قرار الرسول ﷺ بتنفيذ سرية أو غزوة مؤتة تأكيداً لهذه السياسة الهادفة إلى توجيه أنظار المسلمين إلى بلاد الشام.

استاء رسول الله ﷺ للاعتداء على رسوله، وكان لا بد من معاقبة من لا يقيمون للرسل حرمة، فأعد رسول الله ﷺ في جمادى الأولى من السنة الثامنة من الهجرة جيشاً بلغ عدده ثلاثة آلاف من المسلمين، وعين زيد بن حارثة مولاه أميراً عليه، فإذا أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإذا أصيب فعبد الله بن رواحة، وإذا قتل فليرتضِ المسلمون رجلاً فيجعلوه أميراً عليهم.

دعا رسول الله ﷺ الجيش مقدماً لأفراده نصائحه بألا يقتلوا النساء والأطفال، ولا المكفوفين، وألا يهدموا المنازل، وألا يقطعوا الأشجار.

استعد الروم لملاقاة المسلمين في منطقة البلقاء في شرق نهر الأردن بقوات كثيرة، وقد انضمت إليها القبائل العربية المحالفة للروم، وإذا كان الرقم الذي أوردته بعض المصادر التاريخية (وهو مائة ألف جندي) مبالغ فيه فإنه يدل بلا شك على كثرة هذا الجيش، مما جعل قادة المسلمين يتشاورون في أمر القتال، ويترددون في خوض معركة غير متكافئة مع عدد يفوقهم أضعافاً مضاعفة، وكان رأي الأغلبية من الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يطلبوا من الرسول ﷺ مدداً أو يأمرهم بأمر آخر فيمضون له، لكن بعضاً من المسلمين دفعهم الحماس إلى قتال الروم وعدم التراجع أو التوقف عن القتال، وكان من هؤلاء عبدا لله بن رواحة - رضي الله عنه - فوافقه الناس على قتال الأعداء.

جرت المعركة قرب مؤتة وهي قرية من قرى البلقاء حدود الشام وقيل من مشارف الشام وكانت معركة غير متكافئة لا من حيث العدد ولا الإمكانيات ولا الأساليب العسكرية التي عرف استخدامها الروم.

سقط قادة الجيش الإسلامي في ساحة القتال الواحد تلو الآخر، زيد وتبعه جعفر ثم عبد الله ابن رواحة - رضي الله عنهم - وبعد مقتلهم أخذ الراية ثابت بن الأمر - رضي الله عنه - ثم اتفق المسلمون على أن يتولى قيادتهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وكانت تلك الغزوة أول معركة يشارك فيها خالد ابن الوليد - رضي الله عنه- بعد إسلامه.

أدرك خالد بن الوليد رضي الله عنه خطورة الموقف فأعاد تنظيم جيشه وبدل الميسرة بالميمنة، وجعل قسماً من الجيش يتقدمون من الخلف كأنهم إمدادات جديدة لإيهام الروم، وتمكن من خلال ذلك من القيام بانسحاب منظم لم يفقده إلا القليل من جنده لم يتجاوز عددهم ثلاثة عشر شهيداً فقط.

أكدت بعض المصادر أن الجيش الرومي قد أحجم عن متابعة المسلمين عندما بدأ خالد ينسحب إلى داخل الصحراء عائدًا بهم إلي المدينة المنورة.

وبالرغم من نجاح الانسحاب فقد صاح الناس في المدينة المنورة في وجوه المسلمين القادمين من مؤتة مستنكرين عليهم انسحابهم ويحثون التراب عليهم ويقولون: يا فرار يا فرار، ويقول الرسول ﷺ: ليسوا بفرَّار ولكنهم الكرَّار إن شاء الله تعالى، وقدر الرسول ﷺ أهمية سلامة الجيش في ذلك الموقف الحرج، وأثنى على خالد بن الوليد رضي الله عنه ثناءً عظيماً لقيادته الحكيمة، ونجاحه في عملية الانسحاب وقد نبهت هذه الغزوة المسلمين إلى خطر الروم في بلاد الشام .

نتائج الغزوة

- تعد سرية أو غزوة مؤتة كما يطلق عليها بعض المؤرخين بالرغم من عدم مشاركة النبي ﷺ فيها بداية التحدي العسكري المباشر بين المسلمين وإمبراطورية الروم ذات الإمكانيات العالية .
- تعد غزوة مؤتة أول توسع خارج شبه الجزيرة العربية وأثبتت تعاظم قوة المسلمين العسكرية والمعنوية والتي دفعتهم إلى غزو الروم في عقر دارهم.
- فتحت المجال أمام القبائل العربية في بلاد الشام للدخول في الإسلام، ورفعت من مكانة الرسول ﷺ والمسلمين .

سابعاً: فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة الأسباب - الأحداث[1]

انتهزت قريش هزيمة المسلمين في معركة مؤتة ونقضت شروط صلح الحديبية الذي عقدته مع الرسول ﷺ حين ساعدت حلفاءها من بني بكر بالسلاح والمال ضد حلفاء المسلمين من بني خزاعة، فأوقعوا بهم بعض الخسائر في الأرواح والأموال عند مكان يدعى الوتير، وقد دفع هذا الموقف بني خزاعة بأن يستنجدوا بالمسلمين، فأرسلوا عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة المنورة فأنشد أبياتاً من الشعر أمام الرسول ﷺ يستنصره، فقال رسول الله ﷺ : «نصرت يا عمرو بن سالم ! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب».

انتهز الرسول ﷺ تلك الفرصة للقضاء على أعدائه القرشيين رغبة في دخول مكة المكرمة وضمها إلى المسلمين.

لم يفاجئ الرسول ﷺ قريشاً بالحرب، وإنما بعث إليهم يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بكر، أو القتال، فاختارت قريش القتال، ثم ما لبثت قريش أن ندمت على معاونتها لبني بكر، ورأت أن ما فعلته نقض صريح للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، ثم استقر رأيهم على أن يبعثوا أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليفاوض الرسول ﷺ في تجديد معاهدة الحديبية، وعندما وصل أبو سفيان إلى المدينة المنورة، ودخل على رسول الله ﷺ يعرض طلب قريش ورغبتها في تجديد الصلح، فأعرض عنه النبي ﷺ، ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال : أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رضي الله عنهم جميعاً - حتى يتوسطوا بينه وبين الرسول ﷺ فأبوا جميعاً.

عاد أبو سفيان إلى مكة المكرمة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد، وفشل في الحصول على وعد بتجديد المعاهدة.

وأمام نقض قريش للمواثيق والعهود عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة المكرمة، وتأديب كفارها، وقد ساعده على تحقيق ذلك عدة عوامل منها :

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٨٩ - ٣٩٦، ٤٠٨ - ٤٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٢٧٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٤٦ ٥٦ - ٥٧ ؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمر، الطبعة الثالثة، دار العلم، دمشق، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م، ص ٨٧ - ٨٨.

• أصبح للمسلمين قوة عسكرية كبيرة في المدينة المنورة، وذلك بعد أن تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وإجلائهم عن المدينة المنورة.

• ازدادت هيبة المسلمين لدى القبائل العربية ودخل العديد من تلك القبائل في الإسلام، وهذا يطمئن القيادة الإسلامية بسلامة قواتها عند تحركها لقتال أعدائها.

• ضعف قريش اقتصادياً وعسكرياً وفقدانها لمكانتها القديمة لدى القبائل العربية المجاورة، وقد شجع ذلك الرسول الكريم ﷺ على استغلال نقضهم للعهد والتوجه لمحاربتهم، والاستفادة من المعطيات الجديدة.

• قوة المسلمين اقتصادياً خاصة بعد فتحهم لخيبر في السنة السابعة للهجرة، وحصولهم على غنائم، وأموال كثيرة.

كان من أثر ذلك أن عقد الرسول الكريم ﷺ العزم على فتح مكة المكرمة، واستطاع الرسول ﷺ أن يخفي خبر الاستعداد لذلك الفتح حتى لا تستعد قريش للمقاومة فيدخل الرسول ﷺ مكة المكرمة دون قتال محافظاً على قبيلة قريش أن تستأصل.

استنفر الرسول ﷺ القبائل المسلمة التي حول المدينة المنورة، فاستجابوا له، وقد بلغ عدد الذين اجتمعوا إليه من المسلمين في النصف الأول من شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة قرابة عشرة آلاف سار بهم قاصداً مكة المكرمة، وبعث أمامه العيون والدوريات.

عزم الرسول ﷺ على فتح مكة المكرمة وخرج بعض رجالها يعلنون إسلامهم، ويلحقون بالمسلمين ومن هؤلاء العباس بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - عم النبي ﷺ، وأحاط المسلمون بمكة المكرمة، وأشعلوا النيران على هضباتها، ورجع العباس إلى مكة المكرمة لإقناع زعمائها بالخضوع والاستسلام حقناً لدمائهم، وصادف في طريقه إلى مكة المكرمة أبا سفيان فدعاه إلى الإسلام، فأسلم على يديه، وعاد معه إلى الرسول الكريم ﷺ يعلن إسلامه بين يديه، ثم عاد أبو سفيان إلى مكة المكرمة ينادي ويناشد قومه :» يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»، فوجدت نصيحته آذاناً صاغية عند معظم القرشيين، ورفض عدد قليل من المتشددين منهم نصيحة أبي سفيان، وقرروا محاربة الرسول ﷺ وكان منهم زوج أبي سفيان هند بنت عتبة التي شتمته وأسمعته كلاماً غير لائق.

وضع الرسول ﷺ خطة عسكرية لدخول مكة المكرمة فقسم قواته إلى أربعة أقسام يدخل كل قسم من إحدى جهات مكة المكرمة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأن يبذلوا جهدهم بالدخول سلماً وألا يريقوا دماً إلا عند الضرورة، أما القادة فكانوا :

- الزبير بن العوام، ومهمته أن يدخل مكة المكرمة من شمالها .
- خالد بن الوليد، ومهمته أن يدخل مكة المكرمة من جنوبها.
- أبو عبيدة بن الجراح، ومهمته أن يدخل مكة المكرمة من شمالها الغربي.

سعد بن عبادة وكان يتألف جيشه من الأنصار، ومهمته أن يدخل مكة المكرمة من غربها، وقد عزله رسول الله ﷺ من مركز القيادة لأنه تحمس قائلا : اليوم يوم الملحمة - اليوم تستباح الحرمة! وهذا يخالف وصايا الرسول ﷺ، ويؤذي عواطف المهاجرين، وعهد الرسول ﷺ بقيادة تلك الكتيبة إلى أبي قيس ابن سعد بن عبادة، وكان هذا أهدأ أعصابا من أبيه.

لم يقع قتال يذكر بين المسلمين وقريش إلا مناوشات بسيطة بين القوة الإسلامية التي دخلت مكة المكرمة من أسفلها وبعض المقاومين من قريش، ولكن خالد بن الوليد الذي أسند إليه الرسول ﷺ قيادة جزء من الجيش الإسلامي تمكن من القضاء على تلك المقاومة القرشية في يسر، وأقبل الرجال والنساء فرادى وجماعات يبايعون الرسول، ويدخلون في الإسلام، وعرف اليوم بـ (يوم الفتح) .

ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى في معاملة خصومه، فأكرم استقبالهم، وقبل إسلامهم، وحفظ عليهم كرامتهم، وأعلن الأمان للجميع، إلا أنه استثنى بعضاً من الدخول في الأمان، وأمر بقتلهم، وإراقة دمهم.

كان أكثر الذين أمر الرسول بإراقة دمائهم قد أسلموا، وحسن إسلامهم، وكان منهم على سبيل المثال لا الحصر : عبد الله بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، وهند بنت عتبة.

كان أول عمل قام به الرسول ﷺ بعد فتح مكة المكرمة الطواف حول الكعبة المشرفة، وإزالة الأصنام، وتحطيمها بيديه الكريمتين وهو يقول :﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء: ٨١) ، وكان عدد تلك الأصنام ٣٦٠ صنماً، ثم وقف الرسول

ﷺ على باب الكعبة المشرفة وقريش صفوف في المسجد ينظرون ماذا سوف يصنع فقال: « لا اله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ثم قال: « يا معشر قريش ما تروني فاعل بكم ؟» قالوا: «خيرًا أخٌ كريم وابن أخٍ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

وهكذا أصدر رسول الله ﷺ العفو العام فكسب بذلك القلوب وضرب مثلًا أعلى للتسامح والعفو عند المقدرة وتناسى الأحقاد .

أقبل أهل مكة المكرمة يعلنون إسلامهم بين يدي رسول الله ﷺ يستغفرون ربهم عما بدر منهم ثم جاءت بعض النساء للبيعة فقرأ الرسول ﷺ عليهن شروطاً ثم تولى عمر - رضي الله عنه - يبايعهن.

أمر الرسول ﷺ بلال بن رباح - رضي الله عنه - أن يرفع صوت الحق من على ظهر الكعبة المشرفة معلناً: (الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله) إلى آخر الأذان، وقد كره بعض حديثي الإسلام من قريش رؤيتهم وسماعهم لذلك، ثم ندموا على ما قالوا بعد أن حسن إسلامهم.

وبعد نجاح الرسول صلي الله عليه وسلم وصحابته الكرام في فتح مكة المكرمة تخوف الأنصار وتهامسوا فيما بينهم متسائلين هل سيبقى الرسول ﷺ في بلده وبين أهله بعد أن عاد إلى مكة المكرمة؟ فسارع الرسول ﷺ ليقول لهم :» معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم» فهدأت نفوسهم.

نتائج فتح مكة المكرمة

- انهارت دعامة الوثنية في جزيرة العرب، وزالت أكبر عقبة في طريق انتشار الإسلام.
- أدى فتح مكة المكرمة إلى توسع دولة الرسول ﷺ ليشمل المدينة المنورة ومكة المكرمة وخيبر.
- كان عدد من استشهد من المسلمين في هذا الفتح رجلين، وكان عدد المشركين القرشيين حوالي ثلاثة عشر رجلاً، وقيل أكثر من ذلك العدد.
- نهى الرسول ﷺ عن الهجرة بعد فتح مكة المكرمة.
- أرسل الرسول ﷺ بعد فتح مكة المكرمة بعض سراياه إلى ظواهر مكة المكرمة وضواحيها لدعوة أهلها إلى الإسلام والقضاء على معالم الوثنية فيها.

الفصل التاسع

المرحلة الأخيرة من جهاد الرسول ﷺ حتى وفاته

المرحلة الأخيرة من جهاد الرسول ﷺ حتى وفاته

أولاً: غزوة حنين وحصار الطائف في السنة الثامنة من الهجرة[1]

أسباب غزوة حنين وأحداثها

كانت مكة المكرمة تحمل لواء المقاومة للإسلام قبل أن يفتحها الرسول ﷺ، فلما فتحت اعتبرت قبيلة هوازن المنتشرون انتشاراً واسعاً في نجد، وقبيلة ثقيف أهل الطائف ذلك ضربة قاضية للوثنية في جزيرة العرب، وأيقنوا أن الضربة الآتية سيوجهها الرسول الكريم ﷺ إليهم لارتباط الطائف بمكة المكرمة في الجاهلية، ولما سبق أن قاموا به من شتم وسب وأذى للرسول ﷺ حينما أراد الهجرة إليهم.

واعتقدت قبيلتا هوازن وثقيف أنهما سيستطيعان ملء الفراغ الذي حدث بعد استسلام مكة المكرمة، وأن لديهم القدرة في تزعم معسكر الكفر، فسولت لهما نفسيهما أن تحاربا المسلمين قبل أن يحاربوهما، وهذا ما تؤكده المصادر الإسلامية مجتمعة في رواياتها بأن غزوة حنين كانت نتيجة طبيعية لفتح المسلمين لمكة المكرمة، وخضوع قريش ودخولها في الإسلام، وقد أدى ذلك إلى تخوف هوازن وثقيف وقالوا : قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزنا»، وأجمعوا أمرهم على ذلك، وولوا عليهم مالك بن عوف النضري، فاجتمع إليه هوازن وثقيف، وبنو هلال، وكان فيهم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي، وشدة البأس، وحسن الرأي والمشورة، وكان رأي مالك ابن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء، والذراري، والأموال حتى لا يفر أحد منهم، فلما علم بذلك دريد سأله: لِمَ ذلك؟ فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن، والله وهل يرد المنهزم شيءٌ، إنها إن كانت لك لا ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ولكن مالك لم يسمع لمشورته ونفذ ما أراد.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ٤٣٧، ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٧٨، ٤٩١ ؛ الواقدي، المغازي، ج٣، ص ٨٨٩ - ٨٩٣، ٩٢٢، ٩٢٤، ٣٦٢ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٧؛ شاكر، موسوعة غزوات الرسول، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

ترأس مالك بن عوف جمع هوازن وثقيف، وحشد قواتهم لقتال المسلمين بعد أن سمعوا بفتح مكة المكرمة، واستسلامها لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأصحابه - رضوان الله عليهم.

قاد مالك الجموع فنزل بهم وادي أوطاس أو حنين، واعتلى بهم قمم المرتفعات المطلة على الوادي، وحشد النساء والأطفال، والأنعام خلف الرجال ليستميتوا في القتال.

لما علم الرسول ﷺ بذلك التجمع خرج لقتالهم في الأيام الأولى من شهر شوال سنة ثمان للهجرة، وكان معه اثنا عشر ألف رجل، وقد أدخلت كثرة الجيش الإسلامي الخيلاء والغرور والعجب في نفوس بعض المسلمين قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ (التوبة: ٢٥).

دخل المسلمون وادي حنين، ولم يكونوا يعلمون أن المشركين قد كمنوا لهم، وكانوا في مطلع الصباح، وقد فوجئت جموع المسلمين بهجوم مباغت من الأعداء فتفرقت طلائعهم خصوصاً من الطلقاء من أهل مكة المكرمة، واضطربت صفوف الجيش الإسلامي، واختلط الحابل بالنابل، ودبت الفوضى في صفوف المسلمين، وكان الوضع ينذر بأسوأ مصير للمسلمين.

ثبت الرسول ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار، وكان ممن ثبت معه عمه العباس، وأبو بكر، وعمر، وعلي، وغيرهم - رضي الله عنهم - ثم أخذ الرسول ﷺ يحث المسلمين على القتال قائلاً: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب)، وأخذ أبو سفيان بن الحارث بلجام بغلته، والعباس بركبته لئلا يسرع نحو العدو، فنزل رسول الله ﷺ عن البغلة ودعا ربه، واستنصره، وأمر العباس بن عبدالمطلب وكان جهوري الصوت أن ينادي أصحابه فنادى: «يامعشر الأنصار ... يا معشر المهاجرين ... يا أصحاب الشجرة» فلما سمع المسلمون نداءه أجابوه: « لبيك لبيك» وسارعوا نحو الرسول ﷺ، والتف حول الرسول ﷺ قرابة مائة من الأنصار، قاتل بهم المشركين إلى أن عاد بقية المسلمين للقتال من جديد، وتمكنوا من هزيمة هوازن وثقيف، وتفرقت فلولهم، وتراجع بعضهم باتجاه الطائف، وكان في مقدمتهم مالك بن عوف، وذهب آخرون إلى سهل أوطاس ونخلة منهزمين يطاردهم المسلمون، وقد خلفوا وراءهم الكثير من الغنائم والسبي والأسر مما لم يغنم المسلمون مثلها من قبل، ووجه الرسول ﷺ إلى المنهزمين بعض رجاله ليعقبوهم ويطاردوهم.

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن من بين الغنائم اثنين وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، مع ستة آلاف من السبي والأسر، وقد أمر الرسول ﷺ بجمع ذلك كله بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو حتى يفرغ من أمر العدو.

وقدر البعض عدد القتلى في جيش هوازن وثقيف باثنين وسبعين قتيلاً، وكان عدد من استشهد من المسلمين أربعة شهداء كما ورد في معظم الروايات التاريخية.

حصار الطائف

تقدم الرسول ﷺ وأصحابه إلى حصار الطائف بعد أن التجأ إليها زعيم هوازن مالك بن عوف ورجال قبيلته، ورجال قبيلة ثقيف بعد هزيمتهم في حنين وكانت الطائف إذ ذاك محصنة، ويحيط بها سور يحول دون اقتحامها.

أمر الرسول ﷺ بحصار الطائف مع البعد عن أسوارها ؛ لأن رجال ثقيف وهوازن صاروا يرمون المسلمين بنبالهم، فاستشهد عدد من المسلمين، وجرح كثيرون.

وفي هذه الغزوة استخدم الرسول ﷺ عدة وسائل في الضغط والهجوم على الطائف، وكان من تلك الوسائل : استخدام المنجنيق في رمي الحصون بالحجارة والنار، واستخدام بعض المركبات الخشبية التي استخدمت لحماية المحاربين خلال تقدمهم لكي يقوموا بعملية ثقب السور، ولكن أهل الطائف عملوا على إلقاء النار على تلك المركبات فأحرقتها، كما أحرق المسلمون مزارع الأعناب التي كان أهل الطائف قد اشتهروا بزراعتها، ومن الوسائل أيضاً حرض الرسول ﷺ رقيق أهل الطائف على الهروب من أسيادهم لقاء حصولهم على الحرية فنزل إليه ثلاثة وعشرون رجلاً فأعتقهم رسول الله ﷺ، ووكل أمر النفقة عليهم إلى بعض المسلمين، ورغم كل تلك الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم - إلا أن أهل الطائف ومن معهم استمروا في مقاومتهم، ودافعوا عن مدينتهم بكل بسالة وشجاعة.

ويذكر البعض أن عدد من استشهد من المسلمين في حصار الطائف اثنا عشر شهيداً في حين لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة بسبب امتناعهم بالحصون والأسوار.

هناك بعض الروايات تشير إلى أن الرسول ﷺ لم يقصد بحصار الطائف فتحها بل كسر شوكة ثقيف، وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاؤوا دخلوها، كما أنه كان يحرص على ثقيف حرصه على قريش من قبل، وكان الرسول ﷺ

قد سعى في نشر الدعوة فيهم منذ المرحلة المكية، ودعا لهم بالهداية بعد أن رفضوا دعوته وعاملوه معاملة سيئة، وقد سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ أن يدعوا على ثقيف، فدعا بقوله: «اللهم اهد ثقيفاً».

أخبر الرسول ﷺ أصحابه - رضوان الله عليهم - بعد أن طال حصارهم للطائف لأكثر من خمسة عشر يوماً أن الله لم يأذن بعد في فتح الطائف، فلما حل شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم رفع الرسول ﷺ حصاره عن الطائف، وانصرف عائداً إلى الجعرانة، وكان ذلك في الخامس من ذي القعدة، وكان قد ترك الرسول ﷺ الغنائم والسبي التي حصل عليها في غزوة حنين، فقام بتوزيعها، وأجزل العطاء لحديثي العهد بالإسلام (المؤلفة قلوبهم) من مسلمي الفتح ولبعض القبائل يسترضيهم بها، ويؤلف بها قلوبهم.

لما رأت الأنصار ما أعطاه الرسول ﷺ لقريش وبعض قبائل العرب من غنائم، وأموال، ولم يعطهم منها شيئاً تكلموا في ذلك، وقالوا: «حنَّ الرجل إلى أهله». فجمعهم رسول الله ﷺ منفردين، وخطب فيهم، وكان مما قاله: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟، وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟»، وكلما قال شيئاً قالوا «الله ورسوله آمين» قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟ قال لو شئتم لقلتم كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً، وسلكوا شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار»، فبكى القوم حتى ابتلت لحاهم، وقالوا: بلى رضينا برسول الله قسماً وحظاً، وتفرقوا، وبذلك هدأت نفوسهم.

وبعد انتهاء عمل التوزيع جاء وفد من هوازن ليعلن الإسلام ويطلب رد سبي قبيلتهم، فأعلن الرسول ﷺ أن ما كان له ولبني عبدالمطلب فهو لهوازن، وأعاد ما أخذه إلى الوفد، فأعلن معظم المسلمين رد ما أخذوه مقلدين الرسول ﷺ بذلك، ووعد الرسول ﷺ من تمسك بحصته أن يعوضه خيراً منها من غنائم قادمة فرد الجميع سبي قبيلة هوازن إليها.

ثم أحرم رسول الله ﷺ بالعمرة من الجعرانة، ودخل مكة المكرمة المكرمة، وبقي بها عدة أيام ثم عاد إلى المدينة المنورة مع أصحابه بعد أن استخلف على مكة المكرمة عتاب بن أسيد - رضي الله عنه - لينظم أمور المسلمين بها، كما ترك معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنهما - ليعلما الناس القرآن ويفقهوهم في الدين.

وبعد عدة أشهر من رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة قدم إليه وفد من الطائف، وفاوض الرسول ﷺ عن قومهم، وانتهت تلك المفاوضات بإسلامهم ودخول مدينتهم في الإسلام، وقبولهم تحطيم الأصنام.

نتائج غزوة حنين وحصار الطائف

- حوَّل الله هزيمة المسلمين إلى نصر مؤزر، وفرت فلول المشركين أمامهم تاركين نساءهم، وأولادهم سبايا، وأموالهم وأنعامهم غنائم.
- قتل في تلك الغزوة من الأعداء سبعون رجلاً، واستشهد جماعة من المسلمين.
- تعد غزوة حنين درساً للمسلمين وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥).
- استخدم المسلمون المنجنيق والدبابة لأول مرة في حروبهم.
- دخول أهل الطائف الإسلام، وبإسلامهم غدت جميع مدن الحجاز خاضعة للمسلمين، ويديرها أمراء عينهم رسول الله ﷺ.
- استفاد الرسول ﷺ من كثرة الغنائم التي حصل عليها في معركة حنين، وحاول أن يجتذب قلوب زعماء القبائل الذين قاتلوا معه، أو الذين تعاونوا معه في دخول مكة المكرمة بدون قتال.
- دخول مالك بن عوف في الإسلام، ونجاحه في إقناع العديد من القبائل في الدخول في الإسلام.

غزوة تبوك «العسرة» في السنة التاسعة من الهجرة(١)

ثانياً: زمانها - مكانها - أسماؤها

خرج الرسول ﷺ لهذه الغزوة في شهر رجب من العام التاسع الهجري بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر، وكان مكانها مدينة تبوك وهو موضع في شمال الحجاز

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٥١٥ - ٥١٦؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٦، ص ٢٣٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١٨٩، ١٩٢؛ صحيح مسلم، ج٤، ١٧٨٤، رقم ٧٠٦؛ الطلابي، السيرة النبوية، ص ٧٤٩.

يبعد عن المدينة المنورة بنحو ٧٧٨كم حسب الطريق المعبد في الوقت الحاضر، وكانت تبوك من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك.

اشتهرت تلك الغزوة باسم غزوة تبوك نسبة إلى مكان يعرف بعين تبوك، والتي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وسميت بغزوة العسرة ؛ وذلك لما أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى :﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧).

ولهذه الغزوة اسم ثالث هو الفاضحة، وسميت بذلك لأن تلك الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية ضد المسلمين.

أسباب الغزوة

تعددت الأسباب والدوافع لهذه الغزوة وهي آخر غزوة غزاها النبي ﷺ ومنها :

رأى رسول الله ﷺ أن يقضي على الآثار التي خلفتها سرية أو غزوة مؤتة، ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أي تهديد من قبل الروم، فلما تم له فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائداً إلى المدينة المنورة وقرر غزو حدود بلاد الشام الشمالية المتاخمة لأعالي الحجاز ليوطد نفوذه بتلك المنطقة، ويدعوا أهلها إلى الإسلام، ويبين لأنصاره الجهة التي سيغزونها ليتدبروا أمرهم ويأخذوا أهبتهم للقاء عدوهم.

كان لمبادرة المسلمين في مؤتة صدى كبير عند النظام البيزنطي حيث أدرك قيصر الروم خطورة القوة الإسلامية الجديدة التي يمكن لها بعد ذلك أن تهدد إمبراطوريته، ودفع كثير من ولاياته إلى الاستقلال عن تبعيته، والتحالف مع المسلمين بعد اعتناقهم الدين الجديد.

وأمام هذه المخاطر لم يكن لقيصر الروم أن يقف موقف المتفرج أو مكتوف اليدين، وإنما بادر قبل أن تمر سنة كاملة على مؤتة إلى تهيئة جيش كبير من الروم والعرب التابعين له، وإعداد العدة اللازمة لخوض معركة دامية فاصلة تستأصل شأفة المسلمين.

عزم الرسول ﷺ على قتال الروم ؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، كما أنه رأى أن الوقت مناسب لنشر دعوة الدين القويم شمال الجزيرة العربية، وإظهار قوة المسلمين لمن كان هناك من العرب والروم.

رأى رسول الله ﷺ ضرورة إخضاع ما تبقى من نصارى العرب والروم الذين كانت بيزنطة تمدهم وتساندهم.

وصول الأنباء للرسول ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزبيب من الشام إلى المدينة المنورة أن الروم قد جمعت جموعاً كبيرة، وانضمت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء، وأن هرقل إمبراطور الروم قد أعطى الأرزاق لجنده لمدة سنة واحدة، وعزم على مهاجمة المسلمين.

تلكم أهم الأسباب التي قادت إلى تجهيز الجيش الإسلامي للتوجه إلى تبوك.

استعداد المسلمين للغزوة

بادر الرسول ﷺ بإعلان الجهاد، وأصدر أوامره بالاستنفار العام، وكان لابد من إعطاء تلك الغزوة مزيداً من الاهتمام والإعداد نظراً لأهمية وقوة العدو الذي سيواجهه المسلمون، بالإضافة إلى الظروف المناخية والاقتصادية والاجتماعية التي واكبت خروج هذه الغزوة، كما أن الهزيمة التي لحقت بالجيش الإسلامي بمؤتة كانت لا تزال عالقة بالأذهان، فخاف العرب المسلمون من تكرارها، والروم بلاد بعيدة عن قلب الجزيرة العربية وعن مراكز التموين والإمدادات، كذلك كان الجو شديد الحرارة، ووقت حصاد والناس في حالة استرخاء ينتظرون جني الثمار، وحصاد محاصيلهم مع نهاية موسم الزراعة.

وبسبب كل تلك الظروف جعلت الرسول ﷺ يعلن لأصحابه قبل الخروج إلى تبوك بوجهة توجهه وهدفه حتى يستعدوا للتوجه إلى محاربة عدوهم الأكبر الروم وكان من عادة الرسول ﷺ أن يخرج بهم دون أن يخبرهم بهدفه عن المكان الذي ينوي الاتجاه إليه إلا بعد خروجه، ولكن الأمر اختلف في تلك الغزوة حيث أمر الناس بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم.

رأى الرسول ﷺ أنه لابد من مواجهة التحدي البيزنطي رغم قسوة الظروف الاقتصادية والمناخية فكانت غزوة تبوك أو «غزوة العسرة» كما يطلق عليها البعض تمحيصاً كبيراً لمجتمع الرسول ﷺ.

حث الرسول ﷺ أصحابه على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها ولبقية الأسباب التي سبق ذكرها، ووعد الرسول ﷺ المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق المسلمون كل حسب مقدرته، فسارع أغنياء الصحابة، وفقراؤهم إلى تقديم الأموال.

وكان أول من جاء بماله أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - جاء بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال الرسول ﷺ : «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال : «أبقيت لهم الله ورسوله»، وجاء عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بنصف ماله، وأنفق عثمان بن عفان - رضي الله عنه - نفقة كبيرة حيث جاء بألف دينار فصبها في حجر الرسول ﷺ، والرسول ﷺ يقول : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»، ورددها مراراً، ويقال أيضاً إنه قدم معونات أخرى للجيش الإسلامي كالإبل وعدتها، وأنه قام بتجهيز ثلث الجيش - رضي الله عنه-.

لم يجد فقراء المسلمين إلا أن ينفقوا اليسير من المال وذلك على قدر استطاعتهم، فجاؤوا على استحياء متعرضين لسخرية المنافقين، فقد جاء خيثمة الأنصاري بصاع تمر فلمزه المنافقون، وجاء أبو عقيل بنصف صاع من تمر فقال المنافقون : « إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رياء»، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧٩).

موقف المنافقين في غزوة تبوك

قام المنافقون بحرب دعائية عند إعلان النفير العام لهذه الغزوة، فمضوا يدعون الناس على عدم الخروج قائلين : « لا تنفروا في الحر» وقد كان الحر شديداً آنذاك، والناس يفيئون إلى ظلال الأشجار، وكان المنافقون سيستغلون ذلك لإشاعة روح التخاذل وإضعاف معنوية المسلمين.

كما عمد المنافقون إلى أن يلمزوا كل من تطوع وتسابق إلى تقديم ما يستطيع في سبيل إعداد جيش هذه الغزوة، فمن تطوع وأنفق أموالاً كثيرة قالوا : « إنَّ ما فعل هذا رياء» ومن أسهم قدر استطاعته سخروا منه، وقالوا في حقه : « إن الله لغني عن صدقة هذا»، فنزلت فيهم الآية التي سبق ذكرها.

كان رهط من المنافقين يسيرون مع الرسول ﷺ في تبوك ويقولون فيما بينهم : « أتحسبون جلاء بني الأخضر كقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأننا بكم غدًا مقرنين في الجبال» إرجافاً وترهيباً بالمؤمنين، وحاول هؤلاء المنافقون بكل الطرق إضعاف معنوية المسلمين وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم.

حرص المنافقون على بناء مسجد لهم، وصفه القرآن بأنه (ضرار) ودعا المنافقون الرسول ﷺ حينما نزل بذي أوان (وهي بلد بينه وبين المدينة المنورة ساعة) أن يصلي لهم فيه، لكن الرسول ﷺ اعتذر لهم قائلاً : « إنَّا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما كان مرجعه من تبوك نزل عليه جبريل بخبر المسجد، فبعث رسول الله ﷺ من أحرقه وهدمه.

وتخلف معظم المنافقين عن الغزوة، ومضى بعضهم الآخر مع الجيش يغتنمون الفرص للكيد والإرجاف وإضعاف عزيمة المسلمين.

المتخلفون والبكاؤون

تخلف أناسٌ عن الخروج إلى تبوك - لا رغبة بأنفسهم عن رسول الله ﷺ - لكن غلبتهم نفوسهم لصعوبة الظروف ؛ فاعتذروا بعد عودة الرسول ﷺ، وقبل عذرهم، وتاب الله عليهم، وأرجأ توبة ثلاثة منهم امتحاناً لهم ؛ لأنهم كانوا من كبار الصحابة والمؤمنين الصادقين، وكانوا قد تخلفوا عنه وهم : كعب بن مالك - مرارة بن الربيع - هلال بن أمية، فصدقوا ولم يعتذروا، وأمرهم أن ينتظروا حتى يقضي الله فيهم، وأمر المسلمين وزوجات الثلاث ألا يكلموهم أو يتحدثوا إليهم، وعزلوا عن المجتمع عزلاً تاماً، فذاقوا مرارة المقاطعة التي أعلنها رسول الله ﷺ، فضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وظنوا أنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، ولما علم الله سبحانه صدق توبتهم، وبلغ منهم الألم والندم والحسرة مداها، تاب الله عليهم، فلما بشروا بذلك كانت فرحتهم كبيرة بعد عزلة عن المجتمع لأكثر من أربعين يوماً، وقد قال الله سبحانه وتعالى في هؤلاء الثلاثة : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

بلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً ورغبة في الجهاد، وتحرجاً من القعود، وذكرت المصادر التاريخية أن البكائين كان عددهم سبعة رجال من أهل الإيمان الصادق، والإسلام الحسن، وكانوا أهل حاجة وفقر فلم يجدوا زاداً ولا راحلة، وعز عليهم التخلف فقدموا إلى رسول الله ﷺ يبكون وقالوا : « احملنا يا رسول الله فكيف نتخلف؟!» فلم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه فرجعوا إلى بيوتهم يبكون حزناً لعدم قدرتهم على الخروج مع الرسول ﷺ للجهاد في سبيل الله

إسوة بإخوانهم من المسلمين، وقيل كانوا أكثر من سبعة وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة: ٩١ – ٩٢).

خص الرسول ﷺ هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم، واستقامت طويتهم بقوله ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم»، قالوا يا رسول الله: «وهم بالمدينة؟!» قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر».

التوجه إلى تبوك

لما تغلب الرسول ﷺ على الصعاب التي لاقاها في سبيل إعداد الجيش اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية، فخرج معه ثلاثون ألفاً من الرجال والخيل، ويدل عدد الجيش الإسلامي على مدى استجابة المؤمنين لدواعي العقيدة في تلك الظروف القاسية من الحر الشديد والعسرة، وهو أكبر جيش قاده الرسول ﷺ في حياته.

استخلف الرسول ﷺ على المدينة المنورة محمد بن مسلمة – رضي الله عنه – كما تخلف فيها علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقد كلف بأمور تستدعي بقاءه، ورفض الرسول ﷺ خروج المنافقين معه، وطلب من عبدالله بن أبي بن سلول أن يعود مع أصحابه إلى المدينة المنورة.

كان المسلمون يسيرون ليلاً ويستريحون نهاراً لشدة الحر حتى وصلوا إلى تبوك، ويظهر أن الروم كانوا يخشون الاصطدام بالعرب المسلمين في الصحراء، خاصة بعد أن بلغتهم أخبار عددِ الجيش الإسلامي الكبير القادم لمحاربتهم.

عسكر الرسول ﷺ في تبوك عشرين يوماً لم يقع خلالها أي قتال بينه وبين الروم، ثم رجع الرسول الكريم ﷺ ومن معه إلى المدينة المنورة دون أن يتابع السير إلى حدود بلاد الشام، ولما وصل إلى المدينة المنورة قال: هذه طيبة، وهذا جبل أحد نحبه ويحبنا، وخرج النساء والصبيان لاستقبال المسلمين، وكان الصبيان والجواري ينشدون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

نتائج الغزوة

- تعد غزوة تبوك من أهم الغزوات التي شارك فيها الرسول ﷺ، وهي أكبر وآخر حملة عسكرية قادها الرسول ﷺ قبل وفاته.
- كشفت هذه الغزوة تخوف الروم من المواجهة المباشرة مع المسلمين، وشعورهم بالضعف على الرغم من كثرة أعدادهم.
- عدم تخوف المسلمين من الروم، وارتفاع معنوياتهم، وإحساسهم بأنهم قادرون على محاربتهم والانتصار عليهم.
- تمكن الرسول ﷺ من عقد عدة معاهدات مع أمراء ورؤساء تلك الجهات على أن يدفعوا الجزية.
- حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سيطرة المسلمين على الأقسام الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وكسر خطوط المقاومة الأولى، ولم تعد تلك المناطق العربية تعيش في حماية الروم.

ثالثاً: عام الوفود (١)

كانت الوفادة إلى رسول الله ﷺ قد بدأت قبل الفتح، وقد توافد إليه البعض في أوائل سنوات الهجرة ؛ بل جاءت بعض الوفود قبل الهجرة، إلا أن الوفادة التامة وفي صورة متوالية ومستمرة إنما وقعت بعد تمكن المسلمين من تحدي الروم وأتباعهم في غزوة تبوك، وما إن عاد الرسول ﷺ من تلك الغزوة إلى المدينة المنورة حتى بدأت القبائل العربية ترسل وفودها إليه، وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة، ولذلك سمي العام التاسع بعام الوفود، كما امتد مجيء الوفود إلى السنة العاشرة بل إلى ما بعدها أيضاً.

كان معظم أعضاء تلك الوفود سادات القبائل ورؤسائها، وربما توافد الرجل وحده، أو توافد معه بعض رجال قبيلته، وكان الغرض المطلوب من الوفادة يختلف من وفد إلى وفد، فمنهم من جاء يريد السبايا كوفد هوازن، ووفد تميم، ومنهم من جاء يريد الأمان لنفسه فقط، أو لنفسه وقومه، ومنهم من جاء يفاخر ويباهي، أو يناظر ويجادل، ومنهم من جاء يطلب رد

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٤٢ - ٥٤٥، ٥٥٩ - ٥٦٠ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٤٠ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٩٥ ؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص ٥٤٢ - ٥٤٣.

الجيش الإسلامي كيلا يهجم على قومه، ومنهم من جاء يقر بالطاعة، ودفع الجزية، ومنهم من جاء يبدي رغبته في الإسلام، ومنهم من جاء مسلماً طائعاً ممثلاً لقومه يرغب في معرفة تعاليم الإسلام وأحكامه.

وكان من أبرز تلك الوفود : وفد تميم، ووفد طي، ووفد بني زبيد، ووفد بني عبس ووفد بني حنيفة، ووفد نجران، ووفد بني فزارة، ووفد همذان.

رابعاً: حجة أبي بكر - رضي الله عنه - في السنة التاسعة من الهجرة (١)

لم يحج الرسول ﷺ عام فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة بل اعتمر (أي أدى العمرة في ذلك العام) ورجع إلى المدينة المنورة، وقد حج المسلمون والمشركون معاً في ذلك العام، وكان بين الرسول ﷺ وبين قريش من المشركين عهد يتضمن : «ألا يصد عن البيت أحد جاءه، أو يحارب أحد في الشهر الحرام» كما كانت بينه وبين قبائل من العرب عهود خاصة لآجال معينة.

فلما كان العام التاسع أرسل الرسول ﷺ أبا بكر - رضي الله عنه - أميراً على الحج ليقيم بالناس المناسك، فخرج في أواخر ذي القعدة سنة ٩هـ في ثلاث مئة من أهل المدينة المنورة ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ، واختلف على ما كان مع أبي بكر من بدن خاصة به قيل أنها كانت خمسة من البدن،وقيل خمسة وعشرين بدنة، فلما وصل أبو بكر - رضي الله عنه - إلى ذي الحليفة (آبار علي) على بعد سبعة آميال عن المدينة المنورة أرسل الرسول ﷺ في أثره علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وطلب منه أن يقرأ سورة براءة على الناس يوم النحر، ولما رأى أبو بكر - رضي الله عنه - علياً سأله : «أميراً أم مأمورًا؟» فأجاب عليٌّ - رضي الله عنه - : «بل مأمور».

مضى أبو بكر - رضي الله عنه - أميراً للحج، وعلي - رضي الله عنه - يبلغ أوائل سورة براءة، وقد ذكر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه بعث بأربع : «ألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان - وقد كان رجال من المشركين يطوفون بالكعبة المشرفة عراة ليس على أحدهم ثوب، ويزعمون أنهم بذلك يعظمون حرمة بيت

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٤٣ - ٥٤٦ ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٢١٢ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ١٩٨ - ١٩٩ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٦٩.

الله الحرام – ولا يحج بعد اليوم مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته».

أقام أبو بكر – رضي الله عنه – للناس الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي – رضي الله عنه – فأذن (نادى) في الناس عند جمرة العقبة بمنى بما أمره به الرسول ﷺ وتنفيذا لما جاء في قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (التوبة: ٢٨).

ومما سبق نستطيع أن نصل إلى بعض النتائج، والتي منها :

- حرمة دخول الحرم على كافة المشركين والكافرين.
- علو مكانة أبي بكر وعلي – رضي الله عنهما – عند الرسول ﷺ.
- مشروعية تعيين أمير للحج.
- مشروعية سوق الهدي، وإرساله مع تخلف الهدي عن الحج.
- فرض الحج على المسلمين دون الكفار والمشركين في السنة التاسعة للهجرة، وكان أول من قاد المسلمين للحج أبو بكر الصديق وبصحبته ٣٠٠ رجل من أهل المدينة المنورة.
- نزول سورة براءة في تلك السنة.

خامساً: حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة[(١)]

لما اطمأن الرسول ﷺ إلى أن جزيرة العرب أصبحت كلها تنطوي تحت لواء الإسلام استقر رأيه على الخروج للحج، ولم يحج رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلا في السنة العاشرة بينما أدى الرسول ﷺ العمرة في السنة السابعة بعد صلح الحديبية بعام، ثم اعتمر مرة ثانية بعد فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة، وثالثة بعد غزوة حنين في السنة الثامنة للهجرة.

عزم الرسول ﷺ في ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة على الحج إلى بيت الله الحرام، وأخبر المسلمين بذلك، ودعاهم للخروج معه، فتجهز أكثر أهل المدينة المنورة،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٠١، ٦٤٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٦٨ – ١٧٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ١٠٩ – ١١١ ؛ الجزائري، هذا الحبيب محمد، ص ٣٧٥ – ٣٧٧.

وكثير من العرب ومن حولهم، وخرجوا مع رسول الله ﷺ، وكان ذلك في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وبلغ عدد من خرج مع الرسول ﷺ قرابة مئة ألف حاج تملأ قلوبهم الفرحة لذهابهم إلى بيت الله الحرام، ولما بلغوا ذا الحليفة وهي على مقربة من المدينة المنورة المنورة وبها أبيار علي، ومنها يحرم أهل المدينة المنورة إذا أرادوا الخروج لأداء العمرة، ولما أحرم الرسول ﷺ ومن معه نادى الرسول الكريم ﷺ ملبياً، والمسلمون من ورائه يرددون : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

خطبة الرسول ﷺ(١)

عندما وصل الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين إلى مكة المكرمة اتجهوا إلى المسجد الحرام، وطافوا حول الكعبة المشرفة سبع مرات، وأقام الرسول ﷺ بظاهر مكة المكرمة أربعة أيام كان يقصر خلالها الصلاة، وقد أخذ الرسول ﷺ يؤدي مناسك الحج ليعلم الناس في درس عملي شعائر الحج حتى إذا كان اليومٍ الثامن من ذي الحجة - وهو يوم التروية - توجه إلى منى، وقضى ليلته فيها، واتجه صباحاً إلى عرفة حيث ألقى بجموع المسلمين خطبته الخالدة والتي حوت أصول الإسلام وقواعده، وقد ثبت أن الرسول ﷺ خطب في يوم عرفة ثم خطب في يوم النحر، والخطبتان متقاربتان في المضمون وفي الشكل وقد دمجهما ابن هشام في سيرته في خطبة واحدة.

ومن النتائج والعبر التي وردت في خطبة الرسول ﷺ :

- مدى حرص الرسول الكريم على إبلاغ أكبر عدد من الناس قواعد الإسلام وهدم قواعد الشرك والجاهلية، والفصل بين الإسلام والجاهلية، وحث الناس على التمسك بالدين الحنيف.
- بين الرسول ﷺ للناس مناسك الحج عملياً إذ كان يقول : « حجوا كما رأيتموني أحج».
- تحذير المسلمين من عدم الالتزام بالحلال والحرام والتلاعب بالزمان وفي أوقات الأشهر الحرم والالتزام بأشهرها، وعدم تأجيلها حسب ما يريدون.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ١٠٩ ؛ الجزائري، هذا الحبيب محمد، ص ٣٧٥ - ٣٧٧ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٠١ - ٦٠٢ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٠٥ - ٢٠٦

• تحذير المسلمين من يوم الحساب، وحرم عليهم ارتكاب الجريمة أو الاعتداء على الغير، وحرمة الدماء والأموال والأعراض.
• تحريم الظلم والتعامل بالربا، وكل عادات الجاهلية.
• أمر رسول الله ﷺ بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، وحثهم إن تمسكوا بذلك لن يضلوا أبداً، ومن ضل فإنه ليس من الكتاب والسنة.
• أوصى بتمكين وتوثيق روابط المحبة والإخاء والمساواة بين المسلمين، وأنه لا فرق ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.
• لم يغفل الرسول ﷺ في وصيته حقوق ومكانة النساء والاعتراف بها، فأوصى بهنّ خيراً، وكذا حقوق الزوج على الزوجة.
• إنها كانت وصايا مودع أحس الرسول ﷺ بأن مهمته قد انتهت بإكمال هذا الدين ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ (المائدة: ٣).

سادساً: تجهيز الرسول ﷺ لجيش أسامة بن زيد - رضي الله عنه -(١)

اهتم الرسول ﷺ بحدوده مع بلاد الشام منذ غزوة مؤتة مقدراً الخطر الشامل بقوة الروم وحلفائهم عرب الغساسنة، فقرر إرسال جيش يضمن به سلامة الحدود الشمالية، ويكون مقدمة لتحرير بلاد الشام، وتأمين الحرية للدعوة الإسلامية في التحرك والانتشار لنشر الإسلام.

جهز الرسول ﷺ جيشاً بإمرة وقيادة أسامة بن زيد الشاب الذي لم يتجاوز عمره الثامنة عشر لغزو أطراف الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء (الأردن) فالداروم من أرض فلسطين، وكان من ضمن من شارك في هذا الجيش كبار الصحابة - رضوان الله عليهم - أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وكبار المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم -

وقد أوصى الرسول ﷺ أسامة بن زيد قائلاً: « اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا امراة، ولا تمنوا لقاء

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٢ ؛ البخاري، صحيح البخاري، ج٢، ص ٥٨٥ ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٤٥٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا : اللهم اكفناهم، واكفف بأسهم عنا، فإن لقوكم فعليكم بالسكينة والصمت، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وقولوا اللهم إنا عبادك نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تغلبهم أنت، واعلموا أن الجنة تحت البارقة (السيوف).

طعن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - على إمارة أسامة بن زيد لقيادة هذا الجيش ؛ وذلك لصغر سنه، وقلة خبرته، وأنه ابن زيد الذي كان عبداً، فكيف يكون أميراً على سادته الأشراف، فأجابهم الرسول ﷺ : « إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة، وإن كان من أحب الناس إلي، وإن هذا من أحب الناس إلي بعده»، وبذلك كان اختيار الرسول ﷺ لأسامة لإمارة الجيش مختلفاً ومغايراً لمقاييس ونظرة القوم، وسلم الطبقات الاجتماعية الذي لا يسمح لمن كان آباؤهم عبيداً يُباعون ويشترون أن يتولوا قيادة جيش يشارك فيه أسيادهم وأشرافهم.

ويعد تعيين الرسول ﷺ لأسامة لقيادة الجيش تكريماً لأبيه زيد بن حارثة - رضي الله عنه - شهيد مؤتة، ودرساً في تكريم أسر الشهداء وأبنائهم، ودرساً عمليا للاعتماد على عنصر الشباب وإشراكهم في المسؤوليات الكبيرة، والاستفادة من حماسهم، واندفاعهم وقوة إيمانهم.

انطلق جيش أسامة بن زيد - رضي الله عنه - نحو الشمال وعسكر في الجوف على بعد فراسخ عن المدينة المنورة ريثما يلحق به بقية الراغبين في الاشتراك في تلك الحملة، ولكن قبل مغادرة الجيش وتوجهه إلى أطراف الشام الشمالية وصلتهم الأخبار باشتداد مرض رسول الله ﷺ، فتوقف أسامة عن المسير حتى يطمئن وجيشه على حال الرسول ﷺ، ثم لم يلبث أن عاد أسامة - رضي الله عنه- وجيشه إلى المدينة المنورة، ولم يقدر لجيشه أن ينفذ في حياة النبي ﷺ، ولما ولي أمر المسلمين أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أنفذ جيش أسامة إلى هدفه كما أراد الرسول ﷺ، وتنفيذا لما كان قد سبق أن أمر به الرسول الكريم ﷺ، وقد أشار بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - على أبي بكر - رضي الله عنه - بتأجيل الحملة، لكنه أنفذها قبل حروب الردة قائلاً : « إني لا أؤجل لواء عقده رسول الله ﷺ»، فسار أسامة بن زيد - رضي الله عنه - إلى بلاد الشام ومكث أكثر من شهرين هزم فيها بعض المرتدين، وثبّت الإسلام في تلك المواقع، ثم رجع بعد أن أدى مهمته بنجاح.

ونستنتج مما سبق ذكره عن حملة أسامة بن زيد - رضي الله عنه - الآتي:

- مواصلة الرسول ﷺ الجهاد ضد المشركين، وأعداء الدين، وعدم التوقف أو الاسترخاء حتى آخر يوم من حياته.
- تعيين أسامة بن زيد - رضي الله عنه - في القيادة دون غيره ممن يكبرونه مكانة وسناً وخبرة يدل على ما كان يتمتع به الرسول ﷺ من رؤيا ثاقبة تجاه الشباب الكفء القادر على قيادة الجيوش بغض النظر عن عامل الخبرة والسن والمكانة.
- كان طعن الطاعنين في قيادة أسامة - رضي الله عنه - وإمارة أبيه من قبله في سرية مؤتة لا يستغرب فإن ذلك هو الوضع البشري.
- موقف أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وإصراره الرائع في إنفاذ الحملة وتوجيهها إلى هدفها كما أراد الرسول ﷺ، وهذا يدل على مدى حب واحترام وطاعة أبي بكر - رضي الله عنه - للرسول ﷺ حياً وميتاً، رغم ما أشار إليه بعض الصحابة بتأجيل الحملة لكنه أنفذها قبل حروب الردة قائلاً: «لا أحل لواء عقده رسول الله ﷺ»، فسار أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - إلى بلاد الشام وهزم بعض المرتدين وثبَّت الإسلام في تلك المواقع.

سابعاً: مرض الرسول ﷺ ووفاته [1]

بعد حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر مرض الرسول ﷺ بالحمى، وقد طلب من زوجاته أن يمرض في بيت عائشة - رضي الله عنها - فكانت تمسح بيده عليه لبركتها، وتقرأ عليه المعوذتين، واستغرق مرض الرسول ﷺ ثلاثة عشر يوماً، وقيل سبعة أيام، وكان الرسول ﷺ في فترة مرضه يخرج إلى المسجد في أوقات الصلاة، فيصلي بالناس، ثم اشتد عليه المرض، ولم يعد يستطيع النهوض والخروج وإمامة الناس في الصلاة، فأمر بأن يصلي أبو بكر - رضي الله عنه - بالمسلمين، وقد راجعته السيدة عائشة - رضي الله عنها - لئلا يتشاءم الناس بأبيها فقالت: «إن أبا بكر رجل رفيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فمُر عمر فليصل بالناس»، وكررت عليه عائشة -

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٤٩، ٦٥٢، ٦٥٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢١٦ - ٢١٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ ج٥، ص ٢٠٩ - ٢٣٠؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٥٥٥

رضي الله عنها - القول ؛ فكرر الإجابة، حتى قالت عائشة لحفصة - رضي الله عنها - : «قولي له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمُر عمر فليصل بالناس»، فقالت له، فقال ﷺ : «مه، لأنتنّ صويحبات يوسف، مُروا أبا بكر فليصل بالناس، فقام أبوبكر يصلي بالناس».

أحس الرسول ﷺ بجزع المسلمين لمرضه، وتوقع وفاته، وعرف أنهم أحاطوا بالمسجد محزونين، فخرج إليهم متوكئاً على عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - وجلس على أول مرقاة من المنبر، وأحاط به المهاجرون والأنصار، فخطب فيهم، وأثنى في خطابه على أبي بكر - رضي الله عنه - وبين فضله، وأشار إلى تخيير الله له بين الدنيا والآخرة، واختياره الآخرة، وأوصى المهاجرين بالأنصار، وأوصى الأنصار بالمهاجرين، وأوصى المسلمين كافة بالمحبة، وصلة الرحم، ونهاهم عن التقاطع، وهو في أشد حالات المرض، وكانت تلك الخطبة آخر خطبة له قبل موته بخمس ليالٍ.

ولما كان يوم الاثنين الذي قبض فيه الرسول ﷺ والناس في صلاة الصبح، وأبو بكر - رضي الله عنه - يصلي بالناس فاجأهم رسول الله ﷺ وهو يكشف ستر حجرة عائشة - رضي الله عنها - فينظر إليهم وهم في صفوف في الصلاة ثم تبسم بضحك، وكأنه يودعهم، وهمّ المسلمون أن يفتتنوا فرحاً بخروجه، وتأخر أبوبكر - رضي الله عنه - حيث ظن أن الرسول ﷺ يريد الخروج للصلاة، فأشار الرسول ﷺ إليه بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستار، وانصرف الناس وهم يرون أن النبي ﷺ قد أفاق من مرضه.

توفي الرسول ﷺ ورأسه في حجر السيدة عائشة - رضي الله عنها - حين اشتد الضحى، وقيل عند زوال الشمس، وكان ذلك في يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول عام ١١هـ الموافق ٨ يونيو ٦٣٢م، وكان في الثالثة والستين من عمره، وبوفاته ﷺ انتهت حياة سيد البشر ﷺ الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فجزاه الله عن أمة الإسلام خيراً، ورزقنا اتباعه.

ثامناً: موقف المسلمين من وفاة الرسول ﷺ(1)

كان وقع خبر وفاة الرسول ﷺ على الصحابة - رضوان الله عليهم - مذهلاً إلى الحد الذي جعل بعضهم ينكر وفاته كما فعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والذي صرخ قائلاً : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وأن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات».

أما أبوبكر فهو الذي تحمل خبر الفاجعة بقلب مؤمن، وأعصاب ثابتة قوية، وأسرع إلى بيت الرسول ﷺ، فدخل ونظر إليه، وتأكد من وفاته، فخرج وتكلم في الناس فأيقظهم من غفلتهم، ورد لهم أحلامهم بخطابه الرائع الذي جاء فيه : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقوله :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، وأفاق الناس إلى رشدهم، وثبتهم الله بكلام أبي بكر حتى يروى أن الناس وكأنهم لم يعلموا أن الله أنزل تلك الآيات حتى تلاها أبوبكر - رضي الله عنه - فتلقاها منه الناس كلهم وأخذوا يتلونها، وهدأت نفس عمر، وثاب إلى رشده حتى ليروى أن عمر قال : « والله لقد ظننت أنه ليس في القرآن آية كهذه حتى ذكرها أبوبكر، وفي رواية أن عمر - رضي الله عنه - قال: « والله ما هو إلا سمعت أبا بكر تلاها فعثرت حتى ما تحملني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات، وخرس عثمان - رضي الله عنه -، واستخفى علي - رضي الله عنه.

ومن ذلك يتضح لنا شدة محبة الصحابة - رضي الله عنهم - للرسول ﷺ ودهشتهم لموته، وأن الموت لا يمكن أن يأتيه مع أن الموت نهاية كل حي، كما أن موقف أبي بكر - رضي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٥٥ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢١٩ ؛ أبوشهبة، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٩٤؛ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٢٧٧ - ٢٨٨

الله عنه- حول وفاة الرسول ﷺ يدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به من رباطة الجأش، وقوة الأعصاب عند نزول النكبات، وثبات القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ.

تاسعاً: غسل رسول الله ﷺ وكفنه والصلاة عليه(١)

من آيات نبوته ﷺ أنهم اختلفوا لما أرادوا غسله فقالوا: « ما ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم وهم كذلك وإذ بهاتف يقول: «اغسلوا رسول الله وعليه ثيابه»، ففعلوا وغسلوه وعليه ثيابه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص دون أيديهم، وكان العباس، وعلي، والفضل،وقثم ابني العباس، وشقوان مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن حوبي، القائمين بالغسل فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقوان يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس يسنده إلى صدره، ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة أدرجوه فيها إدراجاً، ولما فرغوا من جهازه ﷺ وضع على سرير في بيته، ثم دخل الناس عليه إرسالاً (أي جماعات متتابعين) يصلون عليه بغير إمام.

اختلف المسلمون في موضع دفنه، فقال بعضهم ندفنه في مكة المكرمة مسقط رأسه، وقال آخرون ندفنه بالبقيع مع أصحابه، وقال قائل في مصلاه، فجاء أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - فحسم الأمر بما سمعه من رسول الله ﷺ فقال: ما نسيت ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه»، فدفنوه في موضع فراشه في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٢٢ - ٦٢٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٢٧٧ - ٢٨٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٥١٧ - ٥٢١؛ المنصور فوري، رحمة للعالمين، ج١، ص ٢٧٧ - ٢٨٦.

الفصل العاشر

البيت النبوي الشريف

(زوجاته - بنوه - بناته رضي الله عنهم)

أمهات المؤمنين – رضي الله عنهن –

البيت النبوي الشريف (زوجاته - بنوه - بناته رضي الله عنهم)

أولاً: أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن -

تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة امرأة، وتوفي عن تسع، وتوفيت اثنتان في حياته، إحداهن خديجة بنت خويلد، والأخرى زينب بنت خزيمة - رضي الله عنهما - واثنتان لم يدخل بهما وهما : واحدة من بني كلاب، والأخرى من كندة.

كان زواج الرسول ﷺ من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - أبعد ما يكون من دافع الهوى والشهوة، إذ تزوجهن كلهن عدا السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - أرامل وكبيرات في السن، ولا شك أن تلك الزيجات المتعددة خص بها الرسول ﷺ دون سائر المؤمنين لحكم ودوافع إنسانية كبيرة، وأهداف سامية، وغايات شريفة لم يسمُ إليها غير رسول الله ﷺ، فقد رغب الرسول ﷺ من تعدد زواجه أن يوجد بينه وبين أصحابه وكبار قومه صلة قوية، ورابطة متينة بواسطة المصاهرة؛ لأن ذلك سوف يساعده ويشد من أزره للدفاع عن مبدئه السامي، ونشر الدعوة إلى الإسلام، وتوثيق العلاقات بين القبائل، وكسر عداء كثير منهم.، وإعداد مدارس أو مراكز للتعلم والتفقه في الدين، تمثل في حجرات أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن -

وما ينبغي أن نورده هنا أن الرسول ﷺ عندما تزوج السيدة خديجة - رضي الله عنها - كانت في الأربعين من عمرها، وهو في عنفوان شبابه في الخامسة والعشرين، ولم يتزوج بغيرها إلى أن توفيت، وكان عمره قرابة خمسين سنة.

ظل الرسول ﷺ قانعاً خلال تلك المدة بزواجه فقط من السيدة خديجة -رضي الله عنها - ولم يرتبط بأي زوجة أخرى طوال حياته معها، فهل من العدل أن نقول عن الرسول الكريم ﷺ بأنه كان جنسياً وشهوانياً؟!

تزوج الرسول ﷺ أم حبيبة وأم سلمة، وسودة، وميمونة، وزينب أم المساكين وهن أرامل مرملات، وقد تزوجهن إيواء لهن لما فقدن أزواجهن، ولم يكن غرضه من زواجهن إلا حمايتهن، ورعايتهن، وليس الدافع سلطان الشهوة كما توهم كثير من المغرضين أعداء الدين.

كان الرسول ﷺ يقصد من تعداد زوجاته إيجاد روابط المصاهرة، وتأليف القلوب

لنشر الدعوة وكان ذلك واضحاً في زوجته عائشة - رضي الله عنها - وقد تزوجها إكراماً لوالدها الوفي الكريم الذي وقف بجانبه وآزره منذ بداية الدعوة وحمل رسالته المباركة، وزوجته حفصة - رضي الله عنها - هي ابنة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تزوجها وهي ثيب إكراماً وحباً لوالدها وتحقيقاً لرغبة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بأن تكون في بيت النبوة الطاهر ولتصبح حفصة من أمهات المؤمنين وتزوج صفية وجويرية مسحا لدموعهما وإذهاباً لخوفهما لموت زوجيهما - رضي الله عنهما - والمعروف أن السيدة صفية - رضي الله عنها - كانت ابنة ملك من ملوك اليهود فلا يصلح بعد أسرها إلا أن تتزوج من رسول الله ﷺ، وزوجه الله سبحانه وتعالى زينب بنت جحش، وهو كاره لذلك خوفاً من أن يقول عنه الناس بأنه تزوج من امرأة زيد بن حارثة والذي كان يتبناه، وكان ينادى : بـ«زيد بن محمد» .

وهكذا يتضح لنا أن الرسول ﷺ ما تزوج لغير الله، ولا بدون إذن الله، ولم يكن زواجه من أمهات المؤمنين - رضوان الله عنهنَّ - بدافع شهواني والرغبة في الاتصال الجنسي، إنما كان للأهداف المذكورة سابقاً، وهذا يوضح لنا بطلان قول المغرضين والمتطاولين على مقام سيد الخلق الرحمة المهداة محمد ﷺ. أما زوجات الرسول ﷺ فهنَّ :

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -(١)

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب، والدتها : فاطمة بنت زائدة، ولدت السيدة خديجة رضي الله عنها قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً.

تتحلى السيدة خديجة رضي الله عنها بالعديد من الصفات الحميدة والتي منها الحزم والشرف والتواضع والغنى، وعراقة الحسب والنسب، وتزوجت السيدة خديجة - رضي الله عنها - قبل زواجها من الرسول ﷺ مرتين، كان زواجها الأول من أبي هالة زرارة التميمي فأنجبت منه هالة وهند، ثم تزوجت بعد وفاته من عتيق بن عائذ المخزومي، وأنجبت منه عبدالله وجارية، فمكثت معه مدة من الزمن، ثم تم الفراق بينهما.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٦٤٧ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٣ - ٦٤٤ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٠٩ ؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ؛ مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م،ج ٢، ص ١٠٩ - ١١٧ ؛ كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، الجزء الأول، ص ٣٢٦ - ٣٣١.

بلغ السيدة خديجة - رضي الله عنها - ما بلغها عن رسول الله ﷺ من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه، ودماثة خلقه، وارتفاع مكانته وقدره لدى القرشيين حيث كان يفوق أقرانه خلقاً وأمانة وعقلاً.

اختارت السيدة خديجة - رضي الله عنها - الرسول ﷺ ليسافر مع ميسرة إلى الشام في تجارة لها، وأنها سوف تعطيه ضعف ما كانت تدفع إلى غيره ممن كانوا يتاجرون لها تقديراً لأبي طالب وثقة في ابن أخيه المشهور بالأخلاق الحسنة.

بعثت السيدة خديجة - رضي الله عنها - إلى رسول الله ﷺ فقالت له : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك، ولسلطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، فذكر رسول الله ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبدالمطلب حتى دخل على عمرو بن أسد فخطبها إليه.

ويقال إن السيدة خديجة - رضي الله عنها - عندما أرادت الزواج من محمد ﷺ أرسلت إليه إحدى صديقاتها تبدي رغبتها في الزواج به، ورضي محمد ﷺ بذلك، وكلم أعمامه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد، فزوجها عمها بمحمد ﷺ في محضر من بني هاشم، ورؤساء قريش على صداق قدره عشرون بكرة، وقيل ست بكرات، وقيل أصدقها اثنتي عشرة أوقية.

تم الزواج المبارك بين محمد ﷺ والسيدة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - وكان الرسول ﷺ قد بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة، وكان للسيدة خديجة - رضي الله عنها - أربعون سنة، وتعد السيدة خديجة - رضي الله عنها - أول من تزوجها الرسول ﷺ من النساء، ولم يتزوج غيرها في حياتها حتى توفيت رضي الله عنها وهي أول امرأة صدقت بالنبي ﷺ فيما جاء به من ربه وأول خلق الله إسلاماً بإجماع المسلمين.

كان الرسول ﷺ يحب السيدة خديجة - رضي الله عنها - حباً جماً، ويجلها ويقدرها حق قدرها، فكان ﷺ لا يخالفها قبل أن ينزل عليه الوحي، ثم كان يذكرها بعد موتها كثيراً، ولا يسأم من الثناء عليها، والاستغفار لها، وكان يقول عنها ﷺ : « آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد الناس».

توفيت السيدة خديجة - رضي الله عنها - بمكة المكرمة في رمضان سنة عشر من

النبوة، ولها من العمر خمس وستون سنة، ودفنت بالحجون رضي الله عنها، وأسكنها فسيح جناته.

أم المؤمنين سودة بنت زمعة - رضي الله عنها[(١)]

هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد، وأمها الشموش بنت قيس بن زيد بن عمرو، كانت السيدة سودة - رضي الله عنها - من أفاضل نساء عصرها صلاحاً وورعاً، وزهداً، وكرماً، وصدقة، وكانت لا تستقر الدراهم عندها ؛ بل كانت توزعها زهداً وكرماً على الفقراء والضعفاء، وكانت - رضي الله عنها - قبل أن يتزوجها الرسول ﷺ متزوجة من ابن عم لها يقال له : السكران بن عمرو بن عبد شمس الأنصاري العامري، ولما أسلمت وبايعت الرسول ﷺ أسلم زوجها معها، وكان قوياً في عقيدته وإيمانه بالله عز وجل، مخلصاً في حبه للرسول ﷺ، وقد هاجر هو وزوجته سودة - رضي الله عنهما - إلى الحبشة فراراً من اضطهاد قريش، ولما أذن الرسول ﷺ للمسلمين في الحبشة بالرجوع إلى مكة المكرمة كان من ضمن العائدين سودة دون زوجها السكران - رضي الله عنهما - الذي توفي قبل عودته إلى مكة المكرمة.

لما انتقلت السيدة خديجة - رضي الله عنها - إلى الرفيق الأعلى حزن عليها الرسول ﷺ حزناً شديداً، وحزن أصحابه - رضوان الله عليهم - لحزنه وأرادوا أن يخرجوه مما هو فيه فجاءته عليه أفضل الصلاة والسلام خولة بنت حكيم السلمية، وعرضت عليه أن يتزوج سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - فتزوجها الرسول ﷺ وذلك في شوال سنة عشر من النبوة بعد وفاة السيدة خديجة - رضي الله عنها - بنحو شهر على صداق قدره أربع مئة درهم.

وكان عمرها حين تزوجها النبي ﷺ خمساً وخمسون سنة، وكان لها خمسة صبية أو ستة من زوجها الأول.

كانت سودة - رضي الله عنها تحب الرسول ﷺ حباً كبيراً، وكان من حبها له أنها لما علمت أن الرسول ﷺ يريد أن يطلقها احتراماً وتقديراً لسنها وحتى

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٤ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٢ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج، ص ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٠٩ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢٦٥ - ٢٦٩

لا يشعرها بالحرمان وسط باقي زوجاته اللاتي يصغرنها كثيراً، قدمت إلى الرسول ﷺ قائلة: « لا تطلقني، وأنت في حل من شأني، وإنما أريد أن أحشر في أزواجك، وإني وهبت يومي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد سائر النساء، فأمسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنها.

وفي سودة رضي الله عنها نزلت آية الحجاب، وذلك عندما خرجت سودة ليلة من الليالي وقت العشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر - رضي الله عنه - : «الآن قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب.

توفيت السيدة سودة - رضي الله عنها - في المدينة المنورة في شوال سنة ٥٤هـ، في خلافة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - وفي رواية أنها توفيت في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- رضي الله عنها وأرضاها وأسكنها فسيح جناته.

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنها -(١)

هي عائشة بنت عبدالله بن أبي قحافة، وأمها أم رومان بنت عامر، وهي من السابقات إلى الإسلام بمكة المكرمة.

وقبل أن يتزوج الرسول ﷺ من عائشة - رضي الله عنها - رأى صورتها في المنام ثلاث ليال، وأن الملك أتاه في سرة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهها فإذا أنت هي، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه»، وجاء في رواية أخرى أن جبريل جاءه بصورتها في خرقة خضراء إلى النبي ﷺ فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

تزوج الرسول ﷺ من السيدة عائشة - رضي الله عنها - في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، وهي ابنة ست أو سبع سنوات، ودخل بها وهي ابنة تسع، وجاء في رواية أخرى أن الرسول ﷺ تزوج عائشة - رضي الله عنها - إثر وفاة السيدة خديجة - رضي الله عنها - فتزوج بها، وسودة بنت زمعة في وقت واحد، ثم دخل بسودة فتفرد بها ثلاثة أعوام، حتى بنى بالسيدة عائشة - رضي الله عنها - في شوال بعد غزوة بدر في السنة الثانية من

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٤ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٣٧٤ - ٣٧٨ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص ٥٨٣ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ١٣٥ - ٢٠١ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٤ ؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص ٦٤٦ - ٦٤٧

الهجرة، وهي الزوجة الوحيدة البكر من زوجات الرسول ﷺ، وكانت امرأة بيضاء جميلة، ويقال لها الحميراء.

كانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - تحب الرسول ﷺ حباً جماً، وتسعى إلى سعادته، وترجو أن يكون لها ولد منه كما كان لخديجة بنت خويلد - رضي الله عنها < وكان الرسول ﷺ يحبها، ويعلن حبه لها ولوالدها ؛ بل كانت عائشة - رضي الله عنها - أحب نسائه إليه، ويذكر أن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة سأل الرسول ﷺ : أي النساء أحب إليك يا رسول الله؟ قال عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال : أبوها.

وقال الرسول ﷺ عنها : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، وسألت عائشة - رضي الله عنها - الرسول ﷺ : مَنْ مِنْ أزواجك في الجنة؟ فقال : « أما إنك منهنَّ».

ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام : إنه ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو لها ويقول : اللهم اغفر لها ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرر ت وما أعلنت»، وكان هذا يسر عائشة - رضي الله عنها - حتى تسقط رأسها في حجرها.

وتقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة : لقد نزل جبريل - عليه السلام - بصورتي حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري، ولقد توفي رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفت الملائكة بيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً».

عاشت السيدة عائشة - رضي الله عنها - مدة طويلة بعد وفاة الرسول ﷺ إذ توفيت عام ٥٨هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - وكان عمرها حين وفاتها في السادسة والستين بعد أن مرضت مرضاً ألزمها الفراش، ودفنت - رضي الله عنها - في البقيع، ولم تنجب عائشة لرسول الله ﷺ.

أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضي الله عنها -[(١)]

هي حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب، ولدت السيدة حفصة - رضي الله عنها - قبل مبعث الرسول ﷺ بخمس سنوات، وعرفت منذ نشأتها بالجرأة والقوة، وتعلمت القراءة والكتابة منذ صغرها، ولم تكن - رضي الله عنها - من السابقات إلى الإسلام، وكان إسلامها بعد إسلام والدها عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -، وكان عمر حفصة - رضي الله عنها - عند إسلامها عشر سنوات.

تزوجت السيدة حفصة - رضي الله عنها - قبل زواجها من الرسول ﷺ الصحابي الجليل خنيس بن حذافة السهمي وقد جرح جرحًا عميقًا في غزوة بدر بعد أن أبلى بلاء حسناً في تلك الغزوة، ومات متأثراً بجرحه.

كانت غاية الرسول ﷺ من الزواج من حفصة - رضي الله عنها - توثيق روابط المحبة، والنسب بينه وبين والدها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومواساة لفقدانها زوجها الشهيد خنيس - رضي الله عنه - وعاشت حفصة - رضي الله عنها - في بيت النبوة عيشة كريمة سعيدة، لكن ما كان يؤخذ على السيدة حفصة - رضي الله عنها - شدة غيرتها «أي أنها امرأة غيورة»، وكان والدها يوصيها بعدم الغيرة، وعدم مواجهة رسول الله ﷺ، وكان يقول لها: «ليس لك جمال زينب، ولا حظوة عائشة، والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك».

صبر الرسول ﷺ على غيرة حفصة - رضي الله عنها - ونصحها رسول الله ﷺ كثيراً، ولكنها استمرت على حالها حتى طلقها رسول الله ﷺ، ولما علم عمر - رضي الله عنه - بطلاقها حزن حزناً شديداً، ولكن طلاق الرسول ﷺ لم يستمر طويلاً، تكريماً من الله عز وجل لوالدها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لأن الله عز وجل أمر جبريل - عليه السلام - أن يقول للنبي ﷺ: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر»، وقال: «إنها صوَّامة، قوَّامة،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٥ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٥٨٣ - ٥٨٤ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج، ص ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢١٠ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٤ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢٢٧ - ٢٣١

وهي زوجتك في الجنة»، فأعاد الرسول ﷺ حفصة - رضي الله عنها - بعد أن نزل عليه جبريل - عليه السلام - بأمر من الله.

كانت السيدة حفصة بنت عمر - رضي الله عنها - هي الوحيدة من زوجات الرسول ﷺ التي كانت تعرف القراءة والكتابة.

توفيت السيدة حفصة - رضي الله عنها - في شعبان سنة ٤٥ من الهجرة في خلافة معاوية - رضي الله عنه -، وكان عمرها ستين سنة، ودفنت بالبقيع، ولم تنجب للرسول ﷺ رضي الله عنها، وأسكنها فسيح جناته.

أم المؤمنين زينب بنت خزيمة - رضي الله عنها-(١)

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث، وأمها هند بنت عوف بن الحارث، كانت السيدة زينب - رضي الله عنها - من أرق وأرحم النساء للفقراء والمساكين في الجاهلية والإسلام، وقد أجمع على ذلك القول معظم المؤرخين، وقد سميت بأم المساكين لكثرة إطعامها المساكين، وكثرة صدقاتها عليهم، وإحسانها وترحمها بهم، وكان أهل الصفة - وهم جماعة انقطعوا للعبادة- ممن كانت تخصهم ببرها وعطفها عليهم.

كانت السيدة زينب - رضي الله عنها - زوجة للطفيل بن الحارث، فطلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث، فقتل يوم بدر شهيداً، ولم تكن السيدة زينب جميلة في شكلها، ولم يتقدم لها أحد من الصحابة - رضوان الله عليهم - أو غيرهم للزواج منها، ولكن الله عز وجل عوضها خيراً كثيراً حيث رق لها قلب الرسول ﷺ ؛ فتزوجها في السنة الرابعة للهجرة، وقد أصدقها أربع مئة درهم، وبنى لها حجرة إلى جدار حجرة السيدة عائشة - رضي الله عنها - ولم يطل مقام السيدة زينب - رضي الله عنها - في البيت النبوي فترة طويلة، فهناك من يذكر بأن الفترة التي عاشتها مع الرسول ﷺ لم تتجاوز سوى شهرين أو ثلاثة وماتت.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ١١٥ - ١١٦ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٧ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢١٨ ؛ الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص ٥٨٤ ؛ كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج٢، ص ٦٥

كانت وفاة السيدة زينب - رضي الله عنها - في ربيع الآخر من السنة الرابعة من الهجرة، وتوفيت في المدينة المنورة، وكان عمرها عند وفاتها قرابة الثلاثين، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها رضي الله عنهما.

أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية - رضي الله عنها -[1]

هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة، تزوجت - رضي الله عنها من ابن عمها عبدالله بن أبي الأسد، وكانت هي وزوجها من السابقين إلى الإسلام، هاجر بها زوجها إلى الحبشة في الهجرتين فراراً بدينهما الجديد، ويعد أبو سلمة وزوجته - رضي الله عنهما - أول من هاجرا إلى الحبشة، ولما سمح الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة كان أبوسلمة أول من هاجر إليها منفرداً دون أن يصطحب معه زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - وذلك يرجع إلى حبس أهلها، ومنعها من الذهاب معه، ولكن سمحوا لها بالهجرة واللحاق بزوجها بعد ذلك.

شارك أبو سلمة - رضي الله عنه - في غزوة بدر وأحد، وأصيب في غزوة أحد بجرح عميق مكثت أم سلمة - رضي الله عنها - شهراً تداويه حتى برئ جرحه، ولما عوفي وعولج من جرحه أرسله الرسول ﷺ لقتال بني أسد، فعاد منتصراً حاملاً الغنائم والبشرى للرسول ﷺ، لكن جرحه الذي أصابه يوم أحد عاد ينزف من جديد، ويذكر أن أم سلمة قالت لزوجها أبي سلمة - رضي الله عنهما - : « بلغني أنه أن ليس امرأة يموت زوجها وهو في الجنة، ثم لم تتزوج إلا جمع الله بينهما في الجنة فقالت أعاهدك ألا تزوج بعدي، ولا أتزوج بعدك، قال أتطعينني؟ قالت : نعم. قال : فإذا مت تزوجي. ثم قال : اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يحزنها، ولا يؤذيها، فلما مات، قلت : من خير من أبي سلمة، فما لبث وجاء رسول الله ﷺ، فقام على الباب، فذكر الخطبة لابن أخيها».

ولما توفي زوجها خطبها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فلم تقبل ثم خطبها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فلم تقبل أيضاً، وكان ذلك بحجة كبر سنها، وأنها ترغب في تربية أبنائها الصغار الأيتام.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ٨٧ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٤ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٤ - ٦٤٥ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢٠١ - ٢١٠

استجاب الله لدعوة أبي سلمة - رضي الله عنه - بأن يتزوجها من هو خير منه، وكان محمد ﷺ من هو خير منه، فبعث إليها رسول الله ﷺ، فقالت: مرحباً، أخبر رسول الله ﷺ أني غيرى، وإني مصبية، وليس أحد من أوليائي شاهداً»، وفي رواية أخرى قالت أم سلمة: أتاني رسول الله ﷺ فكلمني، وبيننا حجاب، فخطبني فقلت وما تريد إلي؟ ما أقول هذا إلا رغبة لك عن نفسي! إني امرأة أدبر من سني، وأني أم أيتام، وأنا شديدة الغيرة، وأنت تجمع النساء»، فبعث إليها رسول الله ﷺ « أما قولك إني مصبية ؛ فإن الله سيكفيك صبيانك، أما قولك: إني غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بي» فقالت أم سلمة - رضي الله عنها - لابنها عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ، فزوجه، وصداقها فراش حشو ليف وقدر، وصحفة ومقشة، وهناك من يقول إن الرسول ﷺ زوجها على متاع قيمته عشرة دراهم، وكان ذلك في شهر شوال سنة ٤هـ، فدخلت عليه - رضي الله عنها - أول العشاء عروساً، وقامت آخر الليل تطحن.

لما تزوج الرسول ﷺ أم سلمة - رضي الله عنها - حزنت السيدة عائشة - رضي الله عنها - حزناً شديداً، لما ذكروا لها من جمالها، وحسن مطلعها، وقالت عندما رأتها: «والله أضعاف ما وصفت لي من الحسن والجمال»، وكان الرسول ﷺ إذا صلى العصر دخل على زوجاته واحدة واحدة، وكان يبدأ بأم سلمة - رضي الله عنها - لأنها أكبرهن سناً.

توفيت أم سلمة - رضي الله عنها سنة إحدى وستين، وفي رواية أخرى سنة ٥٦هـ، وكان عمرها حين وفاتها أربعًا وثمانين سنة، وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين، ودفنت في البقيع - رضي الله عنها - وأسكنها فسيح جناته.

أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضي الله عنها(١)

هي زينب بنت جحش بن رباب الأسدية، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف عمة رسول الله ﷺ.

---

(١)- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ١٠١ - ١١٥ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٤ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١١٥ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص ٥٨٤ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢١١ - ٢١٨

تزوجت السيدة زينب - رضي الله عنها - من زيد بن حارثة - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ خطبها الرسول ﷺ لتكون زوجة لزيد بن حارثة - رضي الله عنهما - لكن زينب وأهلها امتنعوا من قبول هذا الزواج، وكبر وعز على زينب - رضي الله عنها - أن تقترن وهي الشريفة، ذات الحسب والنسب من أحد الموالي، وقالت للرسول ﷺ: «إني لا أرضاه لنفسي، وأنا أيم قريش»، فقال لها الرسول ﷺ: «فإني قد رضيته لك» وكان الرسول ﷺ يسعى جاهداً لإزالة هذه الفوارق العصبية، وينفذ عملياً إجراءات المساواة، وتحطيم الطبقات، ثم نزلت الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وافقت السيدة زينب - رضي الله عنها - على الزواج من زيد بن حارثة - رضي الله عنه - عندما نزلت هذه الآية، وقالت للرسول ﷺ: سمعنا، وأطعنا، ورضيت بهذا الزواج، ولا أعصي رسول الله ﷺ، وقد أنكحته نفسي، وقدم زيد بن حارثة لزواجها مهر قدره عشرة دنانير وستون درهماً، ودرعان، وحمار.

اضطر زيد - رضي الله عنه - أن يطلقها، فطلقها، فلما انقضت عدتها، نزلت الآية الكريمة لتدعو الرسول ﷺ بأن يتزوجها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ...﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وبذلك نزل أمر زواج الرسول ﷺ من زينب - رضي الله عنها - من السماء، وذلك لتصحيح المفاهيم الخاطئة في عقول الناس في الجاهلية، وأراد الله أن يمحو كل آثار التبني وأحكامها الجاهلية التي كانت تحرم زوجة المتبنى على أبيه مثل تحريم زوجة الابن الحقيقي، وكان الرسول ﷺ قبل نزول تلك الآية الكريمة متحفظاً في إعلان رغبته في الزواج من زينب - رضي الله عنها - وكان يخشى أن يقال عنه بأنه كان يرغب من الزواج منها، وأنه شجع زيد على طلاقها كي يتزوج منها، وكان ﷺ متخوفاً أيضاً بأن يقال عنه إنه تزوج من زوجة ابنه إذ كان يقال لزيد: زيد بن محمد.

ظل الرسول ﷺ على ذلك الحال حتى أنزل الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن آية لتعلن الأمر على الملأ في قرآن يتلى على الناس إلى يوم الدين.

ومن هنا نرى أن زواج الرسول ﷺ لزينب بنت جحش - رضي الله عنها - هو من عند الله فقد زوجها الله تعالى لنبيه بنص كتابه الكريم بلا ولي ولا شاهد.

كانت السيدة زينب - رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ: «أنا أعظم نسائك عليك حقاً، أنا خيرهن منكحاً، وأكرمهن سفيراً، وأقربهن رحماً»، ثم تقول: «زوجنيك الرحمن من فوق عرشه، وكان جبريل عليه السلام هو السفير بذلك، وأنا بنت عمتك، وليس لك من نسائك قريبة غيري».

وتعد السيدة زينب - رضي الله عنها - من سادة النساء دينا وورعاً وجوداً ومعروفاً وصدقة، وهي بجانب ذلك امرأة صناع اليدين تدبغ وتبيع ما تصنعه، وتتصدق على المساكين، وتذكر السيدة عائشة - رضي الله عنها - أن الرسول ﷺ قال: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً». قالت: «فكانت أطول يداً زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق»، وحرص الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على أن يقسم لأمهات المؤمنين في العام اثني عشر ألفاً لكل واحدة، وكانت زينب بنت جحش - رضي الله عنها لا تستبقي منها درهماً واحداً؛ بل تنفق ذلك المال كله على ذوي أرحامها، وعلى أيتام قريش.

توفيت رضي الله عنها سنة ٢٠هـ في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان عمرها يقارب ثلاثة وخمسين سنة، وكانت السيدة زينب - رضي الله عنها - أول نساء الرسول ﷺ وفاة بعد وفاته ﷺ، وهي أول من حمل في نعش، فلما رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - النعش قال: نعم خباء الظعينة، ولم تترك رضي الله عنها بعد وفاتها ديناراً ولا درهماً، ودفنت بالبقيع، رضي الله عنها، وأسكنها فسيح جناته.

أم المؤمنين جويرية بنت الحارث - رضي الله عنها -(١)

هي برة بنت الحارث بن أبي ضرار، وكان اسمها قبل إسلامها برة، فسماها النبي ﷺ بعدما تزوجها جويرية.

كان زوجها مسافع بن صفوان عدواً للإسلام والمسلمين، وقتل في غزوة بني المصطلق، أو في السنة الخامسة من الهجرة، وهي التي وقع فيها قوم جويرية - رضي الله

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ١١٦ - ١٢٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص ٥٨٥ - ٥٨٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢٦١ - ٢٦٥؛ الحصين، نساء في الجنة، ص ٩٣ - ١٠٠.

عنها - في الأسر وكانت هي من ضمنهم، ولما قسم الرسول ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها قيس على تسع أواق، وكانت امرأة حلوة مليحة، لا يكاد يراها أحد إلا فتن بجمالها، وتمناها لنفسه.

جاءت جويرية إلى رسول الله ﷺ، وقالت له : يا رسول الله، قد أصابني من الأمر ما قد علمت، فوقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبني على تسع أواق، فاعني في فكاكي. فقال: أو خير من ذلك؟ قالت : ما هو؟ فقال : أؤدي عنك كتابتك، وأتزوجك. قالت : نعم يا رسول الله. قال ﷺ : قد فعلت. قالت جويرية - رضي الله عنها - فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم من بني المصطلق، فقد أعتق بها مئة أهل بيت، تقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : « فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها»، وكانت السيدة جويرية سبباً رئيساً في إسلام قومها.

ويذكر أنه لما علم الحارث بن ضرار بوقوع ابنته جويرية في الأسر قدم المدينة المنورة، وقال للرسول ﷺ : إن بنتي لا يسيء مثلها، فأنا أكرم من ذلك. فقال النبي ﷺ : «أرأيت إن خيرناها»، فأتاها أبوها فقال : إن هذا الرجل قد خيرك ؛ فلا تفضحينا»، فقالت رضي الله عنها : قد اخترته. قال : «والله قد فضحتينا».

كانت جويرية - رضي الله عنها - فقيهة في أمر دينها، عابدة، صالحة، زاهدة، وعاشت جويرية - رضي الله عنها بعد وفاة الرسول ﷺ مدة طويلة، وتوفيت في شهر ربيع الأول من سنة خمسين من الهجرة، وانتقلت إلى ربها، وكان عمرها ٦٥ وقيل ٥٧ سنة، وكان ذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - ولم تنجب جويرية - رضي الله عنها - من الرسول ﷺ.

أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان - رضي الله عنها - (١)

هي رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب، أمها صفية بنت أمية بن عبد

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ٩٦ - ١٠٠ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٥ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٥ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢١٨ - ٢٢٣ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢١٠ ؛ الحصين، نساء في الجنة، ص ١٠٩ - ١١٧.

شمس، وهي عمة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً، ويظهر أنها أول من أسلم من بيت أبي سفيان، فقد أسلمت في مكة المكرمة قديماً مع زوجها عبيد الله ابن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة حيث أنجبت بنتاً هي حبيبة، فكنيت بها، وفي رواية أنها ولدتها في مكة المكرمة، وصحبتها معها إلى الحبشة، وفي الحبشة ارتد زوجها عبيدالله عن الإسلام إلى النصرانية، وكان عبيدالله قبل ارتداده حسن الإسلام عالماً متفقهاً في الديانات وبخاصة النصرانية التي ارتد إليها، وانكب على شرب الخمر حتى توفي كافراً نصرانياً.

عادت السيدة أم حبيبة - رضي الله عنها - مع بقية المسلمين العائدين إلى المدينة المنورة عند انتصار المسلمين على يهود خيبر، فتزوجها الرسول ﷺ في شهر صفر، ويقال في ربيع الأول سنة ٧هـ، واستقبلت أم حبيبة من زوجات الرسول ﷺ بالتكريم والاحترام، وعاشت في بيتها تخدم رسول الله ﷺ دون أن تثير أي خلافات مع زوجاته، ولما علم أبو سفيان بن حرب مكان الرسول ﷺ من ابنته قال: « ذلك الفحل لا يقرع أنفه» (أي أنه كفء كريم لا يرد).

وتقول السيدة عائشة - رضي الله عنها -: « دعتني أم حبيبة قبل موتها، فقالت: قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك»، فقلت: « غفر الله لك ذلك كله، وحللك من ذلك»، فقالت: «سررتني سرك الله»، وأرسلت إلى أم سلمة، فقالت لها مثل ذلك.

وتعد السيدة أم حبيبة - رضي الله عنها - من سيدات أمهات المؤمنين ومن العابدات الورعات، عاشت حياتها معتكفة في منزلها، بعيدة عن الحسد والغيرة، كثيرة الإنفاق في سبيل الله، لزمت بيت النبوة، وعاشت عهد الخلافة الراشدة، وأربع سنوات من خلافة أخيها معاوية، ولم تحاول خلالها الاستفادة من مركز أخيها معاوية في الحكم.

توفيت رضي الله عنها في عام أربع وأربعين من الهجرة عن عمر يناهز السبعين، وقيل أربعاً وسبعين في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - ودفنت في البقيع بالمدينة المنورة، ولم تنجب من الرسول ﷺ.

أم المؤمنين صفية بنت حيي - رضي الله عنها - [1]

هي صفية بنت حيي بن أخطب بن سقية، وأمها برة بنت سموأل من بني قريظة وولدت السيدة صفية بنت حيي - رضي الله عنها - قبل الهجرة بأحد عشر عاماً وبعد البعثة بعامين.

تزوجت صفية - رضي الله عنها - سلام بن مشكم القرظي، أحد زعماء بني قريظة، وهذا الزواج لم يدم طويلاً، فقد تم الفراق بينهما، فتزوجت مرة ثانية كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق صاحب حصن القموص، أقوى حصن في خيبر، فلما اقتحم المسلمون الحصن، وقتل كنانة بن الربيع أخذت نساء الحصن سبايا وكان فيهن صفية، وابنة عم لها، وكان بلال - رضي الله عنه - يقودهما نحو معسكر المسلمين، فمر بهما على من قتل من اليهود، فصاحت ابنة عم صفية، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: « أغربوا عني هذه الشيطانة»، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن الرسول ﷺ قد اصطفاها لنفسه.

ولما دخلت صفية على الرسول ﷺ قال لها: « اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية، فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك»، فقالت: « يا رسول الله لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد، ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق، وأن أرجع إلى قومي»، فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه، وجعل منها إحدى أمهات المؤمنين، وكان زواج الرسول ﷺ بعد فتح خيبر سنة ٧ من الهجرة، ولما قدم رسول ﷺ من خيبر ومعه صفية أنزلها في بيت من بيوت حارثة بن النعمان، فسمع بها نساء الأنصار، وبجمالها ؛ فجئن إليها، وجاءت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - متنقبة حتى دخلت عليها، فعرفها، فلما خرجت خرج رسول الله ﷺ على إثرها فقال: كيف رأيتها يا عائشة؟ قالت: رأيت يهودية. قال: لا تقولي هذا يا عائشة، فإنها قد أسلمت فحسن إسلامها».

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ١٢٠ - ١٢٩ ؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٦ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٥ - ١٦٦ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ؛ كحالة، أعلام النساء، ج٢، ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ؛ الحصين، نساء في الجنة، ص ١٠١ - ١٠٨.

كان الرسول ﷺ يحب صفية - رضي الله عنها - حباً شديداً، ولها منزلة عالية عنده، وكان يعاملها مع زوجاته أمهات المؤمنين بالمساواة، لكن صفية - رضي الله عنها < لم تنج من التعريض من أمهات المؤمنين، وكنَّ يفتخرن عليها بأنهن قرشيات، أو عربيات، والغيرة تدفع المرأة إلى مواقف وكلمات خاطئة.

ولما مرض الرسول ﷺ جمع زوجاته أمهات المؤمنين - رضوان الله عليهنَّ - فقالت صفية بنت حيي - رضي الله عنها - : « والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمزنها أزواجه، فأبصرهن النبي ﷺ، فقال : مضمضن. قلن من أي شيء يا رسول الله ؟ قال : من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة.

توفيت السيدة صفية - رضي الله عنها - في خلافة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - وقد شهدت الفتوحات الإسلامية حيث كانت وفاتها سنة ٥٠هـ، وقيل ٥٢هـ، وقيل سنة ٣٦هـ، ودفنت في البقيع إلى جانب أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن جميعاً.

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها - (١)

هي برة بنت الحارث، وأمها هند بنت عوف بن زهير، وهي أم أخت الفضل لبابة زوجة العباس بن عبدالمطلب، وخالة خالد بن الوليد - رضي الله عنهم -.

ولدت ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها - قبل بعثة الرسول ﷺ بست سنوات، وعندما أعلن الرسول ﷺ الدعوة لم تظهر إسلامها في بداية الأمر، وكتمت إسلامها في صدرها.

تزوجها مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام، ففارقها، وتزوجها أبو رهم بن عبد العزى، فمات، وتزوج بها الرسول ﷺ في وقت فراغه من عمرة القضاء سنة سبع في ذي القعدة، زوجه إياها العباس بن عبدالمطلب ؛ لأنه كان يلي أمرها.

عرفت السيدة ميمونة - رضي الله عنها - بالزهد والتقوى والورع، وكثرة الصلاة، وكانت شجاعة مجاهدة في سبيل الله، فقد قدمت في غزوة تبوك صورة مشرفة من الشجاعة والتضحية في سبيل خدمة دينها والمسلمين حيث كانت تقف بكل شجاعة وعزيمة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤٦ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج، ص ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢١١ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٦ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢٣٨ - ٢٤٥ ؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص ٥٨٥ ؛ الحصين، نساء في الجنة، ص ١١٨ - ١٢٤.

بين صفوف المسلمين المجاهدين تسعف الجرحى، وتداوي المرضى، وترفع من معنويات المجاهدين.

توفيت السيدة ميمونة رضي الله عنها سنة إحدى وخمسين من الهجرة، ودفنت رضي الله عنها في سرف على حسب روايتها، وقيل توفيت في مكة المكرمة، وحملت على الأعناق بأمر من ابن عباس إلى سرف، وقال: «ارفقوا بها، فإنها أمكم»، وفي رواية أخرى قال: « إذا رفعتم نعشها فلا تزلزلوها، ولا تزعزعوها»، وقالت عنها عائشة - رضي الله عنها - عند وفاتها: « ذهبت ميمونة، أما إنها من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم»، رضي الله عن ميمونة، وأسكنها فسيح جناته.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أن الرسول ﷺ قد تزوج إحدى عشرة امرأة هنَّ أمهات المؤمنين، وكان ذلك باتفاق المؤرخين، واختلفوا في امرأة واحدة وهي ريحانة بنت زيد هل من زوجاته أم من سراياه، وكانت ريحانة من بني النضير، وقعت في غزوة بني قريظة في أسر المسلمين، فكانت من سبايا بني قريظة، فاصطفاها الرسول ﷺ لنفسه، ويقال إنه أعتقها، وتزوج منها في محرم سنة ٦هـ ، فهي من أمهات المسلمين، وقيل في رواية أخرى إن الرسول ﷺ لم يعتقها بل كان يأتيها بملك اليمين فهي من سراياه، توفيت عند عودة الرسول ﷺ من حجة الوداع، ودفنت بالبقيع.

وكان هناك اثنتان لم يدخل بهما الرسول ﷺ هما: أسماء بنت النعمان الكندية، تزوجها فوجد بها بياضاً «أي برصاً» فردها إلى أهلها، وعمرة بنت زيد الكلابية، وكانت حديثة عهد بكفر، فلما قدمت على رسول الله ﷺ استعاذت من رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : منيع عائذ الله؛ فردها إلى أهلها، ويقال إن التي استعاذت من رسول الله ﷺ كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان، ويقال إن الرسول ﷺ دعاها فقالت: » أنا من قوم تؤتى ولا تأتي» فردها إلى أهلها.

وكان لرسول ﷺ سوى هؤلاء النسوة سرية واحدة هي مارية بنت شمعون القبطية، تعد من فضليات نساء عصرها كانت بيضاء اللون، جعدة، جميلة، أهداها المقوقس صاحب الإسكندرية إلى رسول الله ﷺ سنة ٧هـ وكانت معها أختها سرين، وهدايا أخرى متنوعة فأعجب الرسول ﷺ بمارية، وأنزلها العالية، وكانت مارية وأختها سرين قد أسلمتا على يد

حاطب بن أبي بلتعة رسول الرسول ﷺ إلى المقوقس الذي رد على كتاب رسول الله ﷺ رداً كريماً حافلاً بالاحترام، ولكنه كان يخشى ويخاف من قومه، ويخاف أن يخسر ملكه.

كان الرسول ﷺ قد ضم مارية إلى أهل بيته، وكان يأتي إليها بالعالية، وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين، وولدت مارية للرسول ﷺ ولده إبراهيم في ذي الحجة من سنة ثمان للهجرة.

ولما ولدت مارية إبراهيم قال الرسول ﷺ أعتقها ولدها، وإن لم يطلق عليها أم المؤمنين.

اشتدت غيرة نساء رسول الله ﷺ على مارية عندما رزقت من الرسول الكريم بولد، وتقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة من النساء، جعدة، وأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان إنزالها أول ما قدم بها ببيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان الرسول ﷺ عامة النهار والليل عندها حتى فرغنا لها فجزعت فحولت إلى العالية، فكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا، ثم رزقه الله منها الولد، وحرمنا منه».

ولما توفي رسول الله ﷺ ظل الخليفة أبو بكر الصديق ومن بعده عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ينفقان عليها.

توفيت مارية القبطية أم إبراهيم سنة ١٦هـ، وقيل في المحرم سنة ١٥هـ ودفنت في البقيع [(١)].

تزوج الرسول ﷺ كل أولئك الصحابيات المؤمنات - رضي الله عنهن - قبل أن ينزل تحريم الزواج بأكثر من أربعة قال تعالى : ﴿ فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ (النساء: ٣)، وحرم الله زواج أمهات المؤمنين بعد وفاة الرسول الله ﷺ لأنهن أمهات المؤمنين، وفي ذلك حفظ للصلة الدقيقة التي تربط الأمة بنبيها محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ٢١٢ - ٢١٦ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٦٩ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢١١ ؛ كحالة، أعلام النساء، ج٥، ص ١٠ - ١١

ثانياً: بنوه وبناته ﷺ[1]

كان لأنبياء الله ورسله أزواج، وكان لهم أولاد بنين وبنات، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد ٣٨). والرسول ﷺ مثله مثل أولئك الأنبياء والرسل.

تزوج الرسول ﷺ ممن سبق ذكرهنَّ من النساء أمهات المؤمنين - رضوان الله عليهنَّ جميعاً - فأنجبت له خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - جميع بنيه وبناته ما عدا إبراهيم فقد كان من مارية القبطية التي أهداها المقوقس عظيم القبط له، أما زوجات الرسول ﷺ الأخريات فلم ينجب منهن أحد، أنجبت السيدة خديجة - رضي الله عنها - من الذكور والإناث:

القاسم

ولد قبل البعثة النبوية بثلاثة أعوام بمكة المكرمة، وهو أكبر أبنائه، وبه يكنى، وكان أول من توفى من أبنائه وبناته، توفي وهو في سن الرضاعة.

عبدالله

ولد قبل البعثة، ويقال إنه ولد في الإسلام، توفي وهو صغير لم يتجاوز العامين، وكان آخر أولاد الرسول ﷺ من السيدة خديجة - رضي الله عنها - وكان يلقب بالطيب، والطاهر، ولهذا عده البعض ولدين، وعده آخرون ثلاثة أولاد، وهذا غير صحيح حيث إن الطاهر والطيب لقبان لعبدالله بن محمد.

زينب

هي أكبر بنات الرسول ﷺ ولدت بعد القاسم، ولما كبرت زينب خطبتها خالتها هالة بنت خويلد من أختها السيدة خديجة - رضي الله عنها - لابنها أبي العاص بن الربيع فتزوجها قبل بعثة الرسول ﷺ، ولما بعث أبيها ﷺ أسلمت، ولم يسلم زوجها وثبت على شركه، ولما هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب بقيت مع زوجها في مكة المكرمة، فأقامت على إسلامها، وهو على شركه.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٩٣؛ شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، ج٢، ص ٣٧٤ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ٣٠ - ٣٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٢٥٢ - ٢٥٣؛ كحالة، أعلام النساء، ج٤، ص ٢٦١.

شارك أبو العاص مع قريش في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وكان ممن تم أسرهم في تلك الغزوة، فافتدته زينب - رضي الله عنها - وهي في مكة المكرمة، وأطلق سراحه الرسول ﷺ على أن يطلق سبيل زينب - رضي الله عنها، وأن يرسلها له ففعل أبو العاص، وأمر زينب بأن تهاجر إلى أبيها، ثم أسر أبو العاص ثانية مع قافلة لقريش فأجارته زينب - رضي الله عنها - وهي في المدينة المنورة، وأطلق المسلمون سراحه مع القافلة، فلما رجع إلى مكة المكرمة، وأدى إلى كل ذي حق حقه من أمانات الناس وأموالهم، أسلم وتوجه إلى المدينة المنورة مهاجراً مسلماً، فأعاد له رسول الله ﷺ زينب بذلك النكاح الأول، وفي رواية أن رسول الله ﷺ رد عليه ابنته بنكاح جديد.

ولدت السيدة زينب - رضي الله عنها - من أبي العاص - رضي الله عنه - ابناً اسمه علي، وبنتاً اسمها أمامة، وهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة، وقد تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - وتوفيت زينب - رضي الله عنها - في أوائل سنة ثمان للهجرة، فحزن عليها رسول الله ﷺ حزناً شديداً.

رقية

هي الابنة الثانية لرسول الله ﷺ، ولدت قبل البعثة النبوية، وتزوجت من عتبة بن أبي لهب، فلما بعث الرسول ﷺ أسلمت رقية - رضي الله عنها - ولما نزلت «تبت أبي لهب وتب» أمر أبو لهب ابنه عتبة بالانفصال عن زوجته وتطليقها، وقال له : رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق بنته، ففارقها قبل الدخول بها.

تزوجت السيدة رقية - رضي الله عنها - بسيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرتين الأولى والثانية، ثم استقرت بيثرب (المدينة المنورة).

ولدت السيدة رقية - رضي الله عنها - ولداً لزوجها عثمان بن عفان - رضي الله عنه - سماه عبدالله، وكان يكنى به فلما بلغ عبدالله ست سنين نقره ديك في عينه فمرض ومات، وكانت وفاته في سنة أربع من الهجرة.

مرضت السيدة رقية - رضي الله عنها - حين أصابتها الحصبة ورسول الله ﷺ يتجهز للتوجه إلى بدر، فخلف الرسول ﷺ زوجها عثمان لتمريضها والعناية بها، فتوفيت ورسول الله ﷺ ببدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

أم كلثوم

ولدت ونشأت - رضي الله عنها - قبل البعثة النبوية، تزوجها عتيبة بن أبي لهب بن عبدالمطلب قبل البعثة، فلما بعث النبي ﷺ، وأنزل الله عز وجل: « تبت يدا أبي لهب وتب» طلب أبو لهب من ابنه مفارقتها، ففارقها كما فعل أخوه عتبة، عاشت أم كلثوم - رضي الله عنها - في بيت الرسول ﷺ معززة مكرمة، وهاجرت إلى المدينة المنورة، وبعد وفاة أختها رقية زوجة عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - زوجها الرسول ﷺ من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكان ذلك في ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة، ولهذا كان يقال لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - (ذو النورين)، ويقال إنه لم يتزوج أحد ابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره رضي الله عنه.

عاشت السيدة أم كلثوم مع زوجها عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - حياة سعيدة إلا أن السيدة أم كلثوم لم تنجب من عثمان رضي الله عنه ولداً، وتوفيت رضي الله عنها في شعبان من السنة التاسعة للهجرة في حياة أبيها محمد ﷺ، وغسلتها أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبدالمطلب، وقيل غسلها نسوة من الأنصار، فحزن الرسول ﷺ عليها حزناً شديداً.

فاطمة

ولدت فاطمة بنت محمد ﷺ بمكة المكرمة، وكانت قريش حينذاك تبني الكعبة المشرفة، وذلك قبل النبوة بخمس سنين، وتعد فاطمة أصغر بنات الرسول ﷺ، وقد لقبها الرسول ﷺ بأم أبيها ؛ لكثرة حنوها عليه، وشدة حبها له، وملازمتها له، فقد قصرت فاطمة - رضي الله عنها - حياتها بعد وفاة أمها على خدمة أبيها، والاهتمام به ومراعاة طلباته.

تزوج علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - السيدة فاطمة - رضي الله عنها - بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وقيل إنه تزوجها بعد زواج الرسول ﷺ من عائشة - رضي الله عنها - بأربعة أشهر، وبنى بها علي - رضي الله عنه - بعد تزويجه إياها بتسعة أشهر، وكان عمرها عند تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وكان عمر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إحدى وعشرين سنة.

عاشت السيدة فاطمة - رضي الله عنها - مع زوجها علي - رضي الله عنه - حياة قاسية وصعبة، فأدارت الرحى حتى أثرت في يدها، وأسقت بالقربى، وغسلت، وكنست،

وقامت بجميع لوازم منزلها دون أن يساعدها أحد، ورفض الرسول ﷺ طلب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يجعل لها خادماً يساعدها في عمل منزلها.

في آخر العام الثالث الهجري رزقت السيدة فاطمة - رضي الله عنها - بأول أولادها الحسن بن علي - رضي الله عنهم جميعاً- وكان ذلك مصدر فرح وسرور للرسول ﷺ الذي كان متعطشاً للأبناء والطفولة.

وكان ﷺ رغم أعبائه ومسؤولياته يجد وقتاً لملاعبته للأطفال والاهتمام بهم وقد رزق علي - رضي الله عنه - من السيدة فاطمة - رضي الله عنها - بجانب الحسن كلاً من الحسين - وأم كلثوم، وزينب - رضي الله عنهم جميعاً.

ولما اشتد المرض على رسول الله ﷺ قالت فاطمة - رضي الله عنها - : وا كرب أبتاه! فقال لها : لا كرب على أبيك بعد اليوم. فلما توفي قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»، ولما دفن رسول الله ﷺ قالت فاطمة - رضي الله عنها - لأنس : كيف طابت نفوسكم تحثون على رسول الله ﷺ التراب ورجعتم؟!

كان الرسول ﷺ أثناء مرضه يقول لفاطمة - رضي الله عنها - : « إني مقبوض في مرضي هـذا»، فبكت فاطمة - رضي الله عنها - ثم أخبرها : «أنها أول أهله لحاقاً به، وإنها سيدة نساء هذه الأمة»، فضحكت، وكتمت ذلك، فلما توفي الرسول ﷺ سألتها عائشة - رضي الله عنها - فحدثتها بما أسر إليها.

لم تطل مدة حياة السيدة فاطمة - رضي الله عنها - بعد وفاة والدها أكثر من ستة أشهر، وهناك من يقول أقل، وآخرون يقولون أكثر، ولكن الثابت والصحيح ستة أشهر، وكانت وفاتها - رضي الله عنها - في يوم الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة ١١ هـ، وكان عمرها عند وفاتها تسعاً وعشرين سنة أو نحوها، وقيل خمساً وثلاثين سنة، وهي الابنة الوحيدة من بني وبنات الرسول ﷺ التي عاشت بعد وفاته. أولئك هم أبناء وبنات الرسول ﷺ من السيدة خديجة - رضي الله عنها.

رزق الرسول ﷺ ولداً واحداً من سريته مارية القبطية - رضي الله عنها - فأنجبت له ابنه إبراهيم، وهو الولد الوحيد لرسول الله ﷺ من غير خديجة - رضي الله عنها - وقد سُرَّ الرسول ﷺ سروراً عظيماً بولادة إبراهيم الذي جاء بعد أن مات كل أولاده إلا فاطمة - رضي الله عنها - وقد حرم الولد من كل نسائه ﷺ إلا من خديجة - رضي الله عنها - ولكن

فرح الرسول ﷺ بابنه إبراهيم لم يستمر طويلاً حيث فُجِع رسول الله صلى عليه وسلم بوفاة طفله إبراهيم قبل أن يكمل عامه الثاني، وكان ذلك في السنة العاشرة، وقد كانت وفاة إبراهيم لحكمة عالية يعلمها الله فقد أراد الله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤٠) تخفيفاً على أمته من الفتن وحسماً لموضوع ختم النبوة، وأن النبوة لا تورث، ودفن إبراهيم بالبقيع، وقد قال عنه رسول الله ﷺ: « إن له موضعاً يتم رضاعه في الجنة».

الفصل الحادي عشر

صفات الرسول ﷺ الخَلقية والخُلقية

القسم الأول : صفات الرسول ﷺ الخَلقية والخُلقية

أولاً: صفات محمد ﷺ الخَلْقية(١)

تناولت الأحاديث النبوية الشريفة والآثار المورثة التي تدل على كمال خلقته وجمال صورته بما لا يحيط بوصفه البيان، لذلك كان من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله عزو جل قد جعل بدنه وجسمه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق بشر آدمي مثله، فكان الرسول محمد ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأكملهم صورةً، وأفضلهم خلقاً حتى كأن الشمس تجري في وجهه، إذا ضحك تلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أجمل الناس من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب وفيما يلي نورد ملخصاً لبعض الروايات عن حسن خلقه ﷺ :

كان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إذا وصف أو نعت الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام قال : لم يكن بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا السبط، وكان جعداً رجلاً، ولم يكن بالمطهم، ولا المكلثم، وكان أبيض مشرباً، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المسرية، أجرد شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع، كأنما يمشي في صب، وإذا التفت التفت معاً، وكان بين كتفيه خاتم النبوة، وهو ﷺ خاتم النبيين، أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، يقول ناعته : « لم أر قبله ولا بعده مثله « ﷺ.

وعن جابر بن سمرة أيضاً : « رأيت رسول الله ﷺ في ليلة أضحيان ، وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر ,فهو عندي أحسن من القمر».

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور من بين ثناياه»

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٤٠١ – ٤٠٢ المبار كفوري، الرحيق المختوم، ص٤٧٤ – ٤٧٨

وقد وصفه أبو الطفيل فقال : « كان أبيضَ مليح الوجه إذا سر فكأن وجهه مرآة، وكأن البدر يرى في وجهه».

وقال جابر : « مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً»، واجتمعت كلمة الصحابة الذين وصفوا رسول الله ﷺ على أنه كان منير الوجه، مشرق المحيا، يتلألأ بالنور الباهر، والضياء الزاهر، والبهاء الظاهر».

ثانياً: صفات الرسول ﷺ الخُلقية(١)

منح الله سبحانه وتعالى الرسول محمد ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره من قبله أو بعده، وكان الرسول ﷺ يتحلى بكامل الصفات والخصال الحميدة من حسن خلق، وكرم، وزهد، وتواضع، وحلم، وشجاعة، وعدل، ووفاء، وصبر وحياء، وحسن معاشرة، ومزاح فدعونا نتابع بإيجاز بعض أخلاقيات الرسول ﷺ على ضوء ما جاء في الأحاديث والمصادر التاريخية.

حسن خُلق الرسول ﷺ

إن أخلاق الرسول ﷺ ميزة شخصيته الكبرى، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقد اجتمع لرسول الله ﷺ من الأخلاق الحميدة ما لم يجتمع لإنسان قط، فكل ما تعرف البشر من الصفات العالية، والأخلاق السامية متضمن في أخلاقه وصفاته ﷺ.

كرم الرسول ﷺ

كان الرسول ﷺ أكرم خلق الله، وأجود البرية نفساً ويداً، وأكرم الناس نسباً ؛ فهو سيد ولد آدم، وكان جوده وكرمه ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاة الله تعالى ؛ فإنه كان يبذل المال تارة لفقير، أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله سبحانه وتعالى وكان الرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

كان الرسول ﷺ كريم النفس، غزير الجود ينفق سخاء وكرماً، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: « ما سئل رسول الله ﷺ في الإسلام شيئاً إلا أعطاه، وهو مع هذا صابر محتسب في خاصة نفسه».

---

(١) رواه البخاري، الحديث (٣٥٦٢) ؛ مسلم الحديث (٢٣٢٠).

زهد الرسول ﷺ

كان رسول الله أزهد الناس، ويكفيك في تعريف ذلك أن فقره ﷺ كان فقر اختيار لا فقر اضطرار ؛ لأنه فتحت عليه الفتوح، وجلبت إليه الأموال، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، وهو يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

ويقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – « لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم لا يجد الدقل مما يملأ به بطنه «وتقول السيدة عائشة – رضي الله عنها:«توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي ».

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر بجلده فجعلت أمسحه عنه، وأقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ألا أذنتنا فنبسط لك، فقال:«ما لي وللدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، عرض عليه ربه سبحانه وتعالى أن يحول له الأخشبين – وهما جبلان من جبال مكة المكرمة – ذهباً وفضة، وذلك بعد عودته من الطائف جريحاً كئيباً حزيناً فقال : « لا يا رب أشبع يوماً فأحمدك، وأثني عليك، وأجوع آخر فأدعوك وأتضرع إليك»

تواضع الرسول ﷺ

وأما تواضعه ﷺ فأمر منتشر، والخبر به مشتهر، وحسبك أنه ﷺ خير بين أن يكون نبياً عبداً، أو نبياً ملكاً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، دخل عليه ﷺ رجلٌ فارتعد من هيبته، فقال : «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة المكرمة».

خرج الرسول ﷺ على أصحابه متوكئاً على عصا، فقاموا، فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً «، وقال : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس.

حلم الرسول ﷺ

كان له ﷺ من الحلم كما له مَن كل خلق، يغضب للحق إذا انتهكت حرماته، وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيءٌ حتى يهدم الباطل وينتهي، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن ونجد حلمه دائماً عجيباً يفوق الحد الذي يتصوره

الناس، وكان ﷺ حليماً لا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها إلا أن تنتهك حرمات الله.

ومن حلمه ﷺ ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: « بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»

وجاء إلى الرسول ﷺ رجل وهو يقسم الأموال فقال: « اعدل ؛ فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله»، فحلم رسول الله ﷺ وقال له: « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل»، ولم ينتقم منه، ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك.

وفاء الرسول ﷺ

كان ﷺ مضرب الأمثال في الوفاء بالعهد مع أعدائه إذ ما هو عاداهم، أو كان لبعضهم عمل طيب معه، كان المطعم بن عدي قد أجار الرسول ﷺ حينما عاد من الطائف فحفظ الرسول ﷺ له ذلك، ولما قتل المطعم يوم بدر - وكان من المشركين - رثاه حسان بن ثابت الأنصاري بشعر ردده المسلمون.

وكان الرسول ﷺ إذا أتي إليه بهدية قال: « اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة»

وكان ﷺ يبعث إلى ثويبية مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة، فلما ماتت سأل: من بقي من قرابتها؟ فقيل: لا أحد، ولو قيل: بقي فلان أو فلانة لوصلهما ؛ قياماً بواجب صلة الرحم.

شجاعة الرسول ﷺ

من أدلة شجاعة الرسول ﷺ ومظاهرها شهادة الشجعان الأبطال له بذلك، فقد قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو من عرف بالشجاعة - « كنا إذا حمي الوطيس، أو اشتد البأس، واحمرت الحَدَقُ اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وكان أشجعنا من كان أقرب إليه»

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: « كان رسول الله ﷺ أجمل الناس وجهاً، وأجودهم كفاً، وأشجعهم قلباً، وخرج يوماً وقد فزع أهل المدينة المنورة، فركب فرساً لأبي طلحة عُرباً، ثم رجع وهو يقول: لن تراعوا، لن تراعوا» .

وعن أبي إسحاق قال : سألت البراء، وسأله رجل فقال : فررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء : ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن ناساً رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإنَّ أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول : «أنا النبي لا كذب ... انا ابن عبدالمطلب».

عدل الرسول ﷺ

كان الرسول ﷺ أعدل الناس، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف بذلك محاوروه وأعداؤه، كان عدله ﷺ وإقامته لشرع الله تعالى ولو على أقرب الأقربين.

كان الرسول ﷺ عادلاً في قوله وفعله وحكمه لا يجور ولا يحيف وهو القائل: «إن سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ... وعد منهم الإمام العادل». وقال ﷺ : « إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة «، وهو القائل أيضاً : « ثلاثة إجلالهم من إجلال الله تعالى وذكر من بينهم الإمام العادل».

عرف الرسول ﷺ بالعدل بين نسائه ﷺ، ويتحمل ما قد يقع من بعضهن من غيرة، كما كانت عائشة – رضي الله عنها – غيورة فعن أم سلمة – رضي الله عنها – أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ فجاءت عائشة ومعها فهر فقذفت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة وهو يقول : كلوا غارت أمكم – مرتين – ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة، فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة لعائشة رضي الله عنهما

ولما سرقت المخزومية، وشق على المسلمين إقامة الحد عليها، فتقطع يدها، فتوسطوا له بحبه وابن حُبه أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – فرفع إليه القضية، فقال : « أفي حد من حدود الله تشفع يا أسامة؟! والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» فكان هذا مظهراً عظيماً للعدل المحمدي.

صبر الرسول ﷺ

صبر رسول الله ﷺ على الاضطهاد والتعذيب، والإذاء والتجويع، والسخرية، والردود القبيحة عليه، والاهانات المتوالية، وصبر على الطرد من الوطن والإخراج من الديار، والابتعاد عن الأهل، وصبر على قتل القرابة، والفتك بالأصحاب، وتشريد الأتباع، وتكالب الأعداء، وصولة الباطل، وطغيان المكذبين.

صبر في عام الحزن حيث ماتت خديجة الزوجة الحنون - رضي الله عنها -، ومات عمه الحاني المدافع أبوطالب، وتوفي ابنه فصبر، ورميت زوجته عائشة رضي الله عنها فصبر، وكُذب، وقالوا له : شاعر، كاهن، ساحر، مجنون فصبر.

صبر على الجوع الشديد ؛ فقد مات ﷺ ولم يشبع من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط فصبر، وهل يُتعلم الصبر إلا منه؟! وهل يقتدى بأحد في الصبر إلا به؟! فهو مضرب المثل في سعة الصدر، وجليل الصبر، وعظيم التحمل، وهو سيد الصابرين، لم يهن، ولم تضعف همته، ولم يدنس عرضه، ولو أوذي غيره بمعشار ما أوذي أو أصابه من البلايا دون ما أصابه لتخلى عن دعوته، وهرب من مسؤليته، ولكن الله عصمه فصبّره وجبره، وحماه، وقوّاه ليبلغ عنه رسالته، ويجعله آية للناس في صبره وحكمته، وثبات قلبه قال تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

حياء الرسول ﷺ

أما حياؤه ﷺ فقد كان أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغفاء، قال فيه الرسول ﷺ : « الحياء من الإيمان، والحياء شعبة من الإيمان».

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : « كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه».

وكان رسول الله ﷺ لطيف البشر، رقيق الظاهر، لا يواجه أحدًا بما يكرهه حياء وكرماً، وكان يكل ذلك إلى غيره، روى أنس - رضي الله عنه - أنه كان عنده ﷺ رجل له أثر صفرة، فكان ﷺ لا يكاد يواجه أحدًا بشيء يكرهه، فلما قام، قال للقوم : « لوقلتم ليدع هذه الصفرة».

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل ما بال فلان يقول كذلك، ولكن يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه، ولا يسمي فاعله».

حسن معاشرة الرسول ﷺ

كان الرسول ﷺ مضرب المثل في حسن الصحبة، وجميل المعاشرة، وأدب المخالفة، فقد قال الله تعالى : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

ووصف علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – الرسول ﷺ بقوله : « كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة» .

ولم يكن أحد أحرص من الرسول ﷺ على حسن معاملة أصحابه، حتى لقد كان يكني عن الشخص الذي يريد تشبيهه إلى خطأ كي لا يحقره بين الأقران، وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره.

وكان ﷺ يعود مرضى أصحابه، ويشهد موتاهم، ويقبل عذر المعتذر منهم، ويكنهم ويدعوهم بأحب أسمائهم ، ويقبل هداياهم ويكافئ عليها ، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته، وسأله عن حاجته).

مزاح الرسول ﷺ

عن أنس – رضي الله عنه – أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي للنبي ﷺ الهدية من البادية فجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج قائلا : «إن زاهراً بادينا ونحن حاضروه» وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان رجلاً ذميماً فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال : « أرسلني، من هذا ؟» فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره ببطن النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول : « من يشتري العبد؟» فقال : «يا رسول الله إذاً والله تجدني كاسدًا»، فقال رسول الله ﷺ : « لكنك عند الله لست بكاسد، أو قال لكنك عند الله أنت غال .

وحدث أن امرأة جاءت تسأل عن زوجها فقال النبي ﷺ : « زوجك الذي في عينه بياض، فبكت، وظنت أن زوجها عَمِي فأعلمت أن العين لا تخلو من بياض، فكانت مداعبة من الرسول ﷺ

وكان الرسول ﷺ مع أهله أحلم الناس، يمازحهم ويلاطفهم، ويعفو عنهم، ويدخل بابتسامة، يملأ قلوبهم وبيوتهم أنساً وسعادة، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : «خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: تقدموا، ثم قال لي : « تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، حتى إذا حملت اللحم وبدنت نسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس : تقدموا فتقدموا، ثم قال لي : تعالي أسابقك فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول : « هذه بتلك».

القسم الثاني : معجزات الرسول ﷺ[1]

إن المراد من المعجزات ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فيكون ما يأتي به النبي ﷺ معجزاً لغيره من سائر البشر، بحيث لم يقدروا عليه أفراداً أو جماعات لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم.

وكان النبي ﷺ أكثر الرسل آيات ومعجزات بينات، وأظهرهم برهاناً، وقد ذكر أهل العلم أن أعلام ودلائل نبوته تبلغ ألفاً، وأنها كانت تظهر في مواطن اجتماعهم وفي محافل المسلمين، ولم ينقل عن أحد من الصحابة - رضوان الله عليهم - مخالفة ولا إنكار على من روى ذلك.

معجزة القرآن

كانت معجزة الرسول ﷺ الكبرى كتاب الله الذي أنزله رب العالمين على قلب رسوله الكريم ﷺ ليكون للناس شفاء ورحمة، وأكد ذلك على نبوته، وصدقه في رسالته، لأن القرآن معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه، ومعانيه، وأخبار الغيوب التي وردت فيه فكانت كما أخبر ﷺ، كما هو معجز بالأحكام الشرعية، والقضايا العقلية التي لا قبل للبشر بمثلها.

فالقرآن من أعظم دلائل نبوته، فقد تحدى العرب بما فيه من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والاتيان بصورة من مثله فعجزوا عن الاتيان بشيء مثله مع أنه كان أمياً، وكانت قريش أهل البلاغة والفصاحة والشعر، وكانوا يرتجلون الكلام البليغ في المحافل ارتجالاً.

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر روعته التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وعلو مرتبته فبتلاوته تبتعد نفوس الناس عن أسباب الهلاك والمعاصي.

إن معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة تحمل في طياتها كل أنواع المغيبات، ودلائل الإعجاز والنبوة، ففيه أخبار ما قبله، وما بعده، وإعجازات عملية وغيبية، ولا تنقضي عجائبه كلما درسه العلماء في كل زمان ومكان.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ؛ كشك، من أحوال المصطفى، ص ٣٥ ؛ العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢، ٦١٢ - ٦١٣ ؛ الزياني، علي بن محمد، هذا هو رسول الله مع برامج عملية لنصرة النبي المختار، الرياض، مكتب الدعوة، ص ٥١ ؛ الخضري بك، نور اليقين، ص ٣١٠ - ٣١٠ ؛ الجزائري، هذا الحبيب، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

انشقاق القمر

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر، وقد نطق به القرآن، قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ (القمر: ١)، وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك منه في زمنه عليه الصلاة والسلام، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : « إن أهل مكة المكرمة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فآراهم انشقاق القمر مرتين»، وما كان من كفار قريش إلا أن قالوا « إن كان سحراً فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس».

نبع الماء من تحت أصابعه

ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من تحت أصابعه ﷺ، روى البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : « رأيت رسول الله ﷺ وقد حانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم».

تكثير الطعام بين يدي الرسول ﷺ

واستفاضت الأخبار الصحيحة في تكثير الطعام بين يديه - عليه الصلاة والسلام - منها حديث جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - في الخندق حيث رأى النبي ذ يعصب بطنه بحجر من الجوع، فقد لبث المسلمون ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً، فذبحتُ ماعز، وطُحن الشعير، فصنعت من اللحم والشعير بُرمة، وذهب جابر فدعا رسول الله ﷺ إلى طعامه قائلاً : « طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، فصاح النبي ﷺ بأهل الخندق ودعاهم إلى طعام جابر وهم ألف، فأسقط في يد جابر - رضي الله عنه - وأشفق قلة الطعام، فبارك النبي ﷺ في الطعام، قال جابر- رضي الله عنه - : فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن رمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو».

عصمة الرسول ﷺ من أذى أبي جهل

روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : « قال أبو جهل : «هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم» ؟ قال : فقيل : نعم، فقال : « واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على

رقبته أو لأعُفِّرنَّ وجهه في التراب، قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته، قال : فما فجئتهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال : فقيل له : ما لك؟ قال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ : «لو دنا مني لاقتطعته الملائكة عضواً عضواً».

إخبار الرسول ﷺ بأمور غيبية(1)

وأما إخباره ﷺ بأمور غيبية فهو لا يدل على معرفة الغيب إذ ليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له فهو عالم الغيب والشهادة وهو سبحانه بكل شيء عليم، وكان للنبي ﷺ النصيب الأوفى من هذا الفضل العظيم الذي كان يخبر بما يعلمه الله بواسطة الوحي.

إخبار الرسول ﷺ بموت النجاشي ملك الحبشة

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : « نعى النبي ﷺ النجاشي في اليوم الذي ماتِ فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم، وكبر أربع تكبيرات».

إخبار الرسول ﷺ عن استشهاد القواد الثلاثة

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن الرسول ﷺ بعث زيداً، وجعفراً، وابن رواحة، ودفع الراية إلى زيد، فأصيبوا جميعاً، فنعاهم رسول الله ﷺ إلى الناس قبل أن يجيء الخبر، فقال : «أخذ الرايةَ زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب، ثم أخذها ابنُ رواحة فأصيب، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله له».

إخبار الرسول ﷺ بسحر لبيد بن الأعصم

رُوي عن جمع من الصحابة – رضي الله عنهم – أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ، فأخبره جبريل وميكائيل بما صنع، وحدد أحدهما مكانه قائلاً : « في مشط ومُشاطة جُف طلقه ذكر في بئر دَرْوان»، فأتاها رسول الله ﷺ فقال : « هذه البئر التي أريتها كأن نخلها رؤوس الشياطين، وكأن ماءها نقاعة الحِناء»، فأمر به فأخرج.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٠؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٣/ ١١٠-١١٢؛ رزق الله أحمد، الشمائل، ص ١٣٨.

معجزات الرسول ﷺ مع أنواع من الجماد والنبات والحيوان

أولاً : مع الجماد(1)

تسليم الأحجار عليه

ومن معجزاته ﷺ تسليم الأحجار عليه قال رسول الله ﷺ : « والله إني لأعرف حجراً بمكة المكرمة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : « كنت مع النبي ﷺ بمكة المكرمة، فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله».

ثانياً : مع النبات(2)

الشجرة تنتقل من مكانها ثم ترجع

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : « جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين قد خُضِّب بالدماء من ضرب بعض أهل مكة المكرمة، فقال له : ما لك؟ قال : فعل بي هؤلاء وفعلوا. فقال له جبريل : أتحب أن أريك آية؟ قال : نعم. قال : فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال : ادع تلك الشجرة، فدعاها، قال : فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال : مرها فلترجع، فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ : حسبي».

الشجرة تقر للرسول ﷺ بالشهادة

عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا قال له رسول الله ﷺ : أين تريد؟ قال : إلى أهلي. قال : «هل لك إلى خبر؟» قال: ماهو؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» قال:«هل من شاهد على ما تقول؟» قال ﷺ : «هذه الشجرة»، فدعاها رسول الله ﷺ، وهي على شاطئ الوادي فأتت تخد الأرض خداً، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال، ثم إنها رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، فقال : إن يتبعوني أتيت بهم، وإلا رجعت إليك، وكنت معك».

---

(1) أخرجه مسلم في الفضائل، الحديث (٢) ؛ الترمذي في المناقب الحديث (٦٣٢٦) ؛ تونسي، طاهر، في رحاب الحبيب محمد ﷺ، جدة، دار كنوز المعرفة، ١٤٣٠هـ، ص ١٣١.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ١١٨ ؛ ابن ماجة، الحديث (٤٢٣٠)، أخرجه الحاكم ٢/ ٦٢٦ ؛ البيهقي في الدلائل، ٦/ ١٥.

ثالثاً : مع الحيوان[1]

الوحش يوقر الرسول ﷺ

ومن معجزات الرسول ﷺ شهادة الحيوانات والطيور له بالرسالة فقد كان في بيت الرسول ﷺ وحش يحترمه ويوقره ويجله، قالت عائشة - رضي الله عنها - « كان لآل الرسول ﷺ وحش فإذا خرج رسول الله لعب واشتد، وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل رمض فلم يترمرم ».

ذراع الشاة يتكلم

في غزوة خيبر أهدت زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم لرسول الله ﷺ شاة مشوية قد سمتها، وسألت : أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا : الذراع، فأكثرت من السم في الذراع، فلما انتهش من ذراعها، أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة، ثم قال : اجمعوا لي من ها هنا من اليهود، فجُمعوا له : فقال : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا : نعم، قال : أجعلتم في هذه الشاة سماً، قالوا : نعم، قال فما حملكم على ذلك، قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك».

دعاء الرسول ﷺ لآله

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - « أن رسول الله ﷺ قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» ، وقد أجيبت دعوة النبي ﷺ.

دعاء الرسول ﷺ لابن عباس - رضي الله عنه -

عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : « ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال : اللهم علمه الحكمة»، وفي رواية « علمه الكتاب»، وقد أجيبت دعوة النبي ﷺ، وأصبح ابن عباس ترجمان الأمة ومن أكبر فقهائها، وأعظم علمائها بعد النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد، ٦/ ١١٣ ؛ السيوطي، الخصائص الكبرى، ٢/ ٦٣ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/ ١٦٢؛ أخرجه البخاري في الطب، باب ما يذكر ؛ أبو داؤد، الحديث (٤٥٠٩) ؛ مراد، ١٠٠ معجزة ومعجزة، ص ٥٢؛ ابن الأثير، أسد الغابة، الحديث (٤٢٧١) ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٦ ؛ مراد ١٠٠ معجزة ومعجزة، ص ٥٦.

تلكم بعض من معجزات الحبيب محمد ﷺ والتي إن قرأها المؤمن ازداد إيماناً على إيمانه، ولامست نفحات الإيمان قلبه، وقد أظهر الله على يديه تصديقًا لدعوته من المعجزات ما لا يفي به العد، فهو أكثر الأنبياء آية، وأظهرهم برهاناً، وكانت معجزاته متنوعة في جنسها، ومتكررة في أوقات عديدة.

الخاتمة

وبعد تلكم الرحلة المباركة في كتابنا مختصر رحلة في ظلال السيرة النبوية الذي يعد اختصارًا لكتابنا المعنون بـ (رحلة في ظلال السيرة النبوية) نكون قد انتهينا من تأليف كتابنا الذي أقدمه لكل مسلم ومسلمة، وكل أهل الأرض باختلاف دياناتهم عن سيرة النبي المختار محمد ﷺ ومكانته، وجوانب حياته المختلفة منذ مولده حتى وفاته لتكون عظة وعبرة ودروساً ومنهاجاً لكل أهل الأرض ليتعلم منها ويؤمن بأن الرسول الكريم ﷺ كان ولا يزال أحسن الناس أخلاقاً وخلالاً وشمائل، وأنه المثل الأعلى للبشرية، به ختمت النبوات، وهو الماحي الذي يمحو به الله الكفر والظلمات، وأثنى الله عليه ليكون قدوة للعالمين.

إن ما ذكرناه عن الرسول ﷺ ما هو إلا قليل من كثير، وحقيقةً لم أشعر بالخوف والرعب يجتاحني كما شعرت به وأنا أحاول جاداً وجاهداً كتابة سيرة الحبيب محمد ﷺ العطرة، فالكتابة عن الرسول المصطفى ﷺ ليس أمراً سهلاً ولا هو بالميسور خشية التقصير والزلل، فسألت الله العون والمساعدة فكان الله عز وجل خير المعين والمساعد ؛ فأمدني بالقوة والعزيمة والاستمرار حتى انتهيت ولله الحمد والمنة من كتابة سيرة الحبيب محمد ﷺ، ولكن مع ذلك فإنني أعترف بأنني مهما تحريت الصواب فهو عرضة للخطأ والزلل، وحسبي أنني كنت أحرص كل الحرص ، وأجتهد كل الجهد ألا أقع في الخطأ، وإن كان هناك من هفوات أو تقصير فأرجو كل الرجاء ممن قرأ هذا الكتاب أن يغتفر لي ذلك.

وأرجو من الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب كل من يقرؤه، وأن لا يحرمني من صالح دعائه، فجزى الله القارئ عني خير الجزاء، وأحمد الله الذي حفظ كتابه الكريم، ووفق المسلمين لحفظ سنة وسيرة النبي المختار محمد ﷺ.

اللهم صلِ على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة